من تاريخ اللغة العربيـــة (٤)

لهجتا قريشـــ وتميـــم والاختيــار اللغــوي

د. مسعود بوبو
جامعــة دمشـــق

الملاحظ بوجه عام أن علماء العربية القدماء لم يولوا المظاهر اللهجية في زمنهـم من العناية والاهتمام ما أولوه للهجتي قريش وتميم اللتين خصوا السمات اللهجيـة المروية عنهما بفضل تأمل وتدبر ، لان مظاهر الاختلاف بينهما اكثر تعددا وتنوعا ، وصلة باللغة الادبية العالية . ولان القبيلتين تبوأتا منزلة بارزة بين قبائل العرب : دينيا ، وادبيا ، وجغرافيا ، اذ احتلت تميم مكان الصدارة في نجد ، واحتلت قريش مكان الصدارة في الحجاز ، وبلهجتيهما كثـر الاحتجاج والاقتـداء ، وعليهمـا قاس اللغويون فيما بعد ، الا أن نزول القرآن بلهجة قريش رجح كفتها في الفصاحة ، ورفع مكانتها في الدين والحسب والنسب والمجد .

ولقد كان من مظاهر الاختلاف بين اللهجتـين ــ على ما تـروي كتب اللغــة ــ الصور التاليـة :

ــ تحقيق الهمز عند التميميين وتسهيله أو تخفيفه عند الحجازيين ، فالحجازيون كانوا يقولون مثلا : بير ، فواد ، بيس .. في « بئر » ، « فـؤاد » ، «بئـس» . وعلى ذلك قراءة نافع وابي جعفر (من اشهر قراء المدينة) : (وبيس المهـاد) و (أصبح فواد أم موسى فارغاً) و (خاسياً وهو حسير) بدلا من «بئس» و «فؤاد» و «خاسئاً» . والتميميون يحققون الهمز في هذا كله ، بل ربما بالغوا فهمزوا ما ليـس بمهموز أو نبروه . وتلك ظاهرة فاشية بين العرب غالبة على التسهيل . قـال ابن الجـزري : « ولما كان الهمز أثقل الحروف نطقاً ، وأبعدها مخرجاً ، تنـوع العـرب في تخفيفه بأنواع التخفيف ، كالنقل ، والبدل ، وبين بين ، والإدغام وغير ذلك .. وحكى المبرد بسنده عن ابي زيد الأنصاري أنه سمع عمرو بن عبيد يقرأ : (فيومئذٍ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جأن) بهمز « جأن ». قال أبو زيد : فظننت قـد لحن ، الـى أن سمعت العرب تقول : شأبة ، مأدة ، دأبة ، وعليه قول كثير :

نشرت الحلقة الاولى من هذه الدراسات في العدد ٣٣/٣٤ (١٩٨٩) ، والثانية في العدد ٣٧/٣٨ (١٩٩٠) والثالثة في العدد ٤٧/٤٨ (١٩٩٣) .

إذا ما العوالي بالعبيط احمارّت (١)

ومن ذلك قول بعضهم : لبأ بالحج تلبئة ، وأصله [لبى] غير مهموز . قال الفراء : ربما خرجت بهم فصاحتهم الى همز ما ليس بمهموز ، قالوا : لبأ بالحج ، وحلأ السويق . ورثأ الميت .. والمشهور ان العرب تركت الهمز في كلمات معدودات لكثرة الاستعمال نحو : الخابية من خبأ . والبرية من برأ الله الخلق ، والذرية من ذرأ الله الخلق .. وعلى العموم فان الأكثر عند العرب الهمز ، وعلى ذلك نزول القرآن واختياره نبر الهمز لغة فصيحة ، وإن لم يلزم الحجازيين بتحقيقه ، لذا كان اهل مكه والمدينة لا ينبرون الا اذا اضطروا وأرادوا محاكاة التميميين استلطافاً لهذه الصفة الحلوة من صفات لهجتهم . أو خروجا على سليقتهم في تسهيل الهمزة في غير لهجات خطابهم العادية . لشعورهم بان تحقيق الهمزة في الاساليب الادبية من شعر وخطابة اقرب الى الفصاحة من تسهيلها ، يقول سيبوية : « ليس أحد من العرب الا ويقول تنبأ مسيلمة ، بالهمز ، غير أنهم تركوا الهمز في النبي كما تركوه في الذرية والبرية والخابية ، الا أهل مكة ، فانهم يهمزون هذه الاحرف (يعني الكلمات) ولا يهمزون غيرها ، ويخالفون العرب في ذلك »(٢) . وجاء في « لسان العرب » أن قريشاً واهل الحجاز لا ينبرون سوى الهمزات التي يبتدأ بها(٣) .

ومعيار الترجيح العام لتخفيف الهمز أو تحقيقه عند العرب يتوقف على المعنى. فهو العمدة او ما يحتكم إليه في التفريق بين معاني ما يهمز وما لا يهمز من الكلام ، وعليه تنبني نتائج خطيرة . من مثل ذلك ما جاء في معجم « مختار الصحاح » لابي بكر الرازي ، قال: أدفيت الجريح : أجهزت عليه . وفي الحديث « أنه صلى الله عليه وسلم أتي بأسير يوعك . فقال لقوم : اذهبوا فادفوه » ، وأراد الدفء من البرد ، فذهبوا به فقتلوه. فوداه صلى الله عليه وسلم(٤) ، اي : دفع ديته .

ـ ومن وجوه الاختلاف بين اللهجتين إدغام المثلين عند التميميين وفك هذا الادغام عند الحجازيين ، ويمثلون للهجة تميم بقول شاعرها جرير بن عطية الخطفي :

فغضّ الطرف إنك من نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

(غضّ) فعل امر يقال بلهجة قريش : اغضض ، وعلى ذلك قوله تعالى : (واغضض من صوتك) . وعلى غرارها جاءت أمثلة متعددة في آيات أخر ، ولكنها قرئت بالادغام عند تميم . كمألوف نطقنا اليوم في اقطار العربية .

ـ ومنها : إبدال المد في القافية نوناً عند التميميين تسمى نون الترنم ، وحذف هذه النون عند الحجازيين ، نحو قول جرير في رواية لبيته المشهور :

أقلي اللوم عـاذل والعتابـن   وقولي ان اصبت لقـد أصابن

أما الحجازيون فيقولون ذلك :

أقلي اللوم عـاذل والعتابـا   وقولي ان أصبـت لقـد أصابا

ـ ولعل من اوسع أمثلة الاختلاف بين اللهجتين ما يتصل بالحركات ، أو بالعلل القصيرة Short Vowele (الضمة والفتحة والكسرة) سواء في الاسـماء أم في الافعال نحو :

ـ حصاد ، قطاف ، حج . . هي عند تميم بفتح أوائلها ، وعند قريش بالكسر .

ـ اسوة ، قدوة ، مرية(٥) ، مدية ، رضوان ، غلظة . . هي عند تميم بضـم أوائلها ، وعند قريش بالكسر .

ـ ومنها : اختلاف القبيلتين في التسكين والتحريك ، فمن القرآن الكريـم نذكر الامثلة التالية : (قدرة ، جزءاً ، أكلها ، القدس ، رسلنا ، السحت ، عسراً ، نكراً ، خطوات . .)، قرئت كلها بالتسكين (على الحرف الثاني منها) في لغة تميـم وأسد ، وبالتحريك (بالضم) عند أهل الحجاز .

ـ واختلفت القبيلتان في عين الفعـل ، في المضارع ، بين الفتح والكسر ، فكانت أمثلة كثيرة ، كالأفعال : (زهد ، حقد ، نزع ، حسب ، بطـح ، نحـت ، قحل . .) مكسورة عين الفعل عند تميم ، وعند قريش مفتوحة العين . ولعلها المرة الاولى التي نرى الحجازيين فيها يميلون الى الفتح في النطق ، ويفضل التميميون الكسر !. ومن شواهد ذلك في الاسماء قول قريش : الشفع والوتر (بفتح الواو) ، وتميـم تقـول بكسرها .

ـ ومما يتصل بالحروف والاصوات نجد أمثلة متعددة تتناقلها كتب اللغـة دونما تعليق أو تحليل ، مكتفية بعزوها الى القبيلتـين ، كلّ بحسـب نطقها ، فاذا ما تأملتها في إمعان ومقارنة وجدت أنها لا تنقاد لحكم عـام يمكنـك مـن استخلاص خصائص كل من اللهجتين ، وإليك بعض ما قيدوه من ذلك :

تميم تقول : ثومها ، الثام ، وقريش تقول : فومها ، اللفام (تبادل الحرفين : ث ، ف) .

تميم تقول : شمر عن صاقه ، الصماخ وقريش تقول: شمر عن ساقه ، السماخ (تبادل الحرفين : ص ، س).

تميم تقول : افلطني الرجل افلاطا ، فحصط برجلك ، وقريش تقول : أفلتني إفلاتاً ، فحصت (تبادل الحرفين : ط ، ت) .

تميم تقول : قشطت الجل عن الفرس، وقريش تقول : كشطت الجل عن الفرس (تبادل الحرفين : ك، ق).

تميم تقول : فاضت نفسه (خرجت) ، وقريش تقول : فاظت نفسه (تبادل الحرفين : ض ، ظ) .

تميم تقول : قلنسوة ، مبيوع ، مديون ، وقريش تقول : قلنسية ، مبيع،مدين (تبادل الحرفين : و ، ي).

تميم تقول :صوام، نوام ، صواغ ، مواثيق ، وقريش تقول : صيام ، نيام، صياغ ، مياثيق (تبادل الحرفين : و ، ي)(٦) .

والذي يمكن ان نلحظه على هذه الامثلة بوجه عام هو أن نطق قبيلة تميم يميل الى تفضيل الاصوات المفخمة ، المجهورة (الشديدة) والمستعلية غالبا عوضا من الاصوات المهموسة ، الرخوة ، الرقيقة ، كما يمكن أن نستنتج من تأمل صفات هذه الحروف ومقارنة بعضها ببعض . ولكن هذا الحكم ليس مطردا ، لان امثلة اخرى تروى نقيض هذه ، أو على الاقل : لا تتفق معها نحو قولهم :

تميم تقول : قليت البر قلياً وقريش تقول : قلوت البر قلواً . فها هنا نجد أن قريشاً هي التي مالت الى الواو بخلاف الامثلة السابقة . وقل مثل ذلك في : فرغ يفرغ فراغاً (بلغة تميم) ، وهي بلغة قريش : فرق يفرغ فروغاً .

ورب باحث يقول:قريش تميل الى المد(٧)، أو الحجازيون يفضلون الكسر(٨) ، وشاهد المد عند قريش قولهم : أولاء (في اسم الاشارة للجمع) ، على حين تقول تميم فيه : اولي . ولكن هذا وحده لايكفي ، لان قريشاً تقول مثلاً : اوصدت ، فلا تمد ،في

حين تقول تميم : آصدت ، فتمد . ولقد سلف تقييد امثلة تشير ايضاً الى ان قريشاً لا تفضل الكسر وحده ، بل هي تفتح عين الفعل المضارع في مثل : زهد ، حقد ، والاسم في الوتر . وقريش تقول : برات ، وانا منك براء ، (فتفتح) ، وتميم تقول ، برئت، وانا منك بريء (فتكسر) . و (نستعين) من سورة الفاتحة مفتوحة النون في لغة قريش ، وقراءتها بالكسر لغة تميم وأسد وربيعة (٩) .

وقد يقال مثلا: ان لهجة تميم تميل الى الهمز(١٠) بدلا من الواو ، يقولون : اكدت، وقريش تقول : وكدت . ويقولون : إكاف ، وقريش تقول وكاف . ولكن هذا الحكم يتعارض ايضا بقول قريش : ذأى البقل يذأى ، وبقول تميم : ذوي يذوي ، فتميل هنا الى الواو عوضا من الهمز . وكذلك تقول قريش : أيهات فتميل الى الهمز ، وتقول تميم : هيهات .

وفي الاعراب قد تتفق القبيلتان ، ولكنهما مع ذلك تختلفان في الاسم او الاداة، وقد يكون العكس ، فقريش مثلا يقولون : ما رأيته منذ يومين ، أو يومان . في حين تقول تميم: ما رأيته (مذ) يومين ، أو يومان . الاعراب متفق ، ولكنهم اختلفوا في منذ ، ومذ . وعلى النقيض من ذلك تنصب قريش خبر (ما) النافية ، وليس في الارض حجازي إلا وينصب – كما يقول ابو عمرو بن العلاء(١١) . ولا في الارض تميمي الا وهو يرفع . وعلى لهجة الحجاز قرئت الآية الكريمة : (ما هذا الا بشرا) . أي انهما تختلفان في الاعراب . وكذا الامر في نصب الخبر المستثنى ورفعه في النفي بليس في مثل قولهم : ليس الطيب الا المسكَ أو إلا المسكُ . الحجازيون ينصبون وتميم يرفعون .

وتميم تقول : الاته يليته (حبسه او انقصه من حقه) ، تعدّيه بهمزة ، وقريش تقول: لاته يليته (بالثلاثي) . ولكن تميماً تقول أيضا : هلكه ،بمعنى : أهلكه،فتخالف بذلك الشاهد السابق نفسه .

وفي الاصوات والصرف ثمة ألفاظ تجيء ساكنة في لهجة تميم نحو : جُمْعة ، حُمْر ، كبْد ، فخْذ .. وتجيء محركة الموضع في لهجة قريش .

واهل الحجاز يقولون : خمس عشرة (خفيفة) لا يحركون الشين ، وتميم تثقّل وتكسر الشين ، ومنهم من يفتحها . واهل الحجاز يقولون : جونة (بغير همز) ، وتميم تقول : جؤنة (بالهمز) . وفي القلب أهل الحجاز يقولون : لعمري ، وتميم تقول : رعملي .

– ولعل من ابرز وجوه الاختلاف بين لهجتي القبيلتين ميل الحجازيين الى تأنيث كثير من الاسماء التي هي موضع نظر ، أو تقال بالتذكير مرة وبالتأنيث مرّة في كتب اللغة والمعاجم ، نحو : العنق ، العضد ، الطريق ، السبيل ، السوق ، التمر ، البُسْر ، الشعير ، البُرّ ، الذهب .. على حين يميل التميميون الى التذكير فيها(١٢). وقد يبدو هذا موضع استغراب ، حتى لقد رأى المرحوم الدكتور صبحي الصالح انه « لا يمت الى المنطق العقلي بصلة »(١٣) . وفيه بعض تسرع ، ذلك أن الظواهر اللغوية ليست منطقية اصلا ، ولا اللغة نفسها منطقية دائماً . ولعل ما يفسر هذا الميل عند الحجازيين وفي شمال الجزيرة العربية الى التأنيث شيوع الآلهة المؤنثة هناك قديماً أكثر من جنوبها ، ويبرز هذا خاصة في لهجة كنانة ، وكأنهم كانوا يتفاءلون بتلك التسميات أو يتلذذون ويتحببون .

نخلص من هذا الى أن قريشا غالبا ما كانت أقرب الى أساليب القول والنطق السليم عند العرب وأكثر توافقا مع لغة القرآن والموروث الادبي ، وان تميماً لا تخلو في نطقها من كلفة وكزازة قد ترجعان الى طبيعتها البدوية . وتلك فكرة يميل اليها الدارسون ، ويقويها التحليل الصوتي في الامثلة التي استعرضناها مقارنين بين صفات الحروف . أي أن سمات الخشونة والبداوة تلمح غالبا في أساليب تميم اللهجية ، يقابلها في لهجة الحجاز رقة لا تخفى في الذوق والالسنة ، وقد يفاضل الذوق السمعي من ذلك بين نطقي القاف المعروف في القراءات القرآنية أخذا بلهجة الحجاز ، وبين القاف التميمية التي تلحق باللهاة فتكون بين القاف والكاف . أو بين القاف والكاف والجيم (القاهرية) غير المعطشة ، كما في قول شاعر تميمي :

ولا أكول لكدر الكوم : كد نضجت   ولا أكول لباب الدار مكفول(١٤)

ولولا أن بقايا هذه اللهجة ما تزال مسموعة في كثير من المناطق العربية الى اليوم لظن ان هذا البيت متكلف مصنوع رصفت فيه (القافات) عمدا بهذا النطق لبيان مصداق حكمهم على لهجة تميم بالخشونة والمخالفة .

لقد توقفنا عند لهجتي تميم وقريش قليلا لان المظاهر اللغوية فيهما ادعى الى التأمل والمدارسة مما سبق وعرضنا له من ألقاب اللهجات الاخرى التي تطغى عليها الخصائص الصوتية النطقية . ففي اختلاف لهجتي تميم وقريش رأينا أن الهمز قد يؤدي – بين تسهيله وتحقيقه – الى تغيير المعنى كما في لفظة (أدفوه) التي سلف ذكرها ، أي أن في اللهجتين ما يتصل بالجانب الدلالي ، كما فيهما ما يتصل بالصرف والتجويد (في ادغام المثلين نحو : اغضض وغض) ، وفيهما ما يتصل بالجانب الاعرابي .

ومثل هذه الخصائص لا بد ان يكون لها أثر ملحوظ في العربية الفصحى ، ولعل أسلم الطرق الى التماس هذا الاثر ان نحتكم الى لغة القرآن ، والى احتجاج النحاة واللغويين ، عند ذلك سنجد القرآن يتضمن شواهد من اللهجتين ، وخاصة في تذكير الاسماء وتأنيثها ، كما نجد ان اللغويين يستشهدون باللهجتين وبشعرهما ونثرهما عامة على صحة اللغة . وفي النهاية يتبين لنا ان ظواهر اللهجتين ليست مطردة ــ كلاً على حدة ــ ولا ملتزمة ، او تمثل قواعد صارمة نص النحاة على الاخذ بها وحدها في الاساليب، أو جعلوا القياس وقفا على احداهما . انما الذي يستخلص من كتب التراث يفيد ان كلاً من القبيلتين التزمت بخصائصها اللهجية المحلية التي سلف ذكرها . وكان لكل قبيلة (لحنها) الخاص الذي تلهج به وعاداتها الصوتية التي تتمسك بها وتبقي عليها فلا تلقن غيرها الا على قلة وبطء . لكن العامل المؤثر في حركة العربية الفصحى ، في هذه المرحلة كان الدين الاسلامي ، والدين على مر العصور من أبرز العوامل المؤثرة في تاريخ اللغات . فالقرآن الكريم - كتاب المسلمين المقدس نزل بلهجة قريش بصفة غالبة ، مما أعلى من شأنها وأحلها مكان الصدارة بين لهجات القبائل العربية كلها . وقد زاد من مكانتها ــ فيما بعد ــ ما روي ونص عن الاخذ بها . من ذلك ما رواه البخاري في « صحيحه » عن أنس بن مالك من أن الخليفة عثمان بن عفان لما أمر بجمع القرآن عهد بذلك الى (لجنة) رباعية مؤلفة من زيد بن ثابت من المدينة . ومن عبد الله بن الزبير ، وسعد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ،وكلهم قرشيون . ثم قال للرهط القرشيين الثلاثة : « اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانه انما نزل بلسانهم »(١٥) .

وروي ان عمر بن الخطاب كتب الى ابن مسعود : « ان الله عز وجل انزل هذا القرآن فجعله عربيا ، وأنزله بلغة قريش . فاقرئ الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل ، والسلام »(١٦) .

وروي عن زيد بن ثابت حين أراد ان يكتب (التابوت) بالهاء على لغة الانصار ، انهم منعوه من ذلك ، ورفعوه الى عثمان فأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش(١٧) . وهذا ما ارتقى بلهجة قريش الى مرتبة التقديس وجعل منها مقياسا أساسيا لسلامة العربية الفصحى وصحة الاحتجاج .

أما العامل الثاني الذي رجح كفة قريش على غيرها شيئا فشيئا فهو « الاختيار » اللغوي الذي أثر عنها ، ولكن عملية الاختيار التي انتهجتها قريش من الفاظ القبائل الاخرى واساليبها لم تكن تستند الى شرائط معينة ، ولم تكن خاضعة لقوانين معلومة تلتزم بها ، انما نستخلص من الاخبار اللغوية والتاريخية الكثيرة انها كانت تتجنب أخذ

الغريب المتقعر ، وترد الشعر أو تقبله عندما يعرضه عليها الشعراء كاستحسانها لقصيدة علقمة بن عَبَدَة التميمي التي مطلعها :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم   أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

والتي قالوا عليها : هذا سمط الدهر . ثم عاد اليهم في العام التالي فأنشدهم قوله :

طحا بك قلب في الحسان طروبُ   بُعَيْدَ الشباب عصرَ حانَ مشيبُ

فقالوا : هذان سمطا الدهر ، أو هاتان سمطا الدهر(١٨) .

وبسبب هذه المركزية الدينية والادبية والاستقرار والتكامل انتشرت لهجة قريش وسادت في الحجاز ونجد واليمامة والبحرين ، وزاحمت اللغة الحميرية في الجنوب حتى باتت أداة التفاهم بين الوفود اليمنية وحمَلة الشريعة الاسلامية اليهم من مبشرين بها وداعين لها بين العرب الجنوبيين ، في مستهل الدعوة الاسلامية .

ومع هذا كله يبقى من العسير القول ان لهجة قريش كانت تتصف بخصائص مميزة هي كذا وكذا . . لانها لم تصل الينا خالصة وبخصائصها الدقيقة كما كانت عليه في الاصل ، انما وصلتنا حاملة خصائصها وقدرا من خصائص اللهجات الاخرى التي احتكت بها واقتبست منها أيضا ، واللغويون أو المؤرخون لم يعينوا تلك المقتبسات على وجه الدقة والتحري ، بل ان ما وصل الينا من ذلك التراث اللغوي هو ما صيغ أو كتب بعد تكون هذه العربية الفصحى في آخر مراحلها قبل الاسلام ، أو بعد تغلب لهجة قريش ، وان ما سنه اللغويون والنحاة من احكام اخذ اللغة والاحتجاج بها لم يقتصر على قريش أو يقف عندها على وجه التخصيص أو التمييز ، بل هناك من كان يذهب الى أن سلامة اللغة في بني سعد أفضل وأصح مما في قريش ، لان بني سعد اهل وَبَر وأبعد عن التجارة وعن الاختلاط بالاعاجم على الرغم من عدّهم قريشا أفصح العرب مع ما كان منهم من اختلاطهم بغيرهم في المواسم والتجارات والرحلات .

وأمام هذه الظواهر اللهجية التي بدت مقلقة أحيانا لم يجد اللغويون القدماء مفرا من التحوط والتشدد في شرائط اخذ اللغة واضعين في الحسبان استقراءهم العام لمجمل مادتها ، ولواقعهم العربي ، وموفقين بين الجانب الديني والقومي (من جهة اختلاط العرب بغيرهم)، مع مراعاة أهمية الجانب المكاني (الجغرافي)، والجانب الادبي المتمثل بلغة الشعر خاصة، فكانوا بهذا واضعي اهم شروط أخذها واستنباط قواعدها والاحتجاج بها مستقاة ممن لا تشوب عربيتهم شوائب اللكنة الاعجمية او الرطانة الدخيلة ، أو مستبشع اللهجات العربية المذمومة ، فقالوا :

« وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة السنتها اذا اتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب ، الا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ، ولا عجر فيه قيس ، ولا كشكشة اسد ، ولا كسكسة ربيعة »(١٩) .

وقالوا : « والذين عنهم نقلت العربية وبهم اقتدي وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم ، واسد ، فان هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف ، ثم هذيل ، وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فانه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الامم الذين حولهم . فانه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم اهل مصر والقبط. ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام ، واكثرهم نصارى يقرؤون بالعبرانية ، ولا من تغلب والنمر(٢٠) فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأسد عمان لانهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفه وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف واهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت السنتهم(٢١) .

ومن خلال القولين يتجلى واقع جمع العربية في تخير احسن لهجات العرب واملحها واصفى الكلام وافصحه ، ومعيار الفصاحة عند علماء اللغة هنا ـ كما هو ظاهر ـ يتوقف على مدى صلة العرب بالأعاجم . وأبواب هذه الصلة : اما الحواضر التي كانت مسرحا للتجارات ، أو عقدة للمواصلات ، وإما أطراف بلاد العرب حيث يسمح الاختلاط بالاقوام غير العربية بقدر من التأثر اللغوي يؤدي الى افساد الالسنة. وهذا كله جعل للهجة قريش وللقبائل الفصيحة القريبة منها اعتبارا خاصا ، وكوّن من ذلك نواة لغوية صارت هي المناط والمحتكم للاخذ والاحتجاج . ويمكن أن نستشرف في هذا المسلك لوناً من التخطيط ، أو التصميم على صيانة هذه اللغة من افسادها بالالسنة الاعجمية ، أو بالظواهر اللهجية غير المستحبة ، أو غير المطردة عند مجمل القبائل العربية نفسها .

ولكن هذا التأسيس لأصالة العربية لم يلغ اسهام القبائل القاصية والدانية بنتاجها الادبي في تغذية تلك النواة اللغوية التي كانت بمنزلة القلب من العرب وجزيرتهم ،

كما لم يفترض وضعا متشددا يحول دون أخذ القرآن منها ، أو دون التيسير لها بالقراءة على مقتضى لحنها ولهجاتها ، أو الاستشهاد بلهجاتها في النحو والتقعيد . وهذا ما يفسر نزول القرآن الكريم منجماً وعلى سبعة أحرف وتضمنه كثيرا من لهجات (أو لغات) القبائل الاخرى ، وكتاب عبد الله بن عباس (ت ٦٨ هـ) المسمى « اللغات في القرآن » خير شاهد على ذلك .

وعلى هذه الصورة يمكننا أن نحيط نشأة العربية الفصحى بحلقات أو دوائر مركزها لهجة قريش وما جاورها من القبائل التي لم تختلط بالاعاجم فتفسد ألسنتها (كما عبروا) ؛ ثم الدائرة التي تحيط بهذا المركز متمثلة بلهجات القبائل العربية الاخرى ، تليها دائرة اللغات المسماة بالسامية والتي كانت تحيط بقلب الجزيرة العربية أو تتغلغل فيها كالعبرانية والسريانية والنبطية .. وما تذكره كتب اللغة عن (الالفاظ النصرانية) التي وردت في اشعار عدي بن زيد العبادي ، وابي د واد الايادي ، وامرىء القيس ، والنابغة الذبياني، والمرقش الاكبر ، وأوس بن حجر ، والقحيف العقيلي(٢٢). فضلا عن اشارات موزعة هنا وهناك تذكر الحواضر وفساد لغة مرناديها ، وتذكر الحبشية والسريانية والحميرية وغيرها . يضاف الى ذلك ما أحاط بالعربية من لغات اعجمية كالفارسية والرومية والهندية .

ولكن أمرا اساسيا يعرض هنا ، وهو حري بألا يغفل ، واعني به أن لغات القبائل التي احتكت بها لغة قلب الجزيرة العربية (قريش وما جاورها) وتأثرت بها لم تسجل. وبالاقتصار على استقرائنا لما وصلنا من معلومات عن هذه اللهجات العربية تكون جوانب لا يستهان بها من طفولة العربية قد بقيت غامضة ، ولعل الكشوف الاثرية تسهم — مستقبلا — في القاء الضوء على تلك المرحلة المبكرة التي لم نحط بجوانبها كاملة ونستقص اخبارها بالتفصيل .

بهذه الصورة ورث الاسلام اللغة العربية الفصيحة التي نزل بها كتابه العظيم ، وفي ضوء هذه الاعتبارات كلها يمكن تفسير وجود ألفاظ يسيرة من القرآن جاءت بلهجة قبيلة نائية ، أو بلغة اعجمية .. ولكن هذا كله لا يغير وجه الحقيقة الكبرى الثابتة ، وهي أن الاسلام عند ظهوره وجد العرب قد هيئوا له لغة ادبية موحدة ، تملك من وسائل الغنى والصلاح ما يجعلها جديرة باستيعاب رسالته العظيمة وحملها الى البشرية .

الحواشي :

(١) المحتسب في شواذ القراءات : ٤٧/١ ، تح : علي النجدي ناصف وآخرين (القاهرة ١٣٨٦هـ) ، واللسان / جنن ، خبأ . والمبيط من الدم : الخالص الطري . واحمأرت أصلها : احمارت (بتشديد الراء ومن غير همز) .

(٢) اللسان / تبأ ، ودراسات في فقه اللغة ، الصفحات : ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، المتن والهامش .

(٣) مختار الصحاح / د ف ١ ، وتاج العروس ١٢٨/١ ، والمخصص لابن سيده /١٤-٢-٦ (ط بولاق ١٣١٦) فثمة شواهد اخرى ، منها على سبيل المثال : كلأته اذا حرسته ، وقد كليته اذا أصبت كليته ..

(٤) سورة لقمان : ١٥ .

(٥) المرية : الشك . ومثلها : القنوة ، أي : الكسبة (بالضم عند تميم وبالكسر عند قريش) وكذلك صنوان .

(٦) يسمى هذا في اللهجات : المعاقبة أيضا ، تعاقب الواو مع الياء . فقد روي عن الاصمعي قوله : سألت المفضل عن قول الاعشى :

لعمري لمن امسى من القوم شاخصا
لقد نال خيصا من عفيرة خائصا

فقلت : ما معنى : خيصا خائصا ؟ فقال : أراه من قولهم : فلان يخوص العطاء من بني فلان ، أي يقلله ، فكأن خيصا شيء يسير ، ثم بالغ بقوله : خائصا . قلت له : فكان يجب أن يقول : لقد نال خوصا ، اذ هو من قولهم : هو يخوص العطاء . فقال : هو على المعاقبة ، وهي لغة لاهل الحجاز (المخصص ١٩/١٤ ، ط أولى ـ بولاق ١٣١٦ هـ ـ ١٣٢١ هـ) .

(٧) كما جاء في « دراسات في فقه اللغة » ص ٨١، نقلا عن « شرح شذور الذهب » ص ١٦٤ .

(٨) نفسه ص ٩٦ ، وص ١٠١ .

(٩) انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤٦/١ ، والصاحبي : ٤٨ ، والمزهر ٢٥٥/١

(١٠) من ذلك ايضا عزو لهجة العنعنة اليهم ، (كما مر) .

(١١) انظر النص في « المزهر » ج٢/٢٧٧ (ط. الهلال ١٣٣١ هـ) .. وفي غيره ..

(١٢) المزهر ٢٧٧/٢ .

(١٣) دراسات في فقه اللغة : ٨٢ .

(١٤) الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس : ٥٤ ، والبيت هو :

ولا أقول لقدر القوم قد نضجت
ولا اقول لباب الدار مقفول

وفي « بحر العوام » :

ولا أقول لقدر القوم : قد غليت
ولا اقول لباب الدار مغلوق

أضاف المحقق بعده :

لكن اقول لبابي مغلق وغلت
قدري وقابلها دن وابريق

انظر : « بحر العوام فيما أصاب فيه العوام» للحنبلي الحلبي : ١٩ ، تح : عز الدين التنوخي ، مجمع دمشق ١٩٣٧ .

(١٥) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ٥٩/١ (ط . القاهرة ١٩٣٥).

(١٦) المحتسب لابن جني ٢٤٣/١ .

(١٧) كتاب المصاحف لأبي بكر السجستاني . صححه الدكتور آرثر جفري (ط. الرحمانية ـ القاهرة ١٩٣٦) .

(١٨) انظر « معاهد التنصيص » : ٨٥ ، والاغاني ١١٢/٢١ (ط . الساسي) والقاموس المحيط / عيد .

(١٩) الصاحبي في فقه اللغة ص ٥٣ .

(٢٠) نقلها السيوطي ، أو نقلت عنه مصحفة عند بعض الباحثين (اليمن) ، ولعل ما أثبتناه هو الوجه ، مع الاشارة الى أن هناك من تنبه لهذا السهو قبلنا . وانظر المزهر ٢١١/١

(٢١) المزهر ٢١١/١ . وكان يمثل هذا الاتجاه خاصة علماء البصرة .

(٢٢) ينظر في ذلك : الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٢٨/١ ، والموشح للمرزباني ٧٣ .

من معارك الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ ــ ١٩٢٧
معركـة الكفـــر

د. ذوقان قرقوط

تشكل « الثورة » السورية الكبرى ، التي انفجرت عام ١٩٢٥ ، « فجأة »(١) في جبل الدروز بقيادة سلطان الاطرش ، أعنف واطول فاصل زمني (١٩٢٥ ــ ١٩٢٧). في الكفاح من أجل الاستقلال قام به الشعب العربي السوري ، في وجه الانتداب الفرنسي . في أعقاب معركة ميسلون التي جرت غدرا ، مبتسرة ، بلا تكافؤ ، على ابواب دمشق ، في الرابع والعشرين من تموز / يوليو ١٩٢٠ ، والتي قادها البطل بحق يوسف العظمة وهو يعلم نتيجتها(٢) ، حتى لا يقال . ان فرنسا ، دخلت سوريا ، قلب العروبة آنذاك ، دون قتال . لتنفيذ سايكس ــ بيكو .

وبثمن محن وتضحيات لا حصر لها ، انتهى الامر بسوريا الى الحصول عام ١٩٤٣ على الاستقلال ومن ثم بعد ثلاث سنوات ، الى تحرير كافة اراضيها من الاحتلال الاجنبي . من هنا اعتبار تلك « الثورة » خاتمة للمحن والتضحيات وان كل ما جاء بعدها وما تلاها حتى توقيع المعاهدة مع الافرنسيين بالحروف الاولى ، انما كان يجري في ظل سيوف « المجاهدين » الذين نزحوا من سوريا الى الاردن وتجمع بعضهم في « النبك » بانتظار ما يتوصل اليه رجال السياسة . ولادراك أهمية الثورة كعدوة على طريق تقدم سوريا الى أهدافها الوطنية لا بد من استعراض قوى مراحلها .

في السنوات التي سبقت الثورة عمل الفرنسيون على توطيد « الانتداب » بالوصول الى سن الدستور ، أو النظام الاساسي ، كما قضت بذلك عصبة الامم ، ان يوضع في مدة سنتين ، وعمل الشعب من جهته ، تلقائيا ، على ان لا يمكنهم من ذلك . فانقضت سنوات ما قبل الثورة في تخبط ، وعدم استقرار دل على خطأ عصبة الامم وخلل في اهلية الدولة المنتدبة وصوابية الانتداب ، تطورت في اثنائها الحياة السياسية وشكل الحكم الذي فرضته فرنسا : من تقسيم سوريا الى دويلات متعددة، أملا بتسهيل حكمها ، مستقل بعضها عن بعض ، مرتبطة مباشرة بمندوبي المفوضية الفرنسية العليا في بيروت ، الى اتحاد ذي مجالس استشارية ، ثم الى اتحاد يتمتع بمجالس تمثيلية منتخبة ، ذات اختصاصات محدودة ، وبعد ذلك الى وحدة بين حلب ودمشق مع الاحتفاظ بعلاقات شبه اتحادية مع سنجق الاسكندرون و « بلاد

العلويين »(٣) .. ظل وضع « دولة جبل الدروز المستقلة »، كما انتهى اليه منذ قدوم الفرنسيين واتفق عليه روبير دي كيه وشيخ « العقل » محمود ابو فخر ... وبدت تكتنفه حفلات « عيد الاستقلال » سنويا ، بمظاهرها المصطنعة ، كأنما لا علاقة تربط أهالي هذا الجبل بسوريا ولا شأن لهم بما يجري ويختمر فيها ، المحسوس ببصيرة بنيها .

وهكذا ، من حيث لم تتوقع سلطات الانتداب ، وهي سادرة في غيها وفي رعونتها، وفي وقت تراخت فيه قبضتها وانخفض عدد قواتها ، انطلقت الثورة ، فكانت مفاجأة لها وللجنة الانتداب على السواء(٤) . وذلك لانها أقامت حكمها على أساس طائفي ، بل على أن « طوائف » سورية تشكل شعوبا منفصلة بعضها عن بعض ، حتى بلغ الامر أن حسبت تعدد الطوائف هذه هي نتيجة فوارق عرقية ، ولم تفطن ، أو تعمدت أن لا تفطن ، الى ما بينها من ثوابت : هي روابطها القومية الاعمق من خلافاتها الدينية والاكثر أصالة ، والى أن مصالحها المتشابكة أقوى وأغلب من تلك الاحقاد والضغائن والعداوات التي ورثتها الحكم العثماني وعصور الانحطاط . ومن ذرى « جبل الدروز » التي أقام الفرنسيون دولته « لتكون حصنا لهم » يفصل دمشق عن عمان وبغداد ، استجمعت البلاد كلها تقريبا ، أمانيها الوطنية والقومية ، هذه المرة ، بمنطق الثورة ، تطرحها وتطالب بتحقيقها .

تصور صحافة تلك الايام ومصادر الانباء والتقارير الى وزارة الخارجية الفرنسية، انقسام أهل الجبل – على أثر وفاة حاكمه الامير سليم الاطرش الى فئتين أو حزبين : أحدهما يطالب بحاكم وطني ويرى شغور المنصب فرصة له ، وآخر يؤيد وكيله ، الفرنسي ليسد الفراغ ، وأن المطالبين بحاكم وطني ، استغلوا فرصة قيام الحاكم الفرنسي بالوكالة في اجازته فتعالت شكاواهم منه فذهبوا لمقابلة المندوب السامي في بيروت الجنرال ساراي . فرفض « مقابلتهم » ، وقيل انه أساء استقبالهم ولم يقبل شكواهم على موظف فرنسي ، في اجازة ، لانه عضو في حزبه (في فرنسا) ومن محفله الماسوني .. وان السلطات الفرنسية في دمشق اعتقلت بعضهم وهم في طريق العودة الى الجبل ونفتهم ... فكان هذا سببا في قيام « سلطان الاطرش زعيم هذا الحزب » ، الذي تخلف عن الاشتراك بـ « وفد الاحتجاج » ، بثورته على الفرنسيين ... الخ(٥) كما صور بعضها المسألة انتصارا لنفوذ « عائلة » – عائلة الاطرش – كاد يعصف به وجود كاربييه Carbillet في الحكم ، الذي كانت سياسته تقوم على تقوية التيار الشعبي ضد الاقطاع .

والحقيقة مختلفة تماما . فحركة « الاحتجاجات » على تصرفات الحاكمين

الفرنسيين في السويداء وعلى هذا الحاكم الفرنسي بالذات وبعض معاونيه و«العرائض» التي رفعت للمسؤولين بمناسبة ازمة الحاكمية ، لم تكن بنت ساعتها ، وانما كانت وسيلة القوى الوطنية الى أهدافها في مكافحة الانتداب الفرنسي ولم تكن هدفا(٦) فالحزبان المعنيان هما أصلا من مؤيدي الانتداب ومن قبل كانا من مؤيدي الحكم العثماني واقطابهما هم من المنتفعين بالسلطة في كل عهد . ومن قرأ « حوران الدامية » لحنا أبي راشد الدقيق في التأريخ لتلك الفترة لا يحتاج الى مزيد .. في حين أن الجانب الاقوى والاكثر عددا وتعبيرا عن مكنون « الجماهير »، كان يتمثل في تلك الجماعات ، وعلى راسها سلطان الاطرش ، التي سبق لها أن لعبت دورا كبيرا في «الثورة العربية الكبرى» ضد الاتراك العثمانيين ،الى جانب الحلفاء ورفضت الانتداب الفرنسي في استثناء لجنة كينغ ـ كراين ، مطالبة بالوحدة . ثم قاطعت « مهزلة دولة جبل الدروز المستقل » ، ولم تكن تشترك في « أعياد الاستقلال » واذا اشتركت فبالرغم عنها ، تمويها . ولم يكن من شأن وجود هذا الحاكم الفرنسي الظالم الارعن الشاذ في اخلاقه ، الذي عم أذاه ، الا انه فاقم الاستياء الشعبي . وقلما انقضى عام واحد دون ان نجد من يشارك منها ـ من تلك الجماعات ـ في اثارة الاضطراب في وجه الحكم الفرنسي أو يخرج عليه(٧) . اذ لم يكن أهالي الجبل قد نسوا بعد ذلك « العز » الذي انتشوا به جراء دورهم في الثورة العربية مع فيصل .

ذلك ان جبل حوران ، الذي أصر الفرنسيون على تسميته بـ « جبل الدروز » لتعزيز الصفة الطائفية ـ وجاء الحكم الوطني فسماه « جبل العرب » ـ كان من أشد مناطق سوريا ارتباطا بفكرة الثورة العربية على العثمانيين التي ركب تيارها الهاشميون وحنينا الى أيامها .

اذ ، على الرغم من توالي تجريدات الدولة « العلية » عليه ، لاخضاعه ، فان أخبار ثوراتهم طغت على تاريخ المنطقة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وظل الجبل من بين المناطق العربية القليلة ، المنطقة التي لم يستطع العلم العثماني ، رغم جميع مآسيه ، أن يستقر فيه(٨) ومن هنا كان أهاليه من أوائل المبادرين لتلبية نداء الشريف حسين بالثورة والالتحاق بفيصل وهو ما يزال في العقبة خاصة منهم أهالي القضاء الجنوبي ، كما كان الجبل هو المعبر المأمون اليها . يذكر الدكتور احمد قدري، في مذكراته عن الثورة العربية ، كيف كان بواسطة الدكتور عبد العزيز الكنعاني واقاربه في جرمانا يخفى أعضاء جمعية الفتاة ثم ينقلهم الى قرية « خلخلة » ، احدى القرى الامامية في الجبل ومنها الى القريا ، بلد سلطان الاطرش قاصدين بعدها الى العقبة . ويستدل مما كتبه أن المرء منهم ، ما أن تطأ قدمـاه ارض الجبل ، حتى كان يشعر بالامان والاطمئنان ، يمر بـ « المخفر » ، بغير اكتراث ، وتولم له الولائم ، ويلتفحوله

السامرون ينشدهم شاعر القرية على الربابة حتى الفجر(٩) . ويمكث أياما فيه ويتنقل بلا وجل . وكانت القريا مقرا يأوى اليه اللاحقون والمتوارون عن عيون الاتراك أو محطة على طريق الحجاز ، وقد أفرد لهم مكان ينزلون فيه بدار محمد شلهوب : كل منهم جورج صيدح وخليل سكاكيني . ولا يزال سكان القرية المعمرون يذكرون بعضا من نوادرهما وطرائفهما(١٠) وقد انشدا في جمع من الاهالي نشيد الوطن العربي ورفع سلطان الاطرش بحضور تحسين قدري ونزيه المؤيد العلم العربي قبل دخول الحلفاء وفيصل الى سوريا ، وقبل رفعه في اي مكان آخر من سوريا .

ومنذ بداية الحرب ، قبل الاتصال الرسمي بالشريف حسين ، ابدى سلطان الاطرش استعداده للثورة والانتقاض على العثمانيين ، فأرسل كتابا الى المعتمد الانكليزي في القدس الا أن الجواب جاءه من المعتمد الفرنسي حداد باشا (١١) وكرر الكتابة الى المعتمد البريطاني فاجابة حداد باشا مرة اخرى(١٢) كما أوفد حسين الاطرش ، شيخ قرية عنز ، للالتقاء برسول الامير فيصل في « كاف » لطلب مدد من الاسلحة للقيام بثورة ضد الاتراك ، وحضر اللقاء : نسيب البكري ، وزكي الدروبي .

والى هذا الاجتماع تعزى ، افتراء ، فكرة ، اعطاء الجبل كيانا خاصا ، داخل كيان الحكومة السورية(١٣) ، وراحت قيادة الثورة توالي موافاته الانباء الهامة وهو بدوره يراسل بها عيون القرى والمتنفذين فيها عاملا بذلك على بثها بين الناس(١٤) . وقد اشار الى ذلك خصمه ، زعيم الاتجاه الاخر الموالي للعثمانيين ، بل وللحكم القائم في كل عهد . وفي صيف ١٩١٨ عاد نسيب البكري الى الجبل يحمل منشور فيصل الى أهاليه ، على ما يذكر حنا ابو راشد ، فاذاع سلطان الاطرش على أثره منشورا على الجبل يدعو الى الثورة ، ضاربا موعدا للحاق به في بصرى الشام لملاقاة الشريف في درعا .

بعد أن تحرير دمشق انسحب سلطان باشا ومن معه من الدروز الى الجبل وظلوا محافظين على عهدهم للحكم الجديد وعلى احترامهم لفيصل وأملهم فيه . وداوم من جهته ، على الاتصال بهم كعادته كلما كانت تتأزم الامور في استطلاع آراء مؤيديه فكان يجدهم دائما على عهده بهم مخلصين ثابتين على المبدأ . وبعد ميسلون وانسحاب فيصل الى الكسوة هب الدروز لنجدة الجيش العربي فتقدمت بيارقهم (أعلام القرى) حتى وصلت بصر الحرير في سهل حوران ، الا أن فيصلا كان قد مر بدرعا ، مغادرا الى فلسطين ثم الى أوروبا ناجيا عن عرش ، ولم يأخذ بنصيحة حمد البربور ، من « أم الرمان » ، بنقل الحكومة الى السويداء ، عاصمة الجبل ، والاستمرار في محاربة الافرنسيين ، كما أشار عليه كثيرون من وطني البلاد.(١٥) .

وبقيت ذكريات هـذا العهد ، مشرقة في ذهن أهالي الجبـل وخاصة في قضاء صلخد ، فلم يكن من السهل نسيان « أيام الشريف » الحلوة و « عزها » . لا سيما لما رافقها ، لمدة سنتين ، من فيض في المحصول وارتفاع اسعار الغلال . فكان ذلك باعثا على صمود أكثرهم في وجه الاغراءات الفرنسية : كانوا يقولون ان فلاحة الارض ادر مالا من عطايا غورو Gouraud وذهبه الاحمر الرنان ، حتى أن أحدهم استصلح قطعة من الارض البور على اطراف المعمـور بين الجبـل والاردن واطلـق عليها اسـم غورو وصارت مضربا للتندر على المتعاونين مع الفرنسيين ، وما زالت بهذا الاسم حتى الان.

بداية سعى الفرنسيون الى اعطاء الجبل كيانا مستقلا واقاموا انشاءات الحدود بينه وبين حوران ، حتى انهـم أثاروا الاحـن القديمة ، المنسية ، وجعلوا لـه عيـد استقلال ، تقيم القرى ، كل القرى ، بيتا من الشعر أو أكثر يضم فئـة من شبابها وبناتها ، يولمون ويتنافسون في الولائم والعاب الفروسية والاهازيج وسهرات الربابة . لا تتخلف عن الاشتراك ، « عائلة » خشية عيون الحكم والوشاة .

وبدا كأن الدولة المنتدبة تطبق اتفاقية « روبيردى كيه ـ أبو فخر » التي اكتسبت رضى « عائلات » الجبل في اجتماعات عامة دعيت اليها ـ وان كانت اثناء أزمة «حاكمية كاربييه » والمطالبة باستبداله أو بعزله وتنصيب حاكم درزي مكانـه بموجب هـذه الاتفاقية قد اثيرت ـ ورفض الجنرال سراي الاعتراف بها(١٦) . كانت حكومة الانتداب تدير حكمها بتقسيم الجبل الى أقضية ثلاثة : السويداء ، صلخد ، شهبا ، وعلى رأسها حاكم اختارته في البداية ، من آل الاطرش ، كبرى عائلات الجبل ، هو الامير سليم ، خليفة يحيى بك الاطرش، زعيم «عرى» ، المعترف لها ، بين أهالي الجبل بالـ «زعامة»، والذي اختصم مع سلطان باشا الاطرش ، في أواخر الحكم العثماني على الموقف(١٧) في رسائل متبادلة بينهما نشرها حنا أبو راشد ، وأقامت ، من أعوانها ، مجلسا استشاريا يجري انتخابه على درجتين ، راعت فيه التمثيل العائلـي . ونصبت في كـل قضـاء مستشارا . فلما توفي الحاكم الاهلي الامير سليم ، سولت لنائبه الكابتن كاربييه نفسه، أو أن حكومة الانتداب أوعزت له أن يطرح نفسـه على المجلس الاستشاري لانتخابـه حاكما أصيلا . ففعل بأن جمع أعضاء المجلس الاستشاري وطاف بينهم مادا برنيطته ليضعوا أصواتهم فيها على ورقة أمام عينيه فلم يجرؤ أحد على المخالفة . وشفع هذا الانتخاب بحركة تأييد عامة من الاهالي . فطاف قرى الجبل وكان على اهالي كل قرية أن يهرع أهاليها لاستقباله الى حدود القرية القادم منها حيث يخرج لوداعه أهالي القرية القادم منها.. وويل للوجيه أو الشخص البـارز في القريـة الذي لم يخـرج لاستقباله أو لوداعه . فأقل ما كان ينتظره ان يسجن في « الباكية » بين البقر والحمير ليلا ، ويمضي نهاره في رصف الطرق ، لا فرق في ذلك بين عائلة واخرى . ظاهـرا

كان يزف من قرية الى قرية بين الاهازيج والدبكة والدفوف . ولكنها زفة تبعث المرارة والشعور بالاكراه والظلم . لم يشعر الاهالي بمثله من قبل ولا في كنف الدولة العثمانية . لان « الدنيا » حينذاك لم تكن تضيق بهم فأرض الله واسعة ، وما كان على المرء فيها الا ان ينتقل من ضيعة الى ضيعة يتوارى فيها او عشيرة بدوية رحالة .

وقد عزا الحكم الفرنسي ذلك وما كان الاهالي يحسونه من دكتاتورية حاكم الجبل الكابتن كاربييه الى اضطراره اليه لفرض « السخرة » لتعبيد الطرق وشق الاقنية وبناء المدارس ... اذ كيف بدونه وبدون فرض ضرائب يستطيع القيام بما قام به لان ميزانية « جبل الدروز » لم تكن تتعدى (٨) ملايين فرنك ، على حد قولها في تقريرها الى عصبة الامم لعام ١٩٢٥ ، ولم يكن الوفد السوري الفلسطيني بجانب عصبة الامم في جنيف قصير اللسان للرد ، وان بدا أن التقصيات التي كانت ترد اليه من سورية ضعيفة لا تفي بالغرض ... ولكن متى كان ثمن « القطة الفرنسية » يساوي عشرين ليرة ذهبية تفرض غرامة على أهالي السويداء ، (وربما كان أحدهم سرقها أو رماها في الحرش طعاما للوحوش ...) . ولعل الشعور بالظلم والاهانة هو الذي دفع بطلا من الشعب هو حسين مرشد من السويداء للتصدي للملازم موريل احد أعوان الحاكم المباشرين فيطلق عليه النار من مسدسه في وضح النهار في ٣ تموز / يوليو ١٩٢٥ فكان ذلك انذارا لسلطات الانتداب بقرب الانفجار .

ولم تخف سلطات الانتداب بل لم تستطع اخفاء ما كان يثير استياء الناس من الحكم وتصرفات الفرنسيين المباشرة واعوانهم ورجال الشرطة في كثير من الاحوال التي يصعب سردها وتفصيلها ، حتى تقاريرها التبريرية التي تأخذ صفة الدفاع امام المركز أو تقارير المفوض السامي الى وزارة الخارجية فانها كانت تنم عن الاخطاء وسوء الاستعمال ، مما يؤكد ، كما يقول الدكتور ادمون رباط ان الكابتن كاربييه مارس دكتاتورية فعلية سمحت بها وساندتها السلطات الفرنسية . وما ان وسع صدر تومي مارتن الذي أرسل ليحل محل الكابتن رينو ، الحاكم بالوكالة مكان الكابتن كاربييه الذي أعطي اجازة اضطرارية ، وفتح الباب للشكاوى حتى انهالت عليه «العرائض» من كل جانب تكشف الارتكابات وتحددها ، نوه بعضها أنها تقدم للمرة الثانية ، الاولى قدمت للكابتن رينو الذي خلف الكابتن كاربييه . وقيل انها وراء تقرير الكابتن رينو الذي رواه مسيو فيري Ferry في مجلس النواب الفرنسي وقال فيه : « ان المقصود بذلك شن حملة ضد الكابتن كاربييه انجرت عليها عائلة الاطرش التي اقتضتها الظروف الى صفوف المعارضة مع معظم العائلات الدرزية ... الا أن افراد هذه العائلة الذين جاؤوا الي يؤكدون شخصيا اخلاصهم للسلطة المنتدبة ، طلبوا مني ان يستمع اليهم مندوب المفوض السامي في دمشق لتبديد سوء التفاهم »(١٨) . ثم أردف قائلا : وأعلنوا

« ... انهم اظهارا لاخلاصنا وولائنا نصرح أننا لم نعد نطالب بحاكم وطني ... وانما نريد حاكما فرنسيا شرط الا يكون هو الكابتن كاربييه » .

ويستشف من مداخلة النائب فيري ، في البرلمان الفرنسي ، أن السلطات الفرنسية في الجبل كشفت عن تناقض في صفوفها وتنافس (لم يكن ليخفى على بصيرة الاهالي ..) . فقد تلقى المفوض السامي في ٢ مايو / أيار برقية موقعة من أربعة وعشرين من اعيان الجبل يدعمون الكابتن رينو قائلين « .. انه أحيا فيهم تعلقهم بفرنسا وبدد سوء التفاهم ». ويمضي النائب في مداخلته ، فيقول ان اوغست برونيت النائب الفرنسي الذي يمر بدمشق استقبل في اليوم الثاني وفدا درزيا يضم ثمانية وثلاثين شخصية يمثلون كبريات عائلات الجبل ، منهم سبعة أعضاء في المجلس الاستشاري ، وواحد من شيوخ « العقل » الاربعة ، فاستمع لشكاويهم ووعد أن ينقلها الى المفوض السامي . وفي ١٥ من الشهر نفسه توجه هذا الجمع المهيب الى بيروت لتقديم شكاويه بنفسه ولكن المفوض السامي الجنرال سراي رفض استقباله . وبعد ثلاثة ايام وجه الكابتن رينو تقريرا اخر الى رؤسائه في دمشق يدعم مطالب الوفد يذكر فيه: ان هناك حركة عامة تدعونا أن نعير حوادثها أعظم الانتباه . واخيرا قدمت رسالة جماعية ، شارك فيها من كان لا يزال متفرجا بعد من أعيان الجبل في المطالبة بتنحية الكابتن كاربييه ، وبعض أعيان دروز لبنان وعلى رأسهم الامير فؤاد ارسلان . ولكن ذلك لم يزعزع صمت الجنرال سراي .

وكانت الجهود جميعها حتى ذلك الحين متجهة الى استبدال الكابتن كاربييه وعدم عودته الى الجبل . ولكن تيارا جديدا ، أكثر عمقا راح يأخذ مجراه في الصفوف هو تيار المطالبة باتفاق ١٩٢١ الذي يشرط وجوب تسمية حاكم درزي في حكم الجبل. الا أن الجنرال سراي ، المفوض السامي ، أعلن أنه لا يعترف بصلاحية الاتفاق في حين كان الدروز « يطالبون بالحقوق التي تمنحنا المعاهدة وتفرضها الظروف الان » وكانت حجة الجنرال أن هذه المعاهدة لم يوقعها من اهالي الجبل الا شخص واحد فيجيب الموفدون الدروز بقولهم : « بالطبع كان هذا الزعيم الواحد منتدبا من الاخرين ، كما كان روبير دي كيه مفوضا منتدبا من الزعماء الفرنسيين الاخرين . ومع ذلك ما كان لهذا المندوب الفرنسي ان يضع توقيعه عليها لولا أنه محص السلطات التي تخول مندوبنا ذلك » .

صحيح أن هذا التيار لم يكن بقوة تيار المطالبة بعزل واستبدال الكابتن كاربييه من الحاكمية ، وربما كان الجنرال سراي يستطيع تهدئة الحركة موقتا التي تنبىء بالانفجار لو أنه اعلن موافقته على تغيير كاربييه على الاقل . ولكنه لم ينثن وظل سادرا

في عناده بدفع التيارين معا ، فقد أعقب الوفد الذي أثار اتفاقية ابو فخر ـ روبير دي كيه الموقعة في الرابع من اذار/مارس ١٩٢١ برسالة الى مندوبه في دمشق قائلا: « ختمت قولي بان هذا الامر لم يبق له الا قيمة تاريخية واضفت الى ذلك انهم اذا لم يعتبروه كأنه لم يكن فسوف يخلقون منه مدعاة للفتنة ويعرضون انفسهم لاعتبارهم مثيرين للشغب » .

وفي هذه الاثناء استبدل بالكابتن رينو الذي تعرض لاطلاق النار ، الكومندان تومي ـ مارتن رئيس استخبارات الدولة السورية . فوصل السويداء في ٦ تموز/يوليو ١٩٢٥ واستقبله الناس بالترحاب ظنا منهم بأن مجيئه علامة على تبدل موقف الحكومة المنتدبة . وكانت مهمته في حقيقة الامر قمع حركة الاحتجاجات وتوقيع العرائض ، والتهيئة لعودة كاربييه بدون أي تحر للوقائع ، في حين ان الناس حسبوه من طينة اخرى فانهالوا عليه بالعرائض التي تحمل مئات التواقيع . مما دعاه الى القول في تقريره للمفوض السامي الى القول انه : « لا شك في أن عودة الكابتن كاربييه الى السويداء ستعرضنا :

١ ـ الى مهاجمة سيارته على طريق السويداء ـ درعا .

٢ ـ عصيان في مدينة السويداء نفسها .

٣ ـ انتفاضة في جبل الدروز .. »(١٩) .

وفي كل ذلك لم يكن المسؤولون الفرنسيون يلتمسون عذرا لعناد الجنرال سراي الا في اتباعه لأثر من سبقوه في تطبيق الانتداب باتوقراطية صارمة . فقد صرح النائب دوريو Doriot في مداخلته بجلسة ٢٠ كانون أول/ديسمبر ١٩٢٥ بقوله : « فوجئت برغبته التي أظهرها باتباع ما أسسه سابقوه. كان يردد دائما هذا ما فعله من سبقني.. ماذا أفعل لم اشأ تغيير ما وضعوه ، نعم لم أستقبل أعيان الدروز .. ولكن هذا ما فعله غيري .. » . ولم يستبدل بكاربييه لان الجنرال ويغاند المفوض السامي هو الذي عينه حاكما .

وخطا الجنرال سراي خطوة الى الامام متوهما ان الازمة ازمة « عائلة » . فبحجة أن يتيح لها تحديد مطالبها بدقة أرسل يستدعي خمسة من زعمائها الى دمشق، حضر منهم ثلاثة هم : نسيب ، شيخ صلخد، وحمد ، عرى، وعبد الغفار ،السويداء، فأرسلوا معتقلين الى تدمر ، حيث كان قد سبقهم اليها عقله القطامي ،زعيم شهبا .

في اليوم التالي ، التقى احد الاهالي بالكابتن نورمان ، في أحد شوارع السويداء، فقال له الاهالي : « الا تعلم ماذا جرى بالامس ، لقد اعتقل شيوخنا . فاجابه الكابتن نورمان : هذا غير معقول . المفوض السامي جنرال في الجيش الفرنسي . انه غير قادر على الاقدام على امر كهذا »(٢٠) . وأدانت لجنة الانتدابات في عصبة الامم في أعقاب جلسة روما (شباط / فبراير ١٩٢٦) المسؤولين الفرنسيين ولم تجد في جميع مبرراتهم ما يمنعهم من استقبال وفود أهالي الجبل والاستماع الى شكاويهم .

حتى هذا الحين لم يعد ما يجري المطالبة باستبدال حاكم فرنسي بحاكم فرنسي آخر كثرت أخطاؤه وسوء تصرفه ، وانصرف النظر عن المطالبة بأن يكون هذا الحاكم من الاهالي ربما لان الخلاف يحسم ، بين ان يكون هذا الحاكم من « أطارشة » عرى اصحاب الزعامة العشائرية المتعارف عليها أم من « أطارشة » السويداء عاصمة الجبل ، التي منحها الواقع أهميتها . والى جانب هذا أو منفصلا عنه الى حد ما فطن المعارضون وتجرأوا على المطالبة بتطبيق أو مراعاة اتفاقية « أبو فخر – روبيرديكيه» الموقعة في بيروت سنة ١٩٢١ التي تمنع الجبل حكما ذاتيا . ولم يدر في خلد هؤلاء وأولئك ولم يصرحوا برفض الانتداب الفرنسي ، ومعظمهم كان على صلة بالفرنسيين من وراء فيصل ، لم يقطع الصلة في عهده وظل محافظا عليها ، وساهم في تأليف « الخيالة » المرافقين لفورو وقتل أحدهم وهو يتسلل من وراء حكم فيصل لمقابلة الفرنسيين في بيروت .

عندما اجتمع أعيان آل الاطرش في صلخد لتلبية طلب مندوب المفوض السامي بدمشق بنزول خمسة منهم الى دمشق بحجة تقديم شكاويهم كان راي سلطان الاطرش صراحة الى جانب عدم الذهاب واعتبر المسألة فخا . لذلك لم يغادر « القريا » بلده، واعتذر متعب شيخ رساس بمرضه ، وامتثل الثلاثة الاخرون . ومن الواضح أن ورود اسم سلطان في عداد الخمسة المطلوبين هو من قبيل « خلط الحابل بالنابل »ومن هنا كانت زيارة تومي مارتان لسلطان في بيته في القريا لاقناعه بالذهاب الى دمشق مع الذين ذهبوا . فلما واجهه سلطان برأيه في الحكم وغيه ، وصل الامر في نقاشهما الى ان قال له سلطان قولته المشهورة التي انتشرت كالنار في الهشيم « لولا أنك ضيفي لأمرت بزربك في الباكية » مدير استعلامات حكومة سوريا ، المنتدب الى السويداء يزرب بين الطرش !! عندئذ غادر متوعدا . ومن هنا بدأت الثورة . عاد تومي مارتان الى السويداء ، ولم أعثر في الوثائق الفرنسية على رد فعله ، وركب سلطان بصحبه أخيه زيد للقيام بجولة في الجنوب . فخرج من بكا ، خيال واحد فقط هو شيخها صياح حمود الاطرش ولم يمروا بالقرية التي تليها جنوبا. ذيبين ، لان شيخها هو رئيس المجلس الاستشاري ، وخرج اليهم لمرافقتهم جميع البربور من إم الرمان .

وعندما اقبلوا على قرية عنز طالعهم بعض من كان في مضافة حسين الاطرش فاوفدوا من يلقاهم بالرجاء أن لا يدخلوا قريتهم فاستمروا في طريقهم متجنبين قريتي شنيرة والمشقوق ثم صما البردان ، الى امتان . وفي امتان تعلق الشاب علي مصطفى الاطرش بركاب سلطان الاطرش يرجوه أن لا ينزل في القرية . فأكمل طريقه الى قرية ملح وهي مقر ناحية تابعة لصلخد ولم يخرج من امتان في صحبته الا خيال واحد هو يوسف العيسى .

وهكذا اقبل ستة خيالة الى ملح يأملون ان يلقوا فيها العون . كانت قرية ملح « ناحية » من نواحي قضاء صلخد ، واقعة على حدود البادية المتصلة من جهة بالعراق ومن جهة بالاردن في منتصف المسافة تقريبا بين أقصى الجنوب واقصى الشمال من حدود جبل الدروز الشرقية . وكونها مركز الناحية يعني أن بها مخفرا للدرك وموظفي حكومة . وفي هذه المسافة الواقعة في نصف دائرة تقريبا من القريا بلد سلطان الى ملح يكون قد مر باثنتي عشرة قرية منها . ولم يجتمع حوله اكثر من ستة خيالة . لحق بهم على مايقال ستة أو سبعة اخرون . مما يقطع بأن الخوف من السلطة ما يزال يتملك النفوس . وما أن أقبل جمعهم وطالعهم الناس بالمناظير حتى بادروا بايفاد من يلاقيهم لانذارهم بوجود « المخفر » بكامل هيئته وعدته ، وينصحهم بالنكوص اذ ليس في القرية والحالة هذه من يجرؤ على استضافتهم أو الاستجابة للعمل معهم . فاداروا رؤوس خيولهم وقفلوا راجعين . وعلى بعد كيلو متر واحد او اثنين مروا بفسحة شاسعة ، هي أرض لعائلة الباسط ، تصلح ميدانا للطراد فنصب أحدهم « الميدان » ، رفعا للمعنويات المنكسرة واثارة للنخوة في رؤوس الرجال وراح يتحدى للنزال* . فانقسم الجمع فريقين وبدأ الطراد . ولم يلبث خيالة القرية أن شاهدوهم فانطلقوا كل من جهة ينهالون للمشاركة وانصرف أفراد المخفر ومن يمت للحكومة فغادروا القرية بهدوء من تلقاء أنفسهم . وقبيل غروب الشمس توقف النزال في الميدان فأخذ خيالة القرية والذين احتشدوا للمشاهدة يتنازعون على استضافة سلطان وربعه . فاذا بالقرية وضيوفها يبيتون ليلتهم في « عز أيام زمان » بين الاهازيج . وانتشرت الاخبار وانحلت عقدة الخوف في البلاد . ولم يعد يخشى من دفن بندقيته ان يخرجها ويجلوها . في اليوم التالي ، ١٦ أو في ١٧ تموز/يوليو ، انطلق من قرية عرمان ثلاثمائة خيال – ربما كان بينهم بعض أهالي القرى المجاورة : قيصما و الهويا والحريسة – الى لقاء سلطان في ملح ، وبدلا من أن يستمر هذا الجمع الغفير في سيره الى الامام ، ملتفا

* سعيت الى تقصي اسم هذا الشخص دون جدوى . واستنطقت سلطان باشا مرارا فلم يذكره ... وأغلب الظن انه كان هو البادىء الا انه لم يشأ ان يتحدث عن نفسه كعادته ...

حول الجبل عـاد منحرفا الى عرمان المواجهة لصلخد ، مركز القضاء ومقر المستشار الفرنسي . ودفعت هـذه التجمعات المقلقة ، المثيرة ، الفرنسيين الى ارسال طائرات استكشاف (١٧ تموز) فأجبرت نيران البنادق احداها على الهبوط في قرية امتان . فبسط الشاب علي مصطفى الاطرش زعيم القرية حمايته على الطيارين وانقذهم من فتك الاهالي بهم . فكان ذلك بداية شهرة سياسية . وبعد يومين اثنين ، لم يبـق هناك من يستطع كبح جماح هذا الجمع الهائج عن الزحف الى صلخد ، ثانية مـدن الجبل الكبرى ، فاندفعوا يحرقون سراي الحكومة فيها وبيت المستشار يشاركهـم اهاليها ومن صلخد انطلق هذا الجمع ومن خرج معه من اهالي صلخد ، الى سهل اسمه العين ، الى الغرب ـ الجنوبي . وهو مرج صالح للمرعى ، حيث اقترح سلطان المكوث قليلا والتقاط الانفاس . فنصبت بيوت « الشعر » وصنعت القهوة « المـرة » وتحلق الجمع حول شاعر الربابة كأنهم قبيلة جمعها « مرباع خيولها ».

ورأى المسؤولون الفرنسيون في السويداء ورؤساؤهم في دمشق ، عندما لـم يستجب سلطان لطلبهم باللحاق بالثلاثة من آل الاطرش الى دمشق ، وبعدما وصلتهم أخبار التجمعات في القضاء الجنوبي أن يقطعوا عليها الطريق ، بملاقاتها في قرية الكفر شرق جنوب السويداء ، بكتيبة يقودها الكابتن نورمان .

كان قصد سلطان من مقامه في مرج العين وتريثه اتاحـة الفرصة لمخابرة قـرى الجبل بالحال وضرب موعد للقاء في قرية قنوات ، مقر المشيخة الروحيـة ، للتداول فيما يجب اتخاذه . وعندما علم بقوة الفرنسيين التي تترصده وتقطع عليه الطريق في الكفـر ، ندب خيالين من المقربين للانتقال الى الكفر والسعي لمقابلة نورمان ، بصحبة شيخ الكفر أسعد مرشد ، والطلب من قائد السرية الابتعاد عن الطريق وعدم التعرض للجمع القادم مع سلطان لان بغيته المرور الى قنوات فقط ، وهو لا يبتغي القتال ومراده السلم والتفاهم . ولكن رعونة رجال الانتداب أبت الا ان تظهر صلفها. ففي اثناء محادثة الشيخ أسعد مرشد لنورمان امام موفدي سلطان، قال نورمان وهو مستلق على سريره في خيمته بلباس الميدان وقد أدخل سوطه في جزمته :

ـ أسعد بك الا تعيرنا انتباهك لحراسة خيامنا ريثما نعود اليها جارّين وراءنـا سلطان من شاربيه . ووراءه من ينتصر له ؟

عندئذ هب الحضور وقوفا ، وانتهى الكلام . وعاد الموفدان يخبران سلطان بمـا جرى فطلب اليهما ان يتكتما الخبر ويعتبراه سرا لا يفشى لاحد .

يقول اللواء زيد ، ـ اخو سلطان الذي كان عندئذ في عداد الجمع ـ لم تعرف كيف تسرب الخبر وسرى كالبرق . وانطلق الخيالة والمشاة وبينهم اخي مصطفى ، حتى انني ، ولم تكن فرسي مسرجة ، لم اتمكن من اللحاق بهم الا وكانت المعركة قد انتهت وأبيد الفرنسيون وعلى راسهم نورمان نفسه .

كتب سلامة علي عبيد كتابه الثورة السورية الكبرى على ضوء وثائق لم تنشر عن لسان شهود عيان يصف المعركة :

« ... انطلقوا جميعهم بخيلهم ورجلهم وفي وضح النهار انطلاقا جنونيا باتجاه موقع الحملة ـ المخيمة حول نبع الماء شمالي القرية ـ فسلك الخيالة الطريق الاقل وعورة ، بارشاد بعض اهالي الكفر ، في حين انطلق المشاة بطريق مختصر ولكنه اشد وعورة . وبذلك أصبحوا يشكلون فكي كماشة انقضت في لحظة واحدة ودون أن تتوقف دقيقة واحدة على المحاصرين حتى أنها لم تسمح لهم باستعمال أسلحتهم بل أعجلتهم عن ذلك بانقضاض هائل خاطف بالسلاح الابيض . وهكذا فقدت الرشاشات كل ميزة وتحولت البنادق الى عصي خشبية حتى أنه لم يتح لاكثر من مئتي مجاهد ان يشتركوا في هذه المجزرة الرهيبة التي لم تدم أكثر من أربعين دقيقة ... » .

حتى لقد روي أن احد الانفار الناجين من المعركة العائدين الى المقر في قلعة السويداء ، شاهد في طريقه « زوالة » ظنها رجلا يتربص به فهرب عنه شاردا ، تاركا بغله وما عليه من مؤونة فاذا بال « زوالة » امرأة تتكىء على عصا .

بعد الكفر ، لم تعد فكرة الاجتماع في قنوات واردة في اطار القصد الذي رمى اليه سلطان من قبل . بعدما استجد من معطيات . فالثورة انطلقت . لم يعد في قدرة احد ايقافها . لقد هب الاهالي هبة واحدة . يحدوهم الانعتاق والتحرر من القهر المكبوت منذ اربع سنين ، وكسب البندقية من أيدي الفرنسيين . ففي الدراسة التي أجريت لحصر وتحديد عدد « المجاهدين » الذين يستحقون تخصيص راتب ، كان الشرط الاول أن يكون المجاهد قد بقي في الثورة أكثر من ستة شهور والا لامكن القول بأن جميع القادرين على حمل البندقية من سكان الجبل اشترك في الثورة ، بلا تفريق بين المعارضين والمؤيدين للوجود الفرنسي .

وهكذا أمكن لقائد الثورة ان يذيع منشورا يطرح فيه اماني البلاد : لان الحق يؤخذ ولا يعطى وبالدعوة الى السلاح .

الحواشــــي :

(١) انظر : ذوقان قرقوط ، تطور الحركــة الوطنيــة في سوريا ، ط٢ ، منشــورات دار طلاس بدمشق ، فصل الثورة .

(٢) ساطع الحصري ، يوم ميسلون .

(٣) E. RABBATH : L'Insurreetion Syrienne de 1925 - 1927 - Revue Historique, 542 - Avril - Juin 1982 .

(٤) جاء في تقرير لجنة الانتدابات لعام ١٩٢٦ : « لم يرد في تقرير الدولــة المنتدبة الــذي فحصته اللجنة خــلال اجتماعها الخامس أي باعث على توقع الثورة التي شبت في جبل الدروز .. فاللجنة مضطرة والحالة هذه الى عدها حادثا يعود الى أسباب مباشــرة ذات أصل حديث ... » كذا .

(٥) المقطم (القاهرية) ٨ نيسان / ابريل ١٩٣٠ : أسباب الثورة ، في آراء الكتاب الفرنسيين ، وفي ١٢ ، ١٨ ، ٢٥ ، تموز / يوليو ١٩٢٥ ، الاحرار البيروتية ١١ تموز / يوليو ١٩٢٥ .

(٦) B. N. Paris : L'Illustration, 15 Oût 1925 : (Les èvennements en Syrie) .

(٧) Porter , J. L. Five years in Damaseus , Vol. I P 135;

ميخائيل مشاقة ، مشهد العيان في تاريخ سورية ولبنـــان ص ١٥٢ ، الامير ســـعيد الجزائري : جهاد نصف قرن ص ٤٨-٤٩ .

(٨و٩) الدكتور أحمد قدري : مذكرات ص٤١ ، ٦٤٤، ٦٥ وقد سلك هــذا الطريق كل مــن توفيق البساط وابراهيــم هاشــم مــن الضــباط الاحتياط في الجيش العثماني ، وعمر حمــد عضو الجمعية اللا مركزية الشهير وتحسين قدري رئيس الديوان الملكي العراقي فيمــا بعد ، ورفيق التميمي وسليم عبــد الرحمن ورستم حيدر والملازم محمود المغربي وخليل السكاكيني وسعيد الباني وعبد اللطيف لطفي وحكمت العــلي والدكتــور احمــد قدري ونسيب البكري وزكي الدروبي ... الخ .

(١٠) من حديث لسلطان باشا .

(١١) حنا أبي راشد ، جبل الدروز ، المطبعــة التجارية الكبرى ، مصر ، حوران الدامية ، ١٩٢٦ .

(١٢) أكد سلطان باشا للباحث نتيجة للتداول مع جورج صيدح وخليل سكاكيني وبعض رجالات الجبل أدرك أن الدولتين فرنسا وبريطانيــا متفقتان على اقتســام النفوذ في البــلاد وأن سورية من نصيب الفرنسيين ولم تكن سايكس - بيكو قد كشفت بعد .

(١٣) نفى سلطان باشــا ، لي ، التعرض لهــذه الفكرة ، نفيا قاطعــا ، في حدود علمــه . والارجح ان يكون ذلك مدسوسا من الاتجاه الفرنسي لتأييد خطه فصل الجبل عن سوريا .

(١٤) مثلا : بين أوراق نسيب البكري صورة من احدى رسائله اليه يقول فيها : « الجيش الحجازي طهر مكة المكرمـــة من الاتــراك وجيش الحلفاء المنضم اليه الجيش السوري قد افتتح بئر سبع عن طريق غــزة في ٣١ اكتوبر - تشرين الاول ١٩١٧ ويافا في ١٦ نوفمبر والقدس في ٩ ديسمبر وعليه كن على استعداد مع رجال حزبك وقريبا سندخل جبلكم المنيع بواسطتكم . والله ينصر العرب .

(١٥) حنا خباز ودكتور جورج حداد ، فارس الخوري ، حياته وعصره - مطابع صادر ريحاني بيروت ١٩٥٢ ، ص ٥٢ « واختلف الرأي على اثر انذار غورو . قال فارس الخوري : لا شك في اننا قمنا بما يقتضيه الواجب ومصلحة البلاد . ولكن الشعب لن

يقدر ذلك وسيزعم بأننا اضعنا عليه فرصة الانتصار وسيكون هناك من يقول دائما ليتهم رفضوا الانذار واختاروا الحرب والنضال » ، ساطع الحصري ، يوم ميسلون – بيروت ١٩٤٨ ص ١١٢ .

(١٦) المقصود : اتفاقية ابو فخر – روبيرديكيه. وابو فخر هذا هو شيخ العقل محمود ابو فخر الذي عزل من المشيخة نتيجة مؤامرة اخلاقية دنيئة . اهلية – فرنسية ، لا شك ان هذه المعاهدة ليست بعيدة عنها .

(١٧) حنا أبو راشد

(١٨) L' Echo de Paris,29 September 1925

أيد الجنرال سراي نفسه هذا الكلام في كتابه الى مندوبه في دمشق ، الذي ذكره الدكتور ادمون رباط في المصدر المذكور سابقا وأيده م. كوبلنتز في كتابه « صمت سراي » ص ٢٣٤ .

(١٩) مداخلة النائب Ferry من مجلس النواب الفرنسي المشار اليها سابقا .

(٢٠) L' Echo de Paris , 29 September 1925 .

* * *

راي للمناقشـــة :

الجدل حــول تفسير التاريخ في ســورية وقت الانتداب الفرنسي

اولريكة فرايتاغ *
باحثـة من المانيـا

يعد البحث التاريخي فرعا من العلوم الانسانيــة . والمعروف ان هــذه العلوم مرتبطة بالتطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أكثر من العلوم الطبيعية . ومع التطورات الدائبة في هذه الحقول في المشرق العربي خلال القرن التاسع عشر بدأ الاهتمام بالتاريخ يتجدد أيضا ولاسيما في سوريــة . ويمكننا اعتبــار الفترة ما بين منتصف القرن التاسع عشر وانهيار الدولة العثمانية ، هي مرحلة النهضة العربيــة التي بدأ فيها تكوين الفكر الوطني والقومي في المنطقة .

أما بعد الانتدابات الاوربية على المشرق فقد وجد المثقفون خصما جديدا(١) . لقد استندت فرنسة في سياستها الاستعمارية الى ايدلوجية أساسها «الرسالةالتحضيرية» . وحاول (أصحاب الحكم الانتدابي) أن يزودوا هذه الايديولوجية بنوع من العمق التاريخي كما فعلوا في الجزائر(٢) . وقد اثار ذلك ردود الفعل عند المثقفين العرب . وهذا الجدل حول الثقافة هو موضوع هذه المقالة .

يروي خالد العظم في مذكراته عن أيام دخول الجيش الفرنسي الى دمشــق بعد معركة ميســلون ١٩٢٠ فيقول : « مرت بالتسلسل ذكــرى دخول .... ثم قــدوم الجنــرال غورو ووقفتــه أمــام ضريح الســلطان صــلاح الديــن الايوبــي وقولــه (ها نحن نعود) ملمحا الى عودة الصليبيين على يده (...) »(٣) .

والجدير بالذكر ان ذلك الحادث الذي يذكر أكثر مــن مــرة يعبر عن رؤيــة الفرنسيين لنفسهم « كتقليد صليبي »(٤) . وقد تأثر السوريون بذلك . وتعود هذه النظره الى اقتناع الفرنسيين برسالتهم « التحضــيرية » التي كانت ترافــق وتبــرر التوسع الاستعماري(٥) .

---

* زارت الباحثة الالمانية اولريكة فرايتاغ دمشق أكثر من مرة لاعداد دراسة عن تطور كتابة التاريخ في سورية بعــد الاستقلال ، نالت عليها شــهادة الدكتوراه . وقد وافتنا بهذا البحث بعد عودتها الى بلادها ، ننشره كوجهة نظر اوربية .

دراســات تاريخيــة ، العددان ٤٩ / ٥٠ ، آذار ـ حزيران ١٩٩٤

وبعد احتلال سورية بدات فرنسة تنشىء ادارة الانتداب ، وخططت لاحداث مدرسة خاصة لتعليم الموظفين الجدد . وطلب الجنرال غورو من هنري لامنس تحضير دروس عن تاريخ سورية لهذه المدرسة (٦) . وهنري لامنس (١٨٦٢ - ١٩٣٧) اب يسوعي بلجيكي الاصل فرنسي الجنسية ، عاش في بيروت حيث درس في الكلية اليسوعية . وهو مستشرق ومؤلف لعدة كتب عن الاسلام والعرب(٧) . وبالرغم من عدم تحقيق مشروع المدرسة الادارية ، فقد الف لامنس كتابا عن تاريخ سورية (بيروت ١٩٢١) بناء على طلب زملائه الذين ارادوا استعماله للتدريس في المدارس العامة(٨) . ويدعى محمد كرد علي انه عاق الفرنسيين عن هذا الاستعمال الرسمي للكتاب [باحتياجاته(٩)] وعلى كل حال يمكننا اعتبار كتاب لامنس نوعا من « تفسير شبه رسمي » للتاريخ السوري من قبل الفرنسيين . والدليل على ذلك ليست قصة انجازه وحسب ، بل أثره على المناهج المدرسية العامة التي صدرت عام ١٩٣٢ أيضا (١٠) .

اما بالنسبة لمن يقول ان كتاب « تاريخ سورية » يشكل جزءا من الكتابة اللبنانية المسيحية للتاريخ ، لتشابه افكار لامنس وكتابات جرجي يني(ت ١٩٤١) ويوسف الدبس (١٨٢٣ - ١٩٠٧)(١١) فهذا لا يستبعد ، للقرابة السياسية والفكرية السابقة بين بعض الاوساط اللبنانية المسيحية وفرنسا ، خلال أواخر القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين .

يعبر لامنس عن برنامجه التاريخي السياسي بعنوان الفصل الاول من كتابه « الجنسية السورية قبل الفتح العربي »(١٢) وبذلك يلمح الى ما يراه الفرق الواضح بين السوريين والعرب . ويطور هذا الموضوع مستندا على ما يفسره بالوحدة السورية التاريخية للارض واللغة والاصل والتقاليد . وكل هذا ، يقول لامنس ، أدى الى تكوين « شكل خاص » يميز السوريين عن سكان مصر وبلاد ما بين النهرين ، والعرب عامة(١٣) . وبالرغم من كل موجات الفاتحين فقد احتفظ السوريون بخصوصيتهم بسبب حيويتهم الخاصة .

اما لغويا ، فيفسر لامنس تعريب سورية بضغط ما سماه « الخطر العربي »(١٤). وهو ينظر الى العرب كأهل بادية هم برأيه « متوحشون [نبيليون] غير قادرين على التمدن » . أما سكان القرى والمدن الذين كان عددهم يتجاوز عدد البدو في تلك الايام فيصفهم بانهم مزيج من العرب مع تأثيرات اجنبية ، وهم لذلك متفسخون(١٥) . ويفسر بالتالي ازدهار الدولة الاموية بنقل عاصمة العرب من الحجاز الى سورية ، وبتأثير السوريين على العرب الذين استفادوا منهم(١٦) . ويضيف لامنس الى نظرته السلبية

للعرب هجوما على الاسلام . لذلك لا غرابة في اعجابه بالجامع الاموي ، على الرغم من كونه رمز الحكم الاسلامي ، اذ انه يعتبره نتيجة الفن المحلي ، ويعني بذلك الفن السوري المسيحي ، وبذلك فهو ليس اسلاميا(١٧) .. أما الحكم العباسي فبدأ به ما يسميه لامنس بـ « الالف سنة عبودية » (١٨) ، لذلك يركز على معارضة السوريين للعباسيين ..الخ .

تختلف الصورة التي يرسمها لامنس عن فترة الصليبيين اختلافا تاما عما سبق. فقد وصل الصليبيون حسب رأيه ، الى بلاد منهارة وفقيرة(١٩) أما عند خروجهم فكانت سورية قد ازدهرت واغتنى سكانها . وتعاكس صورته من هذه الفترة صورة المؤرخين العرب حتى في التفاصيل . يقول ان المسلمين فضلوا حكم الصليبيين على حكم امراء المسلمين لوجود التسامح ، وانسجام سكان البلاد ، الذي كان على عكس الظروف في البلاد تحت السيطرة الاسلامية في الوقت نفسه(٢٠) . وبذلك يرى لامنس فترة الحروب الصليبية نموذجا للانتداب الفرنسي ، ويوضح هذه الرؤية حتى لغويا عندما يكتب عن سورية في القرن الحادي عشر كمنطقة «منتدبة لدفاعها وتطورها»(٢١).

اما الفترة التالية فلا يرى لامنس فيها الا ما راى عند بحثه عن العصر العباسي : فساد وفوضى واضطهاد ..الخ. وكان الاستثناء الوحيد (برأيه) جبل لبنان الذي اصبح نوعا من ملجأ للاقليات(٢٢) . ويشيد لامنس بالعلاقات الجيدة التي أقامها الامير فخر الدين المعني بين الطوائف . وأهم من ذلك ، انه يرى أن جبل لبنان وحده من كل المناطق السورية استطاع أن يحتفظ بهويته الخاصة وتاريخه ، وبذلك أصبح يتجسد به تاريخ سورية الحقيقي . وحسب لامنس يعود هذا الى طبيعة الجبل الجغرافية التي منعت الفاتحين من الدخول اليه، فمنذ الايام الاولى لسورية استطاعت الفئات المعارضة للحكم الالتجاء اليه .

يعتبر لامنس انتهاء الحكم العثماني في سورية تحريرا ، غير انه يلح على أن الجيوش العربية لم تلعب دورا ملحوظا في الحملة العسكرية التي ادت الى خروج الترك من البلاد ولذلك لا يستحق العرب أي دور في الحكم(٢٣) . وبذلك هو يبرر الحكم الانتداب الفرنسي الذي يراه متناسبا مع آمال سكان سورية ، مهملا ومزيفا نتائج لجنة كنج ــ كراين(٢٤) . ويدافع عن الانتداب الفرنسي أيضا وحجته أن سورية كانت تاريخيا دائما ممزقة بالرغم من وحدتها القومية . ويعود السبب في ذلك ــ حسب لامنس ــ الى جغرافيتها التي تتميز بكثرة الجبال والانهار والوديان التي منعت السكان من الاتصال ببعضهم وبالتالي من الاتفاق السياسي(٢٥) . أما جدلية تاريخ سورية فيراها في التناقض والصراع الدائم بين الاحساس بالوحدة القومية السورية

وهذا التمزق السياسي . ومن هنا تأتي « الرسالة » الفرنسية في « مساعدة » سورية على تحقيق طبيعتها من خلال الانتداب ، ويبرر لامنس تجزئة سورية في أوائل الانتداب بهذا التاريخ ، مثلما يشرح تأسيس دولة لبنان بالدور التاريخي لهذه المنطقة(٢٦) .

ان لامنس المؤرخ ، حتى لو كان مقتنعا بهذه الصورة اقتناعا شخصيا صادقا ، فيبقى ان كتابه يبرر السياسة التي اتبعت مصلحة الدولة الاستعمارية ، واستخدام الكتاب لهذا الغرض ، كما تظهر انعكاساته في كتابات رجال الانتداب أنفسهم(٢٧) .

ويمكننا تصنيف الردود العربية على كتاب لامنس الى نوعين، (الاعجاب) جزئيا كان أو كليا بما قال ، والرفض .والجدير بالذكر ان أعماله كانت موضوع الخلاف في أوساط زملائه من المستشرقين أيضا(٢٨) .

ويبدو أن بعض الاوساط اللبنانية أعجبت بما كتب لامنس عن دور سورية في التاريخ عامة وعن شخصية لبنان البارزة خاصة ، مدافعا بذلك عن تأسيس دولة مستقلة في لبنان . ويرجع المؤرخ فيليب حتي في عدة مقالات صدرت في العشرينات وفي كتابه « تاريخ سورية » الذي صدر عام ١٩٣٧ ، الى فكرة الخصوصية التاريخية لسورية (٢٩) . ويشيد فيليب حتي بالعبقرية السورية التي تجسدت في عصور مختلفة منذ العصر الفرعوني حتى العصر الحاضر ، ويتبع على سبيل المثال لامنس في رأيه بأن العصر الاموي ازدهر بسبب مساهمة السوريين فيه أكثر مما اسهم العرب ،الذين لم يكن السوريون من جنسهم . ويبدو ان هذه الافكار أثرت فيما بعد على تطور (القومية السورية) التي بدأت تتشكل في بيروت في الثلاثينات(٣٠) .

اما فكرة اطراء الدولة الاموية فقابلها ايضا محمد كرد علي الذي كان من اقسى ناقدي لامنس . فكانت الدولة الامويةمن قبل تعتبر غير اسلامية بالجوهر . اما مع انتشار التفسير العلماني للتاريخ والقبول الواسع للافكار الوطنية والقومية فتغير هذا الحكم .غير ان التشابه بين لامنس وكرد علي لا يعني اتفاقهم في خط التفسير العام، بل الامر على العكس تماما . .

يلوم كرد علي لامنس أنه يكتب من باب الانحياز وليس من باب الموضوعية : « نحن لا (نتطاول) الى ان يكتب المؤلف (ويعني بذلك لامنس) عن رجال الاسلام بدون نقد ولا تمحيص ولا أن يقيد حريته في الحكم عليهم . ولا نطلب منه ان يعتقد في دينهم اعتقاد اهله . بل نطلب منه ان ينصف التاريخ ويتجرد عن العواطف التي تذهب بهجة العلم حتى لا يعد من المغاليق في مذهبهم ، فقد قال في القرآن(١٦٢) وايجازه وتفسيره

وبلاغته اشياء كان يقول بها متعصبة الاديار في القرون الوسطى وكنا نود ان لا يقلدهم في آراء قال المعاصرون من غير المسلمين خلافها . وفي كلامه حط من دين يؤمن به نحو ثلاثمائة مليون من البشر وتاريخه يظهر بينهم وفي بلادهم »(٢١) .

وبالرغم من ان كرد علي يختار الكتابة عن بلاد الشام الامر الذي يجعل اطاره الجغرافي يشبه الاطار الذي اختاره لامنس لكتابه ، فالنتيجة تختلف اختلافا كاملا. فمن ناحية يتبع كرد علي أسلوب الكتابة المحلية للتاريخ التي بدأت تتطور في القرن الثالث الهجري وازدهرت في سورية بالذات كذلك(٢٢) ، وذلك بالاهتمام الواسع في مواضيع مثل الجغرافية والعمارة وجوانب الحياة الاجتماعية . اما اختيار منطقة واسعة مثل سورية الجغرافية (بلاد الشام) وليس مدينة أو ولاية فقط ، وايضا وقبل كل شيء طريقة معالجة موضوعه ولغته ، فيفرق في ذلك بين كتابه وكتب معاصريه من المؤرخين الحلبيين التقليديين ، مثل محمد اديب ال تقي الدين الحصني الذي الف « كتاب منتخبات التواريخ لدمشق » وكامل بن حسين بن مصطفى الحلبي الشهير بالغزي الذي كتب« نهر الذهب في تاريخ حلب »(٢٤) .

يمكن اعتبار « خطط الشام » نوعا من رد على هنري لامنس من حيث النية والمضمون معا . اراد كرد علي أن يخدم « روح الوطنية »(٢٥) وبالرغم من انه وصف سكان بلاد الشام بانهم أمة من ناحية(٢٦) فهو لا ينكر الصلات بينهم وبين العرب من ناحية اخرى مثلما يفعل لامنس بل بالعكس ، يعترف كرد علي بالدور العربي الخاص في تاريخ هذه المنطقة ، وبعد وصف الهجرات المختلفة التي مرت بسورية يقول : « ولم تطل حياة عنصر في صحة بالشام كما طالت حياة العرب فانهم فيها على أصح الاقوال منذ زهاء الفين وخمسمائة سنة واصل بعضهم الى نحو اربعة آلاف سنة ، وهم الذين اندمج فيهم عامة الشعوب القديمة واستعربت فلم تعد تعرف غير العربية لسانا ومنزعا . ولذلك كان من المعقول أن يدل الشامي بعربيته أكثر من ادلاله بفنيقيته وروميته وسريانيته وعبرانيته »(٢٧) .

وفي مجلة « المقتبس » يتعمق محمد كرد علي في هذا الموضوع ، ويشرح أن هناك أمة عربية من المحيط الاطلسي الى بحر الهند . اما داخل هذه الامة فتوجد بلاد أو مناطق مختلفة مثل السودان والعراق واليمن وسورية(٢٨) . وبذلك تصبح سورية جزءا من الامة العربية وليست وحدة منعزلة مثلما رآها لامنس .

يتبين مما سبق أن كرد علي ليس من رواد (القومية السورية) . أما مفهومه لوجود (امة سورية) ضمن الامة العربية فيتساوى مع تطور الاوضاع السياسية

والفكر السياسي انذاك . والجدير بالذكر ان القوميين العرب من سورية كانوا متأثرين في العشرينات بتاريخهم الحديث أي : « الدولة السورية ١٩١٨ — ١٩٢٠ » والمناقشات التي دارت حول تأسيسها ، واعلان دولة العراق المستقلة في ذلك الحين(٣٩) . ويظهر من هذا ان وجود عدة دول عربية كان معترفا به في هذه الفترة بدون ان يؤخذ بمعنى « القومية القطرية » مثلما حدث فيما بعد عندما نشر انطون سعادة كتابه « نشوء الامم » عام ١٩٣٨ ، أي بعد نشر « خطط الشام » بفترة(٤٠) . والدليل على ذلك انه حتى ادمون رباط الذي اجاب في كتابه « الوحدة السورية والمستقبل العربي » على لامنس والذي حاول أن يؤثر على الرأي العام الفرنسي اثناء مناقشة معاهدة ١٩٣٦ ، يحكي عن وحدة مناطق عربية مختلفة ويفسرها كالخطوة الاولى نحو الوحدة العربية الكبرى(٤١) .

ويفسر كرد علي ان أهمية الدولة الاموية ــ التي يؤكدها مثلما اكدها لامنس ــ تعود الى وضعها الاسس الثابتة للحضارة العربية الاسلامية والى تأسيسها دولة عربية صرفا(٤٢) ، مناقضا بذلك رأي لامنس من أن العرب استفادوا من نشاط السوريين فحسب . اما الحكم العباسي فينتقده كرد علي ــ باستثناء بعض الخلفاء مثل هارون الرشيد ــ على أساس سياسة الحكم تجاه الفرس والاتراك . ويرى كرد علي في محاولة اندماج القوميات بداية النهاية لان هذه القوميات بدات برايه تفسد الدولة وتحصل على زمام الحكم(٤٣) . ومرة اخرى نستطيع أن نلاحظ انه على الرغم من التوافق في التقدير السلبي للدولة العباسية يختلف التفسير التاريخي جذريا بين كرد علي ولامنس . فهذا يأسف على فقدان العرب للسلطة ، بينما يأخذ الثاني سوء السلطة العربية اساسا لحكمه .

اما بالنسبة للحروب الصليبية فيختلف الامر ، بحيث ان تحليل وحكم المؤرخين يتناقض تماما . فبينما يشيد لامنس بهذه الفترة وبأن اوروبا ساعدت الشرق الاوسط على التطور ، يؤكد كرد علي النقل الحضاري من العرب الى « شعوب شمالي أوروبا المتوحشة »(٤٤) .

اما الفترات التالية أيام دول المماليك والمغول والعثمانيين ، فيراها كانهيار مستمر(٤٥) غير انه في القرن التاسع عشر بدأ الامل بتحسين الاوضاع يعود مع رجال مثل محمد علي باشا وابراهيم باشا ومدحت باشا . اما بالنسبة لطموحات السوريين فيعود محمد كرد الى تقرير لجنة كنج كراين ويلخص نتائجه بشكل افضل واصح مما فعله لامنس(٤٦) .

بعد نشر كرد علي « خطط الشام » بدأ هنري لامنس ينتقده لاستخدامه مراجع قديمة ، ولعدم علمية الكتاب وصدقه في مصادر غير موثوقة(٤٧) . وفي الاطار نفسه ناقش بعض نقاط مثل حكم كرد علي السلبي على العصر الروماني في الشام الذي كان براي لامنس عصرا ذهبيا . وبذلك النقد انتهى الجدل بين الاب اليسوعي هنري لامنس والمثقف العربي محمد كرد علي حول التفسير « الصحيح » للتاريخ السوري العربي .

توضح هذه المناقشة الدور الذي لعبه بعض المستشرقين في تبني ايديولوجية الدول الاستعمارية . ولكنها تدل ايضا على مشكلة اخرى : لقد اهتم محمد كرد علي الاديب الصحفي المؤرخ بتطور العلم واللغة متابعا بذلك جهود رواد النهضة العربية. ويتضح ذلك في نشاطاته العديدة ، وكان بذلك يقترح انفتاح الحضارة العربية الاسلامية على التطورات الغربية ، مدافعا عن ذلك بالحاجة على ان الغرب استفاد من التقدم العربي خلال وعقب الحروب الصليبية(٤٨) . ولم تكن هذه الفكرة مقبولة عند كل معاصريه نظريا وعمليا . وعلى سبيل المثال يقال في حقل الكتابة التاريخية أن محمد اديب آل تقي الدين الحصني الف « كتاب منتخبات التواريخ لدمشق » قاصدا بذلك الدفاع عن النمط التقليدي لتدوين التاريخ ضد الاسلوب الحديث. ومهما كانت صحة هذا القول فيبقى ان المجتمع التقليدي عارض التغيرات العديدة وسبق في ذلك التطور مجال الادب والتاريخ . ومن الارجح ان اعمال بعض المستشرقين وما عرف عنها زاد من رفض المحافظين لما اعتبروه بدعا ، لذلك وجد محمد كرد علي نفسه في مأزق حيث قبل بعض الافكار والاساليب الجديدة منهم من ناحية ورفض قذفهم للعرب والاسلام من ناحية أخرى . ولكنه أجاب عن هذه المشكلة بنوع من الاستقلالية الفكرية حيث فرق بين المستشرقين الذين كتبوا لاغراض سياسية او نفعية ، وآخرين كتبوا بنزاهة (٤٩) .

لم ينته الجدل الثقافي بين الفرنسيين والسوريين مع النزاع المذكور بل اخذ اشكالا عديدة خلال فترة الانتداب ، وهذا على مستويات مختلفة منها حقل التربية . وتوجد عدة روايات تدل على دور دراسة التاريخ في ايقاظ الشعور بالقومية عند طلاب المدارس ومكتب عنبر بالذات(٥٠) . وبعدما اتفقت فرنسة مع سورية على معاهدة ١٩٣٦ التي رفض البرلمان الفرنسي ان يصدقها بدأ الموظفون السوريون في وزارة التربية بتغيير مناهج التعليم التي كانت في مجال التاريخ متأثرة بالبرامج الفرنسية وبأفكار هنري لامنس مثلما سبق ذكره ، وأخذوا برامج الدول العربية الاخرى مثل مصر والعراق ودول أوربية مثل اليونان وبلغاريا(٥١) . وكان المقصود بذلك الابتعاد عن البرامج الفرنسية والاقتراب من الدول العربية الاخرى دون الانعزال عن التطورات التربوية الحديثة . ولكن الانتداب لم يكن قد انتهى بعد ، وموظفيه مازالوا يراقبون

التطورات . ويبدو ، على سبيل المثال ، انهم منعوا كتبا مدرسية للتاريخ عام ١٩٣٦ـ ١٩٣٧ لميولها للقومية(٥٢) . اما القوميون من الاساتذة فلم يكونوا مرتاحين لهذا الوضع: كتب صالح زاهد باشا الهبل رسالة الى وزارة التربية عام ١٩٤٤ شاكيا بأن الطالب العربي ما زال يتعلم عن تاريخ فرنسا أكثر مما يتعلم من التاريخ العربي الاسلامي(٥٣).

كان هذا الشعور منتشرا في أوساط القوميين ودعت الحكومة السورية ساطع الحصري الى دمشق عام ١٩٤٤ لدراسة أوضاع التعليم وذلك توقعا للاستقلال القريب . وكان الحصري في ذلك الحين معروفا ليس لنشاطه في سورية وقت الحكم الفيصلي فحسب بل لقيامه بتطوير النظام التربوي في العراق على خطوط القومية العربية(٥٤) . حلل ساطع الحصري الاوضاع في ٢٤ تقريرا واقترح عدة اصلاحات(٥٥)، ونتج عن ذلك ما سماه الحصري بوثيقة « الاستقلال الثقافي »(٥٦) وهو قانون ١٢/٢١/ ١٩٤٤ . حدد هذا القانون في مادته الاولى مهمة التعليم كما يلي :

« أن مهمة وزارة المعارف الاساسية هي تربية الجيل الجديد تربية صالحة ــ من جميع الوجوه البدنية والخلقية والفكرية ــ لينشأ كل فرد من الافراد قوي البدن حسن الخلق وصحيح التفكير محبا لوطنه معتزا بقوميته مدركا لواجباته ومزودا بالمعلومات التي يحتاج اليها في حياته قادرا على خدمة بلاده بقواه العقلية والبدنية وبجهوده الانتاجية »(٥٧) .

من بين تعليمات هذا القانون كان فرض المناهج الرسمية على المدارس الخاصة في المواد التي اعتبرت مهمة من الناحية القومية مثل اللغة العربية والجغرافية والتاريخ، ووقفت الحكومة السورية بهذا القانون في وجه فرنسا التي حاولت المحافظة على تأثيرها الثقافي الى النهاية . ويعتبر هذا القانون سببا من أسباب رفض فرنسا الموافقة على الاستقلال السوري وبالتالي للاصطدامات العسكرية في أيار ١٩٤٥(٥٨). تدل هذه التطورات الاخيرة مرة أخرى على الاهمية التي أعطاها الجانبان الفرنسي والسوري للمسائل الثقافية والتربوية ، ومنها التاريخ ، في الاطار السياسي العام ، كما تؤكدها التعديلات التي ادخلت على مناهج التاريخ بعد الاستقلال(٥٩) .

* * *

الحواشـي :

(١) قارن : عبد الله حنا : من الاتجاهات الفكرية في سـورية ولبنان . « النصف الاول مـن القرن العشرين » بيروت ١٩٨٧ ، ص١٦-١٧.

(٢) قارن :
Mohammed Chérif Sahli, **Déco-loniser l,Histoire** , Paris 1965.

(٣) خالد العظم : مذكرات ، ٣ مجلدات ، بيروت ١٩٧٣ (الطبعة الثانية) ، م١ ،ص ٣٠ .

(٤) من أمثالهذه الرؤية الفرنسـية الكتابالتالي:
Gabriel Puau, **Deux années au Levant (1939 - 1940)** , Paris . p. 79 .

(٥) انظر :
Henri Brunschwig, **French Colonialism 1871 -1919,** Myths and Realities , London 1966 .

(٦) Henri Lammens , **La Syrie, Précis historique,** 2vol ., Beirut 1921 . compare vol. I, p; 1 .

(٧) انظر : خير الديـن الزركلي : الاعـلام . ٨ مجلدات . بـيروت ١٩٨٤ (الطبعـة السادسة) م٨ ، ص ٩٩-١٠٠ و
Kamal Salibi ,**«Islam and Syria in the Writing of Henri Lammens»** , in : Bernard Lewis (ed) : **Historians of the Middle East** , London , New York , Toranto 1962 , p. 330 - 334 .

(٨) Lammens , Op. Cit. V. I, p. II . p. II .

(٩) انظر :
Rainer Hermann, **Kulturkrise und konservative erneuerung . muhammad Kurd Ali (1876 - 1935) und das geistige leben in Damascus zu Beginn des 20.** Jahrhundert. Frankfurt et. al . 1990, P.276; and, Werner Ende, **Arabische Notion und islami - sche gesehiche , Die Umayt - yaden im Urteil arabischer Autoren 20.** Jahrhundert. Wies -baden, Beirut 1977, p. 83-84.

(١٠) قارن : برنامج التعليم الثانوي في دولـة سورية . دمشق ١٩٣٢ .

(١١) قارن
Albert Hourani, « Historians of Lebanon, » in : Lewis/Holt Op. Cit, p. 226 - 249 , here p. 237 - 239 .

(١٢) Lammens, Op. Cit, V. I. p. 1 .

(١٣) Lammens, V, I, p. 5 .

(١٤) Lammens, V, I, p. 23 .

(١٥) Lammens, V, I, p. 33 .

(١٦) Lammens, V, I, p. 69 - 122 .

(١٧) Lammens, V, I, p. 88 .

(١٨) Lammens, V, I, p. 125 .

(١٩) Lammens, V, I, p. 194 - 236

(٢٠) Lammens, V, I, p. 243 .

(٢١) Lammens, V, I, p. 235 .

(٢٢) Lammens, V. 2, p. 13 - 15 , 34-40, 63 .
ولمناقشة نقدية هذه الفكرة انظر :
Kamal Salibi, **A House of Many Mansions , The History of Lebanon Reconsidered** London 1988, p. 130 - 150 .

(٢٣) Lammens, Op. Cit. V. 2, p. 238 - 244 .

(٢٤) Lammens, V. 2, p; 255 .
قارن للاحداث ونتائج لجنـة كنج - كرين ، خيرية قاسمية ، الحكومة العربية في دمشق

بين ١٩١٨ – ١٩٢٠ ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ١١٢ – ١٢٣ .

(٢٥) Lammens, V. I, p. 2,4,9 - 11,13, 132f ; and V. 2, p. 12ff .

(٢٦) Lammens, V. 2, p. 262 - 268 .

(٢٧) قارن :
Puau, Op. Cit. or Georges Catroux, Dans : **la bataille de Mediterranée 1940 - 1944,** Paris 1949, p. 208 .

(٢٨) من نقاد لامنس الغربيين المستشرقون :
C. H. Beker, W. M. Watt and Jean sauvaget , C. F. Ende Op. Cit. p. 188 .

(٢٩) للتالي قارن : Ende, p. 176 - 178

(٣٠) أنطون سعادة ، نشوء الامم ، الاثار الكاملة ، م ٥ (بدون مكان طبع او تاريخ)، ص ٨٠–١٢٨ .

(٣١) محمد كرد علي ، بحث انتقادي في مختصر في تاريخ سورية ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، (١٩٢٢) ص ٢٧١–٢٨١ . هنا ص ٢٧٥ .

(٣٢) قارن :
Sami Dahhan, «The Origin and development of the local his - tory of Syria» in : lewis/Holt, Op. Cit, p. 108 - 117 .

(٣٣) دمشق ١٩٢٧ – ١٩٣٤ ، ٣ مجلدات .

(٣٤) حلب ١٩٢١ – ١٩٢٣ ، ٣ مجلدات .

(٣٥) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ٦ مجلدات. دمشق ١٩٨٣ (الطبعة الثالثة) . م١، ص٣.

(٣٦) كرد علي م.ن ، م١ ، ص ٤٨ .

(٣٧) كرد علي م.ن ، م١ ، ص ٢٠ .

(٣٨) انظر : سمير صيقلي ، « الحياة الفكرية الدمشقية في مستهل القرن العشرين » : « محمد كرد علي ومجلة المقتبس » في : مروان بحيري : الحياة الفكرية في الشرق العربي ١٨٩٠ – ١٩٣٩ ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ١٤٥ – ١٧١ .

(٣٩) قارن : قاسمية : الحكومة العربية (هـ٢٤) ص ١٦٥ – ١٦٦ .

(٤٠) نشر « خطط الشام » لاول مرة سنة ١٩٢٥ – ١٩٢٨ ، أما مشروع الكتاب فيعود الى قبل الحرب العالمية الاولى . قارن:
Hermann, Op. Cit, p. 193 - 194

(٤١) Edmond Rabbath, **Units Syri - enne et devenir arabe** , Paris 1937, p. 346 .

(٤٢) كرد علي ، خطط الشام ، م١ ، ص ٣١ .

(٤٣) كرد علي ، حطط الشام ، م٢١ ص ١٦٨ – ١٧٠.

(٤٤) كرد علي ، خطط الشام م٢ ، ص١٢٨.

(٤٥) قارن لدراسة معمقة .
Hermann, Op. Cit., p. 224-240.

(٤٦) كرد علي ، خطط الشام ، م٣ ، ص ١٧٣– ١٧٤.

(٤٧) هنري لامنس ، « خطط الشام »، المشرق ٢٣ (١٩٢٥) ص ٥٦١ – ٥٦٧ و ص ٨١٤ .

(٤٨) قارن : Hermann, p. 259 - 277

(٤٩) قارن Hermann, p. 83 - 94

(٥٠) قارن ظافر القاسمي ، مكتب عنبر – صور وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ١٠٤– ١٠٧ .

(٥١) عبد الله حنا ، العمل لخلق مدرسة وطنية أيام النضال ضد الانتداب الفرنسي ، المعلم العربي ، (١٩٦٩) ، ص ٢٢–٤١ ، هنا ص ٣٢ – ٣٣ .

٥٢ قارن :
Abdullatif Tibawi , **Islamic Education,** London 1972, p. 144
لا يقول الطيباوي ، للاسف الشديد ، ماهي الكتب التي منعتها فرنسة ، ولا يعطي اي دليل او مرجع لمعلوماته .

(٥٣) وزارة التربية ، مركز التوثيق التربوي ، دمشق . ملف اعادة النظر في برامج المدارس الثانوية والاكمالية العامة ، وثيقة رقم ٣٧٣٠٥ : (٥٦٩٠١) ٣٧١٠ . انظر ايضا مذكرة من رئاسة الجمهورية السورية الى وزارة المعارف . وثيقة رقم أنب ٣٧٣٠٥ (٥٦٩٠١) ٣٧١٠ .

(٥٤) لحياة ونشاط الحصري قارن :
William L. Cleveland , **The Making of an Arab Nationa - list, Ottomanism and Arabism in the life and thought or Sati al - Husri** , Princeton 1971 .

(٥٥) ساطع الحصري : تقارير عن حالة المعارف في سورية واقتراحات لاصلاحها . دمشق ١٩٤٤ وتقارير عن احوال المعارف ' سورية خلال سنة ١٩٤٥ . دمشق ١٩٤٦ .

(٥٦) Cleveland , Op. Cit. p. 79 .

(٥٧) قانون رقم ١٢١ من ١٩٤٤/١٢/٢١ . الجريدة الرسمية (٨)/١٢/١٩٤٤ ص ١٣٢٩ ــ ١٣٣٢ هنا ص ١٣٢٩ .

(٥٨) Tibawi , Op. Cit. p. 144 ; and Roderic D. Matthews / Matta Akrawi , **Education in Arab Countries of the Near East**, Washington D. C. 1952, p. 326.

(٥٩) لهذا التطور قارن الدراسة المعمقة لزهير ناجي : تعليم التاريخ ، دمشق ١٩٧٧ رسالة ماجستير غير مطبوعة) .

* * *

جوانب من صورة الاخر (الغرب)
في التاريـخ الاسلامي

د. نعمان محمود جبران
جامعة اليرموك

هذه دراسة في اطار رسم جوانب من صورة الاخر (الغرب) في التاريخ الاسلامي من خلال محاولة لرصد بعض معالم هذه الصورة في الكتابات الاسلامية (الجغرافية ، التاريخية ، الرحلات) . وقد ركزت على آراء الجغرافيـين والمؤرخـين والرحالة المشارقة في فترة قوة الدولة الاسلامية وفترة ضعفها . وقارنت الدراسة بين ما ورد من صورة للاخر (الغرب) في الفترة السابقة للحروب الصليبية وخلالها . وخلصت الدراسة الى بيان اهم المراحل التي تم من خلالها رسم صورة الاخر (الغرب) ومدى انطباقها على الصورة الحالية للاخر في ذهن الانسان العربي .

تمهيـــد :

ان الموقع الجغرافي للامة العربية واسلوب حياتها قد اهلاها منذ القدم للتعامل مع القارات في العالم القديم ، فكان للعرب صلاتهم باوروبا وافريقيا وشرق اسيا عن طريق التجارة البرية والبحرية ، وكان لهذا التبادل التجاري اثره في تكوين طبيعة العلاقات السياسية تعاونا وتحالفا ، او صراعا وتنافسا . وعلى هذا ، فان معرفـة الاخر وتبادل الخبرات والخيرات معه ظاهرة نابعة من ضرورات جغرافية واجتماعية حياتيـة .

واتسع هذا المجال بعد ظهور الاسلام وتكوينه دولته واتساعها الجغرافي الـذي زاد من مدى الاتصال بالخارج من الاندلس غربا الى حدود الصين شرقا ومن جبـال طوروس شمالا الى بحر العرب واواسط افريقيا جنوبا . وجاء هذا التوسع مقرونا بالرغبة في اكتشاف الاخر او تكوين صورة له ، سواء كان هذا الاخر ضمن اراضـي الدولة الاسلامية (من مسلمين جدد غير عرب أو من اتباع ديانات اخرى) ، أو خارجها (ومن ضمنهم الغرب) ، وتعمقت المعرفة بالاخريـن عندما نشطت حركة الترجمة

دراسـات تاريخيـة ، العددان ٤٩ / ٥٠ ، آذار ـ حزيران ١٩٩٤

في الدولة الاسلامية في القرن الثالث الهجري ، فبدات تتضح بشكل تدريجي معالم صورة العالم بالنسبة للمسلمين والتعرف على الاخر (الغرب) من خلال ترجمات من اليونانية والسريانية ، اضافة للمعلومات التي جمعها التجار والرحالة والاسرى ، وبذلك يمكن القول أن العرب المسلمين قد تعارفوا مع الاخر (الغرب) في فترات زمنية متباعدة بحكم التماس الجغرافي حين كانت اوروبا (الغرب) واحدة من ثلاث قوى حول البحر المتوسط (اضافة الى المسلمين والبيزنطيين) . وقد مرت العلاقات بين هذه القوى بأشكال مختلفة ، فأبناء الحضارة الاسلامية كانوا في اغلب المراحل اكثر عطاء واسهاما في الحضارة الانسانية بشقيها المادي والروحي، في حين كان الاخر تحت سيطرة قبائل بربرية لم يساهم في المسيرة الانسانية بالقدر نفسه ، لكن هذه الصورة لم تكن ثابتة على ارض الواقع ، بل مرت بحالات من المد والجزر ، فالقوة الاسلامية والتي بدت لقرون متماسكة فاعلة ، بدأ يعتريها نوع من الضعف لاسباب داخلية وخارجية ، وكذلك حال الغرب الذي بدأ يتلمس طريقا تقوده الى بداية التفاعل والمنافسة . يظهر ذلك من خلال شكوى بعض المؤرخين المسلمين في القرن الرابع الهجري من مضايقة الروم(١) والغرب للمصالح الاسلامية في البحر المتوسط(٢). ويفهم من ذلك ان المقصود بالروم والغرب يعني أوروبا بمفهومها العام الواسع الذي كانت تبرز فيه ثلاث مناطق رئيسية هي : منطقة رومية ، منطقة السلاف (الصقالبة)، ومنطقة الفرنجة او ما يشمل الامبراطورية البيزنطية واوربا الشرقية (٣) ، واذا كانت بيزنطة هي الاكثر تماسا مع الشرق الاسلامي فان بلاد الفرنجة كانت الاقل تماسا وعلى ذلك فان التصور الاسلامي للاولى كان أكثر وضوحا منه لصورة للفرنجة مكانا وسكانا والتي كانت المعلومات عنها تصل الى العالم الاسلامي ، وعلى حسب تعبير اندره ميكل André Miquel ، اربأ اربا (٤) ، وهذا عكس ما كان لدى المسلمين من معلومات وتصور واضح عن بلاد الهند والصين ، او افريقيا السوداء ، او بلدان آسيا الوسطى التركية .

وحين بدات الدولة الاسلامية بالضعف والتجزئة السياسية والمذهبية سنحت الفرصة للغرب، قبل أن يتوحد سياسيا أو دينيا، لمد بعض النفوذ على مناطق من حوض البحر الابيض واجزاء من الدولة الاسلامية ، بالغزو العسكري لاسباب واهداف متعددة (ليس الدين أقواها) فيما عرف بموجات الغزوات الصليبية . وهذا ما فرض تعارفا عنيفا بين ابناء الشرق الاسلامي والغرب الاوروبي ، وعلاقات ما بين محتل صليبي ومقاوم اسلامي لهذا الاحتلال . وكان يفترض ان يكون لهذه الحروب التي استمرت قرنين من الزمان أثر في تعديل معلومات كل طرف عن الطرف الاخر ، لكن الطرف المسلم رغم ضعفه العسكري في المراحل الاولى للغزو الصليبي بقي يشعر بتفوقه حضاريا على هذا الغازي ، وعلى الرغم مما ترتب على هذه العلاقة العنيفة

الا ان القطيعة بين الطرفين لم تحصل الا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، حين تقدمت اوروبا بسيطرتها على الطرق التجارية العالمية مما جعل منطقة الشرق الاسلامي خارج اهتمامها ، ليعود هذا الاهتمام بشكل عنيف مرة اخرى مع موجات الاستعمار الحديث في القرن التاسع عشر . ومن هنا فان العلاقة بين المسلمين والآخر (الغرب) لم تكن علاقة نمطية تسير في اطار واحد ، بل تمثلت بعلاقات تعاون وتنافس وسلم وحرب ، مما كان له انعكاس على تطور كل طرف للاخر بحسب قوته وضعفه، ولكنها من الطرف الاسلامي كانت تمثل تصور المسلم ابن الحضارة العريقة للاخر (الغرب) الاقل تحضرا ، او نظرة ابن دار الاسلام او السلام الى دار الحرب وسكانها دون ان يعني ذلك مفهوما عنصريا من حيث التفوق العرقي(٥) ، وهذا عكس التصور الاوروبي للاسلام ومعتنقيه او للحضارات الاخرى .

ومما هو جدير بالذكر أن النظرة الاسلامية للآخر أو تصويرها له لم تكن واحدة ، فنجد تميزا في الاهتمام ما بين البيزنطيين والصقالبة والفرنجة والجلالقة ، حيث احتلت رومية والقسطنطينية المكان الابرز والاكثر أهمية في الذهنية الاسلامية ، على عكس مركز الغرب في هذه الذهنية ، على ان هذا الامر قد انعكس في مرحلة لاحقة من التاريخ(٦) ، بتغير حال كل طرف . وحين نبحث عن صورة الاخر (الغرب) في الذهنية الاسلامية خلال فترات متباعدة ومن مصادر متعددة ـ سنقصرها تمثيلا على بعض المؤلفات الجغرافية وكتب الرحلات والسفارات وبعض كتب التاريخ الاسلامي من فترة الحروب الصليبية ـ لابد من التأكيد على ان جزءا من هذا التصور كان فيه تأثير اوروبي جاء عن طريق الترجمات الاسلامية للعلوم اليونانية ومن بينها الجغرافيا، أو بتأثير تصرفات الاخر (الغرب) تجاه الدولة الاسلامية .

آ ـ صورة الآخر (الغرب) لدى الجغرافيين المسلمين :

ان صورة الغرب لدى الجغرافيين المسلمين كانت محكومة بعدة عوامل ، منها الاثر اليوناني في الجغرافيا الاسلامية ، فقد أخذ المسلمون عن اليونان تقسيم العالم الى أقاليم ، وكان الاقليم الذي يقع فيه العالم الاسلامي اكثر تطورا واعتدالا . كما كان للتوسع الجغرافي في حدود الدولة الاسلامية اثر في ذلك . فمنذ القرن الثالث الهجري تأثر علم الجغرافيا الاسلامي بجغرافية بطليموس ، فاخذ عنه المسلمون تقسيم العالم الى سبعة اقاليم وركزوا في كتاباتهم على الاقليم الرابع الذي فضل على الاقاليم الاخرى ، وبخاصة على الاقاليم التي تقع أوروبا أو (الآخر) فيها ، ومن هنا نجدها عملية التفاضل واضحة بين الذات (المسلم) وبين الآخر (الغرب) ، من حيث الاقاليم الذي يعيش فيه . فابن خرداذبة (٢٧٠ هـ) وضمن تقسيم العالم الى أربعة

اقسام يقول : « ان المعمورة اربعة اقسام منها اروفي وفيها الاندلس والصقالب والروم وفرنجة وطنجة .. واسقونيا وفيها امينيا وخراسان والترك والخزر »(٧) ، وهنا يبدو ان مفهوم الغرب فيه عمومية وعدم وضوح يقابله زخم في المعلومات وتوسع في شرح حال الاقليم الرابع اقليم الدولة الاسلامية . ويتضح التفضيل بين الاقاليم عند ابن الفقيه (٢٩٠ هـ) ضمن تقسيمه المعمورة الى خمسة أقسام تماشيا مع أجزاء الطير (راس وجناحان وصدر وذنب) ، فابن الفقيه ـ في كتابه البلدان الذي وصلنا مختصرا ـ يرى أن العالم الاسلامي بمراكز اشعاعه مكة والحجاز والشام والعراق ومصر تمثل صدر الدنيا (صدر الطير) في حين ان الغرب يمثل الجزء الاقل اهمية والاكثر سوءا في الطير وهو الذنب(٨) ، وهو بذلك يفاضل بين الذات الاسلامية من خلال اقليمها الرابع وبين الآخر (الغرب) في اقليمه السادس الذي يضم الفرنجة وامما اخرى ، كما انه يدرج ذلك ضمن النظرة للذات وللاخر في اطار عملية التزيين والتقبيح حسب راي الدكتور حسين محمد فهيم(٩) .

ويبدو الغرب او الاخر اكثر تحديدا ووضوحا عند ابن رسته (حوالي ٢٩٠هـ)، في كتابه الاعلاق النفيسة ، فهو يشير بتميز القسطنطينية ويشير الى بلاد ملك برجان التي تبعد مسافة رحلة بحرية تستغرق ثلاثة أشهر عن بلاد فرنجة ، ثم يتحدث عن مدينة برطينية على ساحل بحر الغرب(١٠) . الا ان اوسع تعريف باوروبا والغرب نجده لدى المسعودي (٣٤٦ هـ) بالرغم من انه لم يؤلف كتابا جغرافيا خالصا ، الا ان كتابيه مروج الذهب،والتنبيه والاشراف ، يرد فيها معلومات واسعة ـ برغم ما فيها من اساطير اقتبسها ممن سبقوه واضاف اليها معلومات شخصية حصل عليها من تجار ورحالة أو من مشاهدات ذاتية من رحلاته التي شملت الهند وسيلان وشواطىء زنجبار وارمينيا وشواطىء بحر قزوين(١١) . ففي كتابه مروج الذهب يتحدث عن الروم (الرومان) ويشير الى الصقالبة واجناسهم المختلفة ويستعرض دياناتهم ويذكر من اجناس الصقالبة اصطرانة ونامجين وسربين ومرادة وصاصين وخشانين وابرانجابين، ويفرق بين هذه الشعوب من حيث حكامها وقوتها(١٢) . وفي كتابه التنبيه والاشراف يذكر عند حديثه عن الاقاليم ، ضمن عملية المفاضلة بين الذات (المسلمة) والآخر (الغرب) الذين يصفهم بأنهم أهل الربع الشمالي ، ويقول : « ... وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم الواغلين في الشمال كالصقالبة والفرنجة ومن جاورهم من الامم، فان سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها فغلب على نواحيهم البرد وتبلدت افهامهم وثقلت السنتهم وابيضت الوانهم ومن كان أوغل في الشمال فالغالب عليهم الغباوة والجفاء والبهائمية وتزايد ذلك في الابعد والابعد الى الشمال »(١٣) ، ويذكر من اجناس الفرنجة الجلالقة والجاسقس والوشكنس والصقالبة والبرغز(١٤)،بالرغم من أن جزءا من هذه المعلومات قد ورد عند من سبقه ، الا انها هنا أكثر تفصيلا مما قد

يعني زيادة المعرفة بهذا الآخر (الغرب) ، على أن لا يعني ذلك انـه كلما ابتعدنـا في التاريخ عن الجغرافيين الاوائل كلما زادت معرفتنا بالآخر . يتضح ذلك مع نهاية القرن الرابع الهجري حيث ظهـر أعظم كتاب في تاريـخ الجغرافيا ـ حتـى ذلك الوقت ـ للمقدسي (٣٩٥ هـ) ، وهو كتاب احسـن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، فهذا المؤلف يعطي اهتماما وتفضيلا للعالم الاسـلامي الذي يقسـمه الى اربعة عشـر اقليما او بلدا يتحدث عنها باسهاب . وبالمقابل نجـد اهمالا للآخر ، أو ما هو خارج دار الاسـلام : « .. لم نتكلف ممالك الكفار لاننا لم ندخلها ولم نر فائدة في ذكرها .. »(١٥) . وبعـد عصر المقدسي نجد معلومات تختص بأوروبا الشمالية عند البيروني (٤٤٠ هـ) الذي حصل على معلوماته من سابقيه ، اضـافة الى معلومات من التجار والرحالة ، ونلمح لديه معلومات عن بحر البلطيق والبحر الابيض الشمالي ، ومعلومات عن سكان شمال وشرق اوروبا وبخاصة عن النورمان والاسكندنافيين(١٦) .

ويمكن أن نجد عملية التفاضل بين الاقاليم عند جغرافيي المغرب الاسلامي كمـا هو الحال عند صاعد بن أحمد الاندلسي قاضي طليطلة (٤٦٢ هـ) ، فهو يرى أن موقع الاوروبيين من الارض جعلهم ضمن الامم التي لا تعتني بالعلوم ويرى « ... انهم اشبه بالبهائم منهم بالناس .. وفشى فيهم العمى والغباوة كالصقالبة والبلغر ومن اتصـل بهم »(١٧) ، ونجد معلومات مشابهة وان كانت أوسع عند أبي عبيد البكري (٤٨٧ هـ)، وهذه المعلومات جاءت على لسان الرحالـة التاجر ابراهيم بن يعقوب الذي زار بلدان اوروبية فوصل الى المانيا وانكلترا والبلغار وبولندا وتشيك وفرنسا وهولندا ، وقدم معلومات عن اللومبارديين وعن التجارة في بـراغ واوغسبورج(١٨) . يتحدث ابو عبيد البكري عن الجلالقـة ويصفهم بالقوة والبأس بين أمم الفرنجة ، ويشـير البرتونيين (شمال غرب فرنسا) ، ويشير الى لغتهم وسوء أخلاقهم . ويشـير بالاجمال الى ان الفرنجة هم الجلالقة والصقالبة والنوكبرد (اللومبارديون) والاشبان والترك والخزر واللان وياجوج وماجوج ، ويقول ان بلاد الفرنجة تقع في وسط الاقليم الخامس حيث الهواء الغليظ والبرودة الشديدة(١٩) .

وتزداد صورة الآخر (الغرب) تفصيلا لدى الادريسي (٥٦٠ هـ)، في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، وجاءت معلوماته عن أوروبـا مشتملة على معلومات مـن سبقه ، اضافة الى معلومات رحالة وتجار عرب ويهود وفرنجة ومصادر اوروبية مثل بطليموس واوروسيوس ، اضافة الى معلومات جمعها من خـلال رحلاته وزياراتـه واتصالاته . فقد زار الاندلس ووصل الى شواطىء بريطانيا وزار اسيا الصغرى قبل ان يؤلف كتابه ، وقبل ان يقبل الدعوة للاقامة في بلاط روجر الثاني ملك صقليـة . ولاول مرة نجد ان اوربا والجزر البريطانية تحتل مثل هذا المكان البارز في مؤلـف جغرافي اسلامي . ويعطينا الادريسي تصورا واضحا عن فرنسا والمانيا واسكتلندا(٢٠) .

ويقدم جغرافي آخر هو ابو حامد الغرناطي (٥٦٥ هـ) معلومات عن الالمان والهنغار ، ولكن معلوماته مشوشة بما يتعلق بروميه وبيزنطة ويزودنا أبو سعيد الغرناطي بمعلومات عن اوروبا الغربية وبالاخص فرنسا وايطاليا ، ومعلوماته عن اوروبا الشرقية اكثر تفصيلا . ونجد شبيها لهذه المعلومات السابقة لدى القزويني (٦٨٢هـ) في كتابيه عجائب المخلوقات واثار البلاد ، فيشير الى موقع اوروبا في الاقاليم الخامس والسادس والسابع ، ويعطي معلومات بما يتعلق بامم الفرنجة وبعض صناعاتها ، ويتحدث عن سكان تلك المناطق ويصفهم بأنهم اهل غدر وقذارة(٢٢) . وما يثير الاهتمام في معلومات القزويني انها في غالبها ليست جديدة ، فقد وردت عند سابقيه ، كما انه لم يتطرق الى محاولة الربط بين الفرنجة والحروب الصليبية برغم معاصرته لهذه الحروب(٢٣) . ونلاحظ ان هذه المعلومات تتكرر عند شمس الدين الانصاري الدمشقي (٧٢٧هـ) في كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، حيث يشير الى بحر الورنك ويتحدث عن جزائر البحر المحيط وما بها من غرائب نجدها مشابهة لما ورد عند ابو حامد الاندلسي(٢٤) ، ونجد الدمشقي يتبنى النظرية التقليدية في تقسيم العالم ، حيث الاقليم الرابع أفضل الاقاليم في حين أن الاقليم الخامس فيه افراط في البرودة مما اثر على أخلاق سكانه من الارمن والروس واللان ، والاقليم السادس فيه ترك وخزر وفرنج وكاشغرد وسكانه كالوحوش ، والاقليم السابع فيه الالمان والصقالبة والهنكر(٢٥) .

ونجد تطورا في المعرفة الجغرافية فيما يتعلق بأوروبا في الفترة التي تلت الحروب الصليبية ويتضح ذلك في مؤلفات أبي الفداء (٧٣٢هـ) ، حيث يورد معلومات في كتابيه المختصر في أخبار البشر وتقويم البلدان عن بريطانيا وعلاقاتها مع فرنسا ويتحدث عن باريس ويشير الى نهر الدانوب والمانيا كما يشير الى ايرلندا(٢٦) ، وربما عكس هذا التوسع في المعلومات التفصيلية عن أوروبا طبيعة التطور في العلاقات وازدياد حركة التبادل بين الشرق والغرب . وهذا ما يلمح في مؤلفات لاحقة مثل كتاب العمري (٧٤٩هـ)، مسالك الابصار في ممالك الامصار ، الذي يورد معلومات عن طبيعة العلاقات داخل القارة الاوروبية ، ويشير الى أهمية فرنسا من بين هذه القوى ، كما يذكر معلومات عن اسبانيا وبروفنس وصقلية والبندقية بيزا وفلورنسا(٢٧) . وتتكرر هذه المعلومات ومعلومات أخرى منقولة عن مؤلفين سابقين عند القلقشندي (٨٢١هـ) في موسوعته صبح الاعشى في صناعة الانشا(٢٨) .

نلاحظ أن تصور الجغرافيين المسلمين للاخر (الغرب) بدأ منذ القرن الثالث الهجري ، وكان يزداد وضوحا حسب تطور العلاقات بين الشرق والغرب . كما يلاحظ ان المعلومات التي وردت عن الغرب كانت مشوشة وغير واضحة في الفترة الاولى ، في حين انها بدت تفصيلية ومحددة بين ما يخص اوروبا الشرقية والغربية في فترات لاحقة،

كما نلمح ايضا أن الاوصاف التي اطلقت على الآخر (الغرب) لم تكن كلها صفات سلبية، ولكنها في الغالب الاعم أقل مرتبة من الصفات الواردة للمسلمين في اقليمهم . على أن المهم أن هذه الصور والافكار عن الغرب لم تكن خيالية بمجملها كما انها لم تكن من ابتداع المسلمين ، بل ان فيها موروث يوناني ، واذا كانت المعلومات الواردة عن الغرب وقارتهم مجزاة ومشتتة ، فذلك لان الاوروبيين لم تظهر لهم خصائص واضحة في ذلك الوقت الذي كتب فيه المسلمون معلوماتهم الجغرافية .

ب ـ صورة الغرب كما رآها بعض الرحالة والرسل المسلمين :

في الوقت الذي كانت فيه الدولة الاسلامية تمثل القوة الاولى في عالم العصور الوسطى ، كانت الوفود تأتي الى عواصمها طلبا للعون أو طمعا في مهادنة او صلح . وفي المقابل كانت الرسل والوفود تذهب من عواصم العالم الاسلامي الى اقصى اطراف الارض ، والى العديد من الامم ، مبشرين بمبادئهم او مقدمين دعمهم او باحثين عن تسهيلات تجارية . وكانت هذه الوفود الرسمية تعود بأوصاف عما شاهدته في طريقها او في بلد المقصد . هذه المعلومات الوصفية كان فيها الكثير من معالم تصور المسلم للآخرين . ومن هذه السفارات تلك البعثة البرية التي أرسلها الخليفة العباسي الواثق بالله (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ) الى بلاد الخزر حيث سد يأجوج ومأجوج . وقد احتفظ لنا الجزري (ت ٧٣٩هـ /١٣٣٨م) في كتابه حوادث الزمان (٢٩) ، بفقرات من الاوصاف والمعلومات عن سكان المناطق التي زارتها البعثة . وعلى الرغم من ان هذه البعثة لا تقدم وصفا خاصا بالغرب ، الا انها تقدم نمطا لنظرة ابن الحضارة الاسلامية لغيره ، هي نظرة وتصور القادم من الاقليم المعتدل والعاصمة المزدهرة والبلد المسلم الى بلد البرد والمدن المتباعدة المتناثرة والسكان الذين يبدون غريبين في عاداتهم وطقوسهم ، بل وحتى في اشكالهم . ونجد ان معالم هذه الصورة تتضح أكثر في رحلة اخرى تمت بعد حوالي قرن(٣٠) من الرحلة الاولى ، وتلك هي رحلة احمد بن فضلان رسول الخليفة العباسي المقتدر (٢٩٥ـ٣٢٠هـ) الى بلاط الترك والخزر والروس والصقالبة والمعلومات التي وردت في رسالة ابن فضلان تبين المستوى الحضاري الذي كان عليه الروس والصقالبة وهو مستوى متدن بمقياس ابن فضلان القادم من عاصمة الخلافة العباسية ، حتى انه ليشير الى ان هذه البعثة كانت لتقديم العون المادي والثقافي التعليمي لاقوام اضعف واقل ثقافة ومعرفة (٣١) ، وفيها اشارات الى أن ابناء الحضارة الاسلامية كانوا روادا في معرفة العالم حتى قبل هذه الرحلة(٣٢)، كما ان الرسالة فيها اشارات واضحة الى اخلاق هذه الشعوب وعاداتها ، فترد اوصاف الصقالبة وطريقة حياتهم وملابسهم ومأكلهم (٣٣) ، ومعلومات عن الروس

وقذارتهم .. وانحلالهم الخلقي . وقد ورد الكثير من معلومات ابن فضلان مصححة عند ياقوت الحموي (٦٢٥ هـ) في كتابه معجم البلدان(٢٤) .

ومع أن ما ورد من وصف الرحلتين السابقتين ينطبق بشكل خاص على ما يعرف اليوم باوروبا الشرقية ، الا اننا نجده ايضا متقاربا مع وصف اخر ، ولكن لمناطق تعتبر ضمن اوروبا الغربية . هذا الوصف الاخر على لسان مسلم من المغرب العربي هو يحيى الغزال (ت ٢٥٠ هـ) وذلك من خلال السفارة ــ الرحلة التي قام بها بأمر من سلطان الاندلس عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ــ٢٣٨ هـ) الى بلاد النورمان في سنة ٢٣١هـ ، ومن الجدير بالذكر ان خلافا قد وقع في وجهة هذه الرحلة(٢٥) ، فالبنداق ــ على سبيل المثال ــ يرجح انها كانت الى بلاد الدنمرك (٢٦) ، وقد وردت معلومات مفصلة عن هذه الرحلة في كتاب المطرب لابن دحية الكلبي (ت ٦٣٣ هـ)(٢٧).

ويقدم لنا الغزال معلومات ذات دلالة كبيرة في كيفية التعامل مع الاوروبيين لا تقل أهمية عن المعلومات التي اوردها عن عاداتهم واخلاقهم ، ويورد قصة توضح ذلك ويقول انهم على ضعفهم يحاولون اذلال السفير (العربي المسلم) وبخاصة حين أعرب (الغزال) عن رفضه السجود للكهم حسب عاداتهم لمنافاة ذلك للعادات الاسلامية، ، ويقول ان الملك حاول التحايل على اصرار السفير واجباره على السجود ، « ... فلما مشى اليه قعد (الملك) لهما في أحسن هيئة وامر بالمدخل الذي يفضي اليه ، فضيقه حتى لا يدخل عليه أحد الا راكعا ، فلما وصل اليه (الغزال) جلس على الارض وقدم رجليه وزحف على إليته زحفة فلما جاوز الباب استوى واقفا ... وعجب (الملك) من جلوسه على الارض وتقديمه رجليه في الدخول وقال : اردنا ان نذله فقابل وجوهنا بنعليه »(٢٨) .

وهذه الصورة التي يقدمها الغزال ، وان كانت تصويرا لذكاء ومكر الاخر الا انها تمثل في الوقت نفسه صورة الذات الاكثر ذكاء ومكرا . كما يورد الغزال معلومات نجدها مطابقة لما سيرد عند غيره من المؤرخين المسلمين في فترات لاحقة ، كما عرف عن الاوروبيين من تحرر واباحية وانعدام للغيرة ، ويشير ايضا الى التمايز الطبقي الذي يظهر من خلال طبيعة العلاقة بين الجنسين(٢٩) .

كما نجد معلومات عن الاوروبيين وانماط حياتهم وطبيعة بلادهم ومعاملاتهم التجارية من خلال المعلومات التي وردت عن رحلة يعقوب بن ابراهيم سنة ٣٥٥ هـ، ويصف بلادهم وبردها وما بها من غابات وعلاقات بدت له غريبة عما هو مألوف في بلده الاندلس(٤٠) .

ج ـ صورة الاخر (الغرب) في بعض كتابات المؤرخين المسلمين :

مما لا شك فيه ان صورة الغرب لدى المؤرخين المسلمين تأثرت بما تكون لدى ابناء الشرق الاسلامي من معلومات عن الغرب ، سواء كانت عن طريق التجارة والرحلات والسفارات ، او بما ورد من معلومات في المصادر الجغرافية الاسلامية ، الا ان المعلومات الاوفى لدى المؤرخين عن الغرب ، والتي يجب ان تؤخذ بمزيد من الحذر قد تشكلت خلال فترة الحروب الصليبية . وتبدو هذه الاهمية من الحقيقة بأن جزءا من هؤلاء المؤرخين كانوا شهود عيان ، عاصروا الاحداث ولمسوا الموقف عن قرب ، كما كان بينهم من شغل مناصب رسمية اتاحت لهم الاطلاع على الوثائق الرسمية والمعاهدات والمفاوضات مع الطرف الآخر (الغرب) المتمثل بالفرنج ، ومنهم من عايش فترة الصدمة التي تمثلت بنجاح الغزو الصليبي في ظل الفرقة الاسلامية . او عايش حركة احياء الجهاد والوحدة الاسلامية التي حققت النصر . وفي ظل ذلك كانت كتابات البعض منهم تصور حالتين : حالة القوة الصليبية ويبرز من خلالها تصوير المقهور المغلوب على امره (المسلم) للقوى الظالم الهمجي (الفرنجي) . واذا نظرنا بعين الاعتبار الى ان بعض المؤرخين المسلمين كون علاقات خاصة مع الفرنج في اوقات السلم والحرب ، كما هو الحال مع اسامة بن منقذ (٥٨٤ هـ) تبدى لنا ان ما ورد من تصوير للغرب (الفرنجة) لدى المؤرخين المسلمين فيه شيء من صدق التجربة ومعرفة الاخر عن طريق المعاشرة ايا كان نوعها ، سلمية ام حربية .

كما اننا نلمح في كتابات المؤرخين وبخاصة لفترة الحروب الصليبية تشابها مع ما ورد عند الجغرافيين ، من حيث التعميم في اطلاق اوصاف الفرنجة على امم وشعوب مختلفة . الا ان هذا التعميم لم يمنع من ورود صور خاصة وصفات خاصة لشعوب معينة من الفرنج (الاوروبيين) كالايطاليين ، الالمان ، الفرنسيين . ويمكننا ان نتتبع ما ورد من صفات واوصاف للغرب باستعراض ما اورده بعض المؤرخين امثال ابن القلانسي (ت ٥٥٥ هـ) ، الذي يورد المعلومات التي كانت تصل للعالم الاسلامي عن تقدم الفرنج وكثرة اعدادهم وما رافق ذلك من خوف وهلع في الجبهة الاسلامية ، ويشير الى نجاحهم وسيطرتهم على العديد من المناطق(٤١) . ويورد خلال مؤلفه ، الذي ينتهي بحوادث سنة ٥٥٥ هـ ، اشارات يمكن من خلالها تلمس معالم صورة ترسم لهذا الغازي (الفرنج) ، فهم يسالمون في حالة الضعف ، ولكنهم اهل غدر ، وخاصة اذا حصلوا على امدادات تعزيزا لموقفهم العسكري ، كالمساعدات التي كانت تصلهم عن طريق المدن الايطالية(٤٢) . ويرسم صورة للفرنج وكأنه يعرض للحالة المفقودة عند المسلمين آنذاك ، تتمثل في ان هؤلاء الفرنج وبعد ان يتعرضوا لهزيمة عسكرية يتدارسون اسباب ذلك ، ويصل بهم الامر الى حد معارضة آراء قادتهم بعد

تحليلها(٤٣) . ويشير الى ان الفرنج يمكن ان يتأثروا بحضارة الشـرق ، ويـرى ان القادمين منهم حديثا اقل تفهما واكثر تعصبا ممن سبقهم وعاش في الشرق وخالط سكانه(٤٤) . ويشير ابن القلانسي تفصيلا الى اسماء شعوب اوروبية فيذكر الجنوية والبنادقة والالمان والفرنسيين(٤٥) . وفي تصوير للذات الاسلامية بشكل غير مباشر يشير الى صورة الاخر (الغرب) المتحد ، مستغربا وقوع الخلاف في صفوفه ، فيورد في حوادث سنة ٥٢٧ هـ « في المحرم وردت الاخبار من ناحية الفرنج بوقوع الخلف بينهم من غير عادة جارية لهم بذلك ونشبت المحاربة بينهم وقبل منهم جماعة »(٤٦) .

ونجد صورة الغرب أكثر تفصيلا عند أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ) الذي ارتبط بعلاقات مع مجموعات منهم ، فهو يصورهم كما صورهم ابن القلانسي أهل غـدر ، لا يلتزمون بالوفاء بالعهود ، وانهم يفسرون نصوص الامـان المعقودة معهم بما يخـدم مصالحهم(٤٧) . ويضيف : ولذلك فهم أصحاب مكيدة وحيل في الحروب(٤٨) ، ويقدر عاليا اهتمامهم بالفروسية والفرسان واشتراط مواصـفات معينة في الفارس (٤٩) ، ويصورهم بمنظار المسلم الفارس ، فيقدر فيهم عنصر الشجاعة ، لكنه يعيب عليهـم امورا اخرى ، « سبحان الخالق الباري اذا خبر الانسان أمور الفرنج سبح الله تعالى وقدسه وراى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير كما في البهائم فضيلة القوة والحمل »(٥٠) ، وهو يرى انهم متخلفون عن الشـرق حضاريا ولذا تراهم لا يألفـون الا لجنسهم ولا يثقون بالغير(٥١) . وبمنظور ابن الشرق المحافظ والمتقدم علميا مقارنـة بالغرب ، يرى انهم متخلفون في المعارف العلميـة كالطب(٥٢) ، كما أن لديهم اباحيـة وانعدام للغيرة(٥٣) . ويرى أن هـؤلاء الفرنجـة قسمين : قسم أثرت فيـه الحضارة الاسلامية ممن أقام فترة طويلة فصلح حاله ، مقارنة بالقسم الآخر القادم من الغرب الهمجي ، الا انه يرى أن ذلك شاذ ولا يقاس عليه ، فالغالب عليهم طبع الهمجية وجفاء الخلـق(٥٤) .

ويصورهم البنداري (ت ٦٤٢هـ) ، بشـكل الفترة التـي كتب فيها والتـي بدات تشهد تغيرا في ميزان القوى لصالح الجبهة الاسلامية في أواخر عهد نـور الدين زنكي (ت ٥٦٩هـ) وبدايات عهد صلاح الدين . فهؤلاء الفرنج برغم تعاظم خطرهم ، الا انهم أقل ذكاء في الحرب ، ويشير بذلك الى أهالي صقلية في غزوهم لدمياط سنة ٥٦٩ هـ (٥٥) . ونجد ايضا ان الصورة التي رسمها سابقوه عن تخلف الغرب وايمانهم بالخرافات تتكرر هنـا مرة أخرى ، حيث يـرى ايمانهم بأقوال المنجمين عن مصائب تصيب العالم نتيجة اجتمـاع الكواكب في برج معين ، فيقول : « ... وكلمـا سمعنا اخبارهم ضحكنا من عقولهم الواهية »(٥٦) .

ونجد ان صورة الغرب (الآخر) لدى المسلم تساير طبيعة العلاقة معه ، بنفس القدر الذي تساير فيه رسم صورة الذات،وهذا ما نلمحه عند أبي شامة (ت٦٦٥هـ)، فهو اذ يكتب عن الدولتين النورية والصلاحية ، أي في فترة رجحان الكفة الاسلامية وبروز القوة القادرة على كبح الفرنج ، يبرز ذلك من خلال تصويره للفرنج وللمسلم ، وهو لا ينسى أن يشير الى أن هذه الصورة والنظرة للفرنج تأتي مختلفة عند طرف آخر ، كبعض وزراء الفاطميين الذين تحالفوا معهم ، فهو يورد رد الوزير الفاطمي(٥٧)، على أحد قادة نور الدين(٥٨) ، الذي حاول ثني الوزير عن التعاون مع الفرنج ، لتكون اجابته « ... ما هؤلاء الفرنج هؤلاء الفرج »(٥٩) ، في حين أن صورتهم لدى عامة المسلمين، انهم قليلوا الوفاء بالعهود، الا أن قادتهم يتمتعون بشجاعة ورأي صائب(٦٠). لكنه يشير الى صور هامة ، وهي أن الفرنج (الغرب) لا يحترمون الا القوي ولا يقرون بالحقوق لاصحابها الا اذا رافق هذا الحق قوة مادية تدعمه فيشير ضمن حوادث سنة ٥٦٧هـ عن الفرنج قائلا : « ... وكانوا في ذلك كما يقال : اليهودي لا يعطي الجزية حتى يلطم ، فكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتي هي أحسن ، فلما نهبت بلادهم وخربت أعادوها »(٦١) ، وضمن تصويره للذات المسلمة وللآخر (الفرنج) ، نظرا لتبدل حال الطرفين من القوة الى الضعف او العكس ، يشير الى شجاعتهم (الفرنج) ، ولكن هذه الشجاعة ووجهت بما هو أقوى منها ، فيقول على لسان نور الدين « قد بليت أنا وحدي بأشجع الناس ، الفرنج ، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم »(٦٢) ، وضمن نفس السياق بتصوير حال العالم الاسلامي الذي أصبح قويا حيث أصبح العدد القليل من المسلمين قادرا على مواجهة عدد اكبر من الفرنج في حين أن المعادلة قبل ذلك كانت معكوسة ، فيقول « ... وصبر المسلمون للقاء الفرنج وكان المسلمون مئتي فارس وصبر الفريقان لا سيما المسلمون لان الف فارس منهم لا تصبر لحملة ثلاثمائة فارس من الفرنج»(٦٣) ، الا أن الصورة التي بقيت ملازمة للفرنج عنده هي عدم الوفاء ، حتى انه ليستغرب ان يكون بينهم من يفي بالعهد كما هو استغرابه أن يوجد من لا يفي بالعهد بين المسلمين(٦٤) .

ونلمح نموذجا آخرا لرسم صورة الغربي لدى المؤرخين المسلمين كتلك التي نلمحها عند سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ) وابن واصل (ت ٦٩٧هـ) حيث يجعلان وصف صورة الغربي من الغرب أنفسهم. فها هو ابن واصل يورد محاورة بين رسول امبراطور المانيا فردريك الثاني (١٢١٥ - ١٢٥٠م) والملك الكامل الايوبي (ت ٦٣٥هـ) حول طبيعة النظام الاسلامي في الحكم والسؤال عن الخليفة وأصله ، فيقول مندوب الملك الكامل « ...هو ابن عم نبينا محمد أخذ الخلافة عن ابيه واخذها ابوه عن ابيه فالخلافة مستمرة في بيت النبوة لا تخرج منهم ، فقال الامبراطور ما احسن هذا لكن هؤلاء القليلو العقول - الفرنج - يأخذون رجلا من المزبلة ليس بينه وبين المسيح نسب

ولا سبب جاهلا مذما ويجعلونه خليفة عليهم، قائمقام المسيح فيهم ، وانتم خليفتكم ابن عم نبيكم فهو أحق الناس بمرتبته »(٦٥) ، وزيادة على ذلك نجد أن الامبراطور فردريك يصف الفرنج بالخنازير . ففي أثناء زيارته للقدس سأل عن سر صنعة شبابيك قبة الصخرة بشكل اسياخ فقال له المسلمون : « حتى لا تدخل العصافير الى القبة ، فابتسم الامبراطور وقال : والآن أحضر الله لكم الخنازير »(٦٦) ، ومن خلال هذين المثالين يبرز لنا وكأنهما محاولة من الجانب الاسلامي للتأكيد على صحة تصويرهم للغرب سابقا والدليل أن هذه الصورة جاءت مطابقة لوصف بعض الغرب لابناء جلدتهم .

ويتابع المؤرخان ايراد امثلة من أقوال الامبراطور في زياراته(٦٧) للقدس كاستغرابه من منع آذان الفجر حسب اوامر الملك الكامل خوفا من انزعاج الامبراطور (الصديق)(٦٨) حتى أنه قال « ... اخطأتم يا قاضي تغيرون أنتم شعائركم وشرعكم ودينكم لأجلي فلو كنتم عندي في بلادي هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم ، الله الله لا تفعلوا أول ما تنقصون عندنا »(٦٩) ، وبغض النظر عن صدور هذه الاقوال أو عدمه عن الامبراطور، فهي تصوير للذات الاسلامية في حالة معينة بلغ بها التهاون والهوان في سبيل ارضاء الآخر (الفرنجي) امرا أثار استغراب واستهجان الفرنجي ، وكأن المؤرخون هنا يحتجون على ما وصلت اليه أمور الدولة حيال من هم في نظرهم خنازير وقليلي عقول ولا تربطهم بالمسيح صلة كالتي تربط المسلمين بالرسول عليه السلام .

ومن الصور التي لازمت ذكر الفرنج حتى في فترات متأخرة هي صورة عدم الصدق والمكر ، مما يولد شعورا بعدم الثقة بهم ويزيد من دائرة الشك حولهم ، فابن الدواداري (ت ٧٣٤هـ) يورد قصة عن أحد رسلهم للدولة الاسلامية ، حيث أن هذا الرسول كان يتكلم عن طريق ترجمان مع الطرف المسلم، ولكنه ولسبب ما تكلم العربية، حتى أن الدواداري يقول : « انه قبل ذلك لا يتكلم الا بترجمان ويدعي انه لا يعرف اللسان العربي »(٧٠) ، وهذا الشك بنوايا الفرنج نجده في فترة متأخرة حتى بعد انتهاء فترة الحروب الصليبية ، ففي سنة ٨٢٤هـ أصدرت الدولة المملوكية مرسوما حددت فيه مدة اقامة جميع طوائف الفرنج في أراضي الدولة باربعة اشهر على اكثر تقدير ، وهي المدة التي كانت في نظر الدولة كافية لانهاء عملياتهم التجارية ، بعد ان ثبت تآمرهم مع القراصنة(٧١) .

كما نجد أيضا صورة الغرب في نظر بعض المؤرخين المسلمين تأخذ منحى آخرا حيث تظهر اشارات لاوصافهم الجسمية ومدى تأثير ذلك على قيمتهم الحقيقية ، فها هو ابن الدواداري يقول عن الامبراطور الالماني : « من صفته انه اشقر امعط اعمش

لو كان عبدا ما ساوى سبعين درهما »(٧٢) ، ثم يقارنهم بغيرهم من العناصر الاسلامية وبخاصة العنصر التركي السائد آنذاك ، فيقول : « الترك أسود والفرنج كلاب »(٧٣). كما تأخذ الصورة بعدا يرتبط بالدين حيث يرد وصفا لملك الاسبتار بانه « جهول عجول ما ادبه الوالدان ولا اختلقه الجديدان . . . مقسم الرأي وكيف لا يكون مقسمه وهو عابد الثلاثة »(٧٤) .

كما نلمح من خلال بعض الكتابات التاريخية الاسلامية اشارات لرسم صورة خاصة بفئات معينة من الفرنج، فالالمان أكثر الفرنج عددا واشدهم باسا(٧٥) ،على عكس الايطاليين الاقل خبرة في الحروب والذين يتميزون بعدم ثبات موقفهم من العالم الاسلامي ، فهم أحيانا من اشد أجناس الفرنج عداوة ، وفي احيان اخرى أكثرهم قربا وتعاونا مع المسلمين(٧٦) ، ويبدو أن ذلك كان متمشيا مع طبيعة حياتهم كتجار فيحددون مواقفهم بناء على مصالحهم الخاصة بغض النظر عن العوامل الاخرى ، كالدين والعرق .

الخاتمة :

لقد تشكلت صورة الآخر (الغرب) في الكتابات الجغرافية والتاريخية الاسلامية من خلال الاتصال الذي تم بين الشرق والغرب سواء أكان في فترة ازدهار الحضارة العربية الاسلامية التي سبقت ازدهار الحضارة الاوروبية الحديثة او في فترة انعكاس ميزان القوى لصالح الغرب بعد أن استطاع في فترة فاصل زمني من السيطرة على أجزاء من الشرق الاسلامي ، مما ولد شعورا من العداء على خلفية أن السيطرة الغربية كانت عنيفة وأعاقت التقدم الاسلامي ، وبذا فان صورة الغرب او الآخر قد جاءت متسقة مع معرفة هذا الآخر ، فمن معرفة جزئية فردية الى معرفة شاملة جماعية ، في فترتي سلم وحرب ، على أن هذه الصورة لم تتح لها مرحلة ناقدة كفيلة بتخليصها مما فيها من شوائب ، ويعود السبب في ذلك الى أن سلوك الآخر (الغرب) تجاه العرب والمسلمين لم يتغير ايجابيا ، مما ولد لدى بعض أبناء الشرق ظاهرة الرفض لكثير مما هو غربي، على افتراض نية التآمر والتي جاءت من خلال التجربة الاسلامية مع الغرب، مما جعل الكثير من الكتابات العربية الاسلامية تركز على ظواهر سلبية عند الآخر ضمن اطار الدعوة لحماية الذات .

وبالاجمال ، فان صورة الاخر (الغرب) لدى ابناء الحضارة الاسلامية لم تكن ايجابية في كل جوانبها ، ولكن ذلك ليس من صنع العربي والمسلم بقدر ما هو نابع من تصرف هذا الاخر ، وبذا لا نجد اختلافا كبيرا بين معالم الصورة التي رسمت

للاخر في كتب التراث الاسلامي عما هو في ذهنية الانسان العربي المسلم المعاصر ، وذلك لان هذا الغرب لم يغير سلوكه وتطرفه تجاه العالم الاسلامي وان غير تكتيكاته .

وعلى الرغم من ان كل طرف (المسلم والغربي) قد احتفظ للاخر بصورة مكتسبة من خبراته السابقة ، وعلى الرغم من مقولة الشاعر الانجليزي رديار كبلنغ (١٨٦٥ — ١٩٣٦) « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا »، الا اننا نرى ان امكانية اللقاء الحضاري واردة ولا بد من تواصلها ، ولكن بمنظور مختلف متخل عن نزعة السيطرة وفرض الذات ، وان الصورة التي رسمت للاخر في التاريخ الاسلامي — وكان الغرب مسؤولا عنها — هي بلا شك قابلة للتغيير اذا ما غير الغرب من سلوكياته وتخلى عن نظرية الاستعلاء الحضاري والعنصرية والابتزاز الاقتصادي ، وحين يؤمن ان الحضارة ليست من صنع جنس بعينه ، بل هي مساهمات انسانية متراكمة .

الهوامش :

(١) المقصود هنا ، البيزنطيون والمدن الايطالية.

(٢) ابن حوقل ، ابو القاسم النصيبي (ت.ق ٤ هـ/١٠ م) ، صورة الارض ، ليدن ١٩٣٨، ص ٢٠٥ ، المقدسي ، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد (ت٣٧٥ هـ/١٩٨٥م)، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن، ١٨٧٧ ، جـ١ ، ص ١٤٨ .

(٣) اندرة ميكل ، « اوروبا في نظر العرب حتى عام الف » في : اضواء عربية على اوروبا في القرون الوسطى ، ترجمة د. عادل العوا ، منشورات عويدات ، بيروت — باريس ، ١٩٨٣ ، ص ٩٠ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٩١ .

(٥) خالد زيادة ، تطور النظرة الاسلامية الى أوروبا ، معهد الانماء العربي ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ٢٨ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٢٨ — ٢٩ .

(٧) ابن خرداذبة ، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ، المسالك والممالك ، نشرة دي جويبه ، ١٨٨٩ ، ص ١٥٥ .

(٨) ابن الفقيه الهمداني ، ابو بكر احمد بن محمد ، مختصر كتاب البلدان ، تحقيق ونشر دي جويبه ، بريل ، ١٨٨٥ ، ص٣—٤.

(٩) حسين محمد فهيم ، ادب الرحلات — سلسلة عالم المعرفة ، ع ١٣٨ ، ١٩٨٩م ، ص ١٩٢— ١٩٣ .

(١٠) ابن رسته ، أحمد بن عمر ، الاعلاق النفيسة نشر دي جويبه ، ١٩٨٢ ، ص ١١٩ — ١٢٠. خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ١٥ .

(١١) ابن سعيد المغربي ، أبو الحسن علي بن موسى ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل العربي ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٣٦ .

(١٢) المسعودي ، علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، نشر شارل بلا ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٦١ ، جـ٢، ص ١٤١ — ١٤٧ .

(١٣) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٣٨—٣٩ . كراتشكوفسكي ، اغناطيوس يوليانوفتش ، تاريخ الادب الجغرافي ، ترجمة صلاح الدين عثمان ، مراجعة ايغيور بلهايف ، مطبعة لجنة

التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٣، جـ١ ، ص ١٨٢ .

(١٤) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٣٩ .

(١٥) المقدسي ، المصدر السابق ، ص١٥ . حسين محمد فهيم ، المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

(١٦) ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق ، ص ٤٢، خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص١٩، سري محمود ، «الفكر الجغرافي عند البيروني» مجلة المؤرخ العربي ، ع. ٣ ، بغداد ١٩٨٦ ص ٢٦٣ — ٢٧١ .

(١٧) صاعد الاندلسي ، القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الاندلسي ، طبقات الامم ، وضع مقدمته السيد محمد بحر العلوم ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٦٧ ص ٦ — ٨ .

(١٨) أندره ميكل ، المصدر السابق ، ص ٨٨ — ١٠٤ . خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ١٩ — ٢٠ .

(١٩) أبو عبيد البكري ، جغرافية الاندلس وأوروبا — من كتاب المسالك والممالك — تحقيق عبد الرحمن الحجي ، دار الارشاد ، بيروت ١٩٨٦ ، ص ٧٤ — ٧٥ ، ٨٢ ، ١٣٧ .

(٢٠) خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ٢٠ ، كراتشكوفسكي ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٧٩—٢٨٥ ، ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق ، ص ٤٤ — ٤٥ .

(٢١) خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ٢٠ ، كراتشكوفسكي ، المصدر السابق ، جـ١ ص ٣٠٠ .

(٢٢) ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق ، ص ٤٨ — ٥٠ .

(٢٣) خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٢٤) الجزري ، شمس الدين محمد بن ابراهيم ، حوادث الزمان ، السنوات ٦٩٤ — ٦٩٦ هـ، تحقيق نعمان جبران ، فرايبورغ / المانيا، ١٩٨٨ ، ص ٥٢ — ٥٣ .

(٢٥) شيخ الربوة ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الانصاري الدمشقي ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، طبعة لايبتزغ ، ١٩٢٣ ، ص ٢٧٤ — ٢٧٥ . خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٢٦) ابو الفداء المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الافضل ، تقويم البلدان ، حققه م. رينود وماك كوكين دي سلان ، باريس ، ١٨٤٠، ص ١٨٨ ، ٢٠١ ، ٢٦٩ .

(٢٧) كراتشكوفسكي ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص٤١٢ .

(٢٨) خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ٢٤ — ٢٥ .

(٢٩) الجزري ، شمس الدين محمد ، حوادث الزمان ، نسخة مصورة عن مخطوطة مكتبة غوتا الالمانية ، رقم ١٥٥٩ — ١٥٦٠

(٣٠) بدات رحلة احمد بن فضلان انطلاقا من بغداد في ١١ صفر ٣٠٩ هـ ، ووصل الى ملك الصقالبة في ١٢ محرم ٣١٠ هـ .

(٣١) ابن فضلان ، أحمد ، رسالة ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهان ، مديرية احياء التراث العربي ، دمشق ، ط٢ ، ١٩٧٧ ، ص ٩٨، ١٤٨ .

(٣٢) نفس المصدر ، ص ١٥٣ .

(٣٣) نفس المصدر ، ص ١٥٨ — ١٦٠ .

(٣٤) نفس المصدر ، ص ٥٨ — ٦٠ ، ١٧٧ —١٧٨.

(٣٥) حول ما أثير من تساؤلات حول الرحلة وزمانها ووجهتها انظر ، محمد صالح البنداق يحيى ابن الحكم الغزال ، تقديم احسان عباس ، منشورات دار الافاق الجديدة ، بيروت ، ط١ ١٩٧٩ ، ص ٩٣ — ١٠٠ .

(٣٦) نفس المصدر ، ص ١٦١ .

(٣٧) نفس المصدر ، ص ١٣٠ .

(٣٨) نفس المصدر ، ص ١٣٠ .

(٣٩) نفس المصدر ، ص ١٣٢ .

(٤٠) اندره ميكل ، المصدر السابق ، ص ٩٦ ـ ٩٩ ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(٤١) ابن القلانسي ، ابو يعلى حمزة بن اسد بن علي بن محمد التميمي ، تاريخ دمشق ، تحقيق سهيل زكار ، دار حسان للطباعة والنشر ، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٣ ، ص ٢١٨ وما بعدها .

(٤٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٤٦٣ .

(٤٣) نفس المصدر ، ص ٣٣٣ .

(٤٤) نفس المصدر ، ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ .

(٤٥) نفس المصدر ، ص ٢٣٢ ، ٢٦٠ ، ٣٣٣ ، ٤٦٣ .

(٤٦) نفس المصدر ، ص ٣٧٤ .

(٤٧) ابن منقذ ، مؤيد الدولة ابو مظفر اسامة بن مرشد الكناني الشيزري ، كتاب الاعتبار ، تحرير فيليب حتي ، مطبعة جامعة برنستون ، الولايات المتحدة ، ١٩٣٠ ، اعيد طبعه في الدار المتحدة للنشر والطباعة والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٢٤ .

(٤٨) نفس المصدر ، ص ٧٣ .

(٤٩) نفس المصدر ، ص ٨٣ ـ ٨٤ .

(٥٠) نفس المصدر ، ص ١٦٩ .

(٥١) نفس المصدر ، ص ١٦٦ .

(٥٢) نفس المصدر ، ص ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٨ .

(٥٣) نفس المصدر ، ١٧٤ .

(٥٤) نفس المصدر ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٠ .

(٥٥) البنداري ، قوام الدين الفتح بن علي ، سنا البرق الشامي ، تحقيق فتحية النبراوي ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ١٩٧٩ ، ص ٧٧ـ ٢٨٣ .

(٥٦) نفس المصدر ، ص ٢٨٣ .

(٥٧) الوزير الفاطمي هو ابو شجاع شاور بن بحيسر بن نزار بن عشائر ، تولى وزارة مصر سنة ٥٥٨هـ ، ذهب للشام لطلب النجدة من نور الدين زنكي ، قتل سنة ٥٦٤ هـ

(٥٨) القائد هو اسد الدين شيركوة الذي توجه الى مصر بأمر من نور الدين زنكي في سنوات ٥٥٩هـ ، ٥٦٢ هـ ، ٥٦٤ هـ ، تولى الوزارة في مصر سنة ٥٦٤ هـ وتوفي في السنة نفسها.

(٥٩) ابو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل القدسي ، الروضتين في اخبار الدولتين ، جـ١ ، ق١ ، تحقيق محمد حلمي محمد احمد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، جـ١ ، ق٢ ، تحقيق محمد حلمي محمد احمد ومراجعة محمد مصطفى زيادة ، وزارة الثقافية والارشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، انظر ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٤٢٥ .

(٦٠) نفس المصدر ، جـ١ ، ق١ ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .

(٦١) نفس المصدر ، جـ١ ق٢ ، ص ٥١٧ .

(٦٢) نفس المصدر ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٤٧٦ .

(٦٣) نفس المصدر ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٤٧١ .

(٦٤) نفس المصدر ، جـ١ ، ق٢ ، ص٤١٦ .

(٦٥) ابن واصل ، جمال الدين الدين محمد بن سالم ، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، جـ٤ تحقيق حسنين ربيع ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٢٥١ .

(٦٦) سبط بن الجوزي ، شمس الدين بن المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي ، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، جـ٨ ، ق٢ ، الهند ، ١٩٥١ ، ٦٥٦. ابن ايبك الدواداري ، ابو بكر عبد الله ، كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ ٧ ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

(٦٧) ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٢٤٥ .

ابن الجوزي ، المصدر السابق ، جـ ٨ ، ق٢ ، ص ٦٥٦-٦٥٧ .

نفس المصدر ، جـ٨ ، ق٢ ، ص٦٥٧ .

ابن ايبك الدواداري ، كنز الدرر ، جـ٧، ص ١١٩ .

ابن تغري بردي ، ابو المحاسن جمال الدين يوسف ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جـ٦ ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٥٠٨ .

ابن ايبك الدواداري ، كنز الدرر ، جـ٧، ص ٢٩٤ ، ٢٧٧، ١٤٣ .

نفس المصدر ، جـ٧ ، ص ٢٧٧ .

نفس المصدر ، جـ٧ ، ص ١٤٣ .

ابن الاثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن عبد الواحد الشيباني، الكامل في التاريخ ، ١٢ جزء ، دار صادر - دار بيروت ١٩٦٦، ، جـ٩ ، ص ٢٠٧. ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ، ٨ اجزاء ، دار الفكر - بيروت ، ١٩٨١ ، جـ٥، ص ٣٧٣ .

(٧٦) القلقشندي ، أبو العباس أحمد ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ١٥ جزء ،نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٩٦٣ جـ١٣ ، ص ٨١ . ابو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان المقدسي، الروضتين في اخبار الدولتين جزءان ، دار الجيل ، اوفست ، عن مطبعة وادي النيل ، ١٩٥٦ - ١٩٦٢ ، جـ١ ، ق٢ ، ص٦٢١.

القاهرة كما رآها الرحالة الغربيون في العصر الوسيط (١)

بقلم : ب. هـ. دوب P. H. Dopp
الاستاذ المساعد في كلية الاداب بجامعة فؤاد الاول
(جامعة القاهرة حاليا)
اختارها وترجمها : عبد الرحمن حميدة
عن مجلة الجمعية الملكية الجغرافيةالمصرية: ٢٥(١٩٥٢)

على قدر ما تكون النصوص نادرة ، يكون الامل في العثور على فائدة من أوائل النصوص التي تصف القاهرة ، التي تركها لنا الرحالة والحجاج من العصرالوسيط. غير أن خيبة الامل سرعان ما تقفز للعيان : ذلك ان طلائع زوار القاهرة لم يجيدوا الكلام عنها ، ولم يعرفوا الرؤية الحسنة ولا الوحدة . فقد اكتفوا ، من خلال قلم أرعن ، او ساذج ، بأن‌دونوا انطباعاتهم عن اتساع المدينة ، وعن عدد سكانها الذين لا يحيط بهم احصاء ، وعن غنى تجارتها ، وعن بهجة البساتين التي تحيط بها . أما فيما يتعلق بترتيب الامكنة حسب مواقعها ، وعن مشهد الاوابد ، فلا شيء الا النزر اليسير . وفضلا عن ذلك قدموا نبذة عن نهر النيل « القادم من الجنة الارضية »، وعن السور الذي يطوق المدينة ،وعن القلعة ، و« قصر السلطان ». هـذا كما أن الحجاج لم يتوانوا عن تعداد كنائس بابيلون ، أي القاهرة القديمة(٢)، التي زارها . غير أن وصفهم يقتصر على التنويه بجمال كنائسها وجلالها ، وانها تحتفظ بجسد ذلك القديس أو ذاك . وفي خلال كل القرن الثالث عشر لم يضف شيء يذكر الى تلك الملاحظات التي نراها متكررة من رواية لاخرى . وعلينا الانتظار حتى النصف الثاني من القرن الرابع عشر كي نعثر على‌تفا صيل مرئية حقا وأوصاف ذات فائدة حقيقية .

ومنذ القرن ١١ ، أشار الشعراء الجوالة الى القاهرة باسم بابيلون Babilone اقتداء بالاغريق ، مع التباس ظاهر مع « بابيلون » Babylone الاشورية (كذا) . وقد انتقلت هذه التسمية للاستعمال العام في أوربا ، ونصادفها حتى في المعاهدات التجارية المدبجة باللغة اللاتينية . وعلى كل فان المؤلفين الاكثر اطلاعا ، والذين جاؤا من بعد غليوم الصوري(٣) ، انتبهوا الى ضرورة التمييز بين بابيلون التوراتية وبين عاصمة مصر، التي ميزوا فيها بين مدينتين هما بابيلون، التي هي الجزء الذي يحمل اليوم اسم مصر العتيقة(٤) وبين القاهرة الحقيقية (مصر القاهرة) التي اسسها الفاطميون في القرن العاشر الميلادي .

ومن المعروف أن مدينه بابليون القديمة نمت في العصور القديمة بجوار الحصن الروماني الذي دعي « قصر الشام » وفي زمن الفتح العربي توسعت بمعسكر الفسطاط الذي أقامه الفاتح عمرو بن العاص شمال شرق الحصن ، وهكذا توسع المعسكر بعد قليل تحت اسم مصر أو مصر الفسطاط . وبعد قليل نمت العاصمة القديمة أيضا في اتجاه الشمال اثر ظهور « حي العسكر » على أيدي العباسيين في القرن الثامن ، وحي القطائع في القرن التاسع بجهود الفاطميين . وفي ٩٦٩م تأسست بأمر من قبل أول حاكم فاطمي « المعز » نواة القاهرة الحديثة ، الى الشمال ايضا ، وتوسعت وتحصنت على يد صلاح الدين الايوبي الذي شيد القلعة في ١١٧٩ .

وقد اطلق العرب على هذه المدينة الجديدة اسم مصر القاهرة ، على اسم الكوكب المريخ (القاهر) الذي كان في حالة اقتران موائمة في وقت بناء الاسوار . وذلك هو اول ظهور لاسم القاهرة . غير ان الاقباط ، ومعهم الغربيون ، حافظوا على تسمية كل هذه المدن المتقاربة اسم بابليون .

غير ان القاهرة ، والقاهرة القديمة اللتين كانتا متلامستين تم فصلهما بشكل صريح في ١١٦٨ عندما قام آخر خليفة فاطمي ، وهو العاضد ، بحرق الحي المتوسط ، اي الفسطاط ، الذي تجاوز أسواره ، واصبح من العسير الدفاع عنه ، معرضا للسقوط بسهولة كبيرة في ايدي الغزاة . ولم يحدث أن أعيد بناء الفسطاط ، بيد انه يمكن التعرف على موقعه بمساحة كبيرة من الانقاض التي كانت لا تزال ، في منتصف القرن العشرين ، تفصل القاهرة الحديثة عن القاهرة القديمة .

منذ ذلك الحين فقدت القاهرة القديمة من أهميتها لحساب المدينة الفاطمية الجديدة ، التي غدت مركز الحياة الاقتصادية والسياسية . غير أن الحجاج الاجانب لم يترددوا في زيارة بابليون الرومانية لاهمية الكنائس والتي تحويها ، ولانها كانت، كما هي الحال اليوم ، مأهولة حصرا تقريبا بالمسيحيين واليهود .

هذا وان أوائل أوصاف القاهرة القديمة تعود على وجه الدقة لرحالة يهودي هو بنيامين الطليطلي . وهو رحالة شهير من اقليم نافار في شمالي اسبانيا ، ارتاد بين عام ١١٦٥ و ١١٧٣ كل البلاد المتمدنة في عصره ، وكتب باللغة العبرية « المسالك » الذي ترجم ونشر عدة مرات. ولكنه لما كان مهتما ، حصرا تقريبا ، بوضع أبناء ملته في العالم، فانه لم يترك لنا أشياء تستحق الذكر عن القاهرة العربية ، التي دعاها « زوان Zoan » ، بل تكلم ، عن القاهرة القديمة التي كناها باسم عبري هو « مصرائيم » ، ويقول « ان مصرائيم(٥) مدينة كبيرة واقعة على ضفة النيل ، وهو نهر فيزون(٦) ،

وعدد اليهود فيها سبعة آلاف(٧) ولهم كنيسان كبيران ، احدهما يخص ابناء بلاد اسرائيل(٨) ، والاخر يخص اهل بابليون ويدعى كنيس الشاميين(٩) ، والثاني كنيس العراقيين(١٠) وعلى راسهم نيتانل Nethenel وهو امير الامراء ورئيس السانهيدرين Sanhédrin وكل الطوائف المصرية . فهو يعين الحاخامين والموظفين(١١) في عداد حاشية السلطان الكبير ، الذي يقع قصره في مدينة العرب الملكية، اي زوان المدينة(١٢). اما رعايا السلطان فيطلق عليهم اسم العلويين(١٣) ، الذين نبذوا سلطة أمير المؤمنين المقيم في بغداد . وهذان الفريقان في حالة عداء دائم ، لان الاول أسس في بلاد « زوان » عرشا منافسا لعرش بغداد(١٤) .

ويخرج الملك مرتين في العام : بمناسبة العيد الكبير(١٥) ، وعلى اثر فيضان النيل . ويحيط بمدينة زوان أسوار ولكن دون مصرائيم التي يحدها النيل من احد جوانبها . وهي مدينة كبيرة ذات أسواق وفنادق بأعداد كبيرة ، وسكانها من اليهود اغنياء جدا .

ولا ينزل المطر في مصر ابدا ، كما ان الثلج والجليد غير معروفين ، والمناخ شديد الحرارة . ويزيد ماء النيل مرة في العام خلال شهر أيلول ، وعندئذ يغطي كل البلاد بمدة خمسة عشر يوما ، وبركود الماء فوق الاراضي خلال شهري ايلول وتشرين الاول فانه يعمل على اخصابها . وهناك عمود من المرمر علوه اثنا عشر ذراعا ، مقام فوق الماء بحذق شديد على حافة جزيرة نيلية ، يدل السكان على الارتفاع الذي بلغه الفيضان(١٦). وعندما يغمر الماء العمود المذكور ، يصبح من المعلوم ان المياه أصبحت تغطي كل البلاد على مسافة خمسة عشر يوما ، أي على عرضها(١٧) أما اذا لم يبلغ الماء منتصف العمود، فمعنى ذلك أنه لا يغطي سوى نصف البلاد . وهناك مأمور يقوم في كل يوم بقياس ارتفاع الفيضان على العمود ويذيع الخبر في كل بلاد زوان وفي مدينة مصرائيم .

وهنا تضيف ترجمة برجرون النص التالي : « ان كل الذين يملكون حقولا في هذه البلاد يحفرون خنادق كبيرة تظل مليئة بالاسماك ، بعد أن ينحسر ماء النيل ، يتغذى عليها السكان ، أو يملحونها لبيعها من التجار الذين يحملونها لامكنة أخرى . وتكون أسماك هذا النهر على درجة كبيرة من السمنة بحيث يصنعون منها زيتا ضروريا لايقاد المصابيح . وكل من يأكل من هذه الاسماك أو يشرب من ماء النيل لا يشعر ابدا بألم ، مهما افرط في تناولهما ، لان هذه المياه لا تستخدم فقط للشرب بل وايضا في الطب للحصول على بدانة مفرطة جدا(١٨) .

« وتبتعد مصرائيم الجديدة بمسافة فرسخين(١٩) عن مصرائيم القديمة التي لم تعد اكثر من أرض قفراء ، غير انه لا تزال مائلة عدة بقايا من الاسوار القديمة ، وكذلك

من البيوت مع الكثير من الاوابد . والانبار التي بناها يوسف والتي لا تزال قائمة(٢٠) وفي خارج أسوار المدينة يقع كنيس يحمل اسم نبينا الطوباوي موسى (عليه السلام) ، والذي لا يزال يتعهد خدمته الى اليوم احد كهول تلامذة الحكمة ، الذي يقوم بدور كاهن ، ويدعى آلزيخ آبونستر ، ومعناه الاب الحارس القديم ، ويبلغ قطر هذه المدينة المتهدمة ثلاثة أميال ، وهي على ثمانية فراسخ من منطقة غوسن Gossen » .

بيد ان الاهتمام بما تحويه مصر انتعش طبعا في أعقاب أوائل التدخلات الفرنجية في البلاد . فعندما التمس الوزير «شاور» ، والذي كان يحكم بالفعل نائبا عن الخليفة، في القاهرة ، التحالف مع آموري الاول Amaury ، ملك بيت المقدس ضد الاتراك الذين اجتاحوا مصر ، أرسل الملك هذا سفارة جرى لها استقبال في القاهرة ، وتقدمها الوزير بنفسه لتحظى باستقبال الخليفة الفاطمي(٢١) .

غير ان المقابلة الاكثر غرابة هي التي يرويها غليوم الصوري في كتابه(٢٢) ، ولما كان غير شاهد عليها فهو ينقل عن روايات سفراء فرنجة مثل هوغ من قيصرية ، والهيكلي جوفروا فولشر ، اللذين تكلما عن عجائب قصور الخلفاء ، التي كانت عبارة عن أسوار محصنة ،يحرسها احباش ، وساحات فسيحة مبلطة بالمرمر المتعدد الالوان. وحدائق فتانة ، ونافورات متدفقة ، وأحواض ظليلة ، وحدائق حيوانات غريبة ، وقاعات مفروشة بزرابي من حرير موشاة بالذهب والياقوت والزمرد ...... » .

هذا كما يقدم غليوم الصوري صورة شاعرية أكثر منها ، موثقة ودقيقة، منقولة، دوما ، عن انطباعات قادة صليبيين، وهذا عندما قامت مفرزة أفرنجية باحتلال القاهرة بقيادة مشتركة تتألف من هوغ ديبلان H. de Ibelin والامير الكامل ، ابن شاور ، في حين كانت القوات التركية الغازية ، التي كان بين صفوفها الشاب صلاح الدين الايوبي ، تعسكر في الجيزة ، على الضفة الغربية للنيل .

جاك دوفيتري (١٢١٨ م) J. de VITRY

وقد قام جاك دوفيتري ، بدوره ، وهو مطران عكا ايام الصليبيين ، وهو الذي شهد حصار دمياط مع جيش الامير الفرنجي جان دوبريين J. de Brienne بتدوين هذه المعلومات الهزيلة ، نوعا ما ، في المجلد الثالث من كتابه « التاريخ المشرقي »(٢٣) .

« على مسافة ثلاثة ايام من دمياط تقع مدينة كبيرة على حافة النيل تدعى بابيلون الجديدة . ويجب ان ننوه انه كانت في الماضي مدينة نبيلة وقوية جدا تدعى

القاهرة ؛ ولا يزال فيها المقر الملكي وقصور الامراء . وتقع على مسافة ثلث ميل من تلك المدينة . وبناء على أوامر السلطان أحيطت هذه المدينة وبابيلون الجديدة بسور واحد (٢٤) وبذلك تشكلت مدينة واحدة . وهنا يسكن مسلمون ويهود ونصارى ويتبع كل من هذه الاقوام شريعته الخاصة(٢٥) وتوجد حول هذه المدينة مزارع شجرية بهيجة والعديد من البساتين » .

وحوالي العام ١٣٠٠ اعتزل الامير الارمني هايتون في دير بواتييه ، في فرنسا، واملى كتابه « تاريخ الشرق أو تاريخ بلاد التتر »(٢٦) ، ويخصص فصلا من هذا الكتاب لحالة ووضع المملكة المصرية ، ولكن لا يذكر شيئا يثير الاهتمام عن القاهرة: « ان أكبر مدينة في المملكة المصرية تدعى القاهرة ، وهي كبيرة جدا وبالغة الثراء . وعلى مقربة من هذه المدينة تقعمدينةاخرى ، موغلة فيالقدم تدعى مصر . وتقع هاتان المدينتان على حافة نهر يروي مصر يسمى النيل والذي يدعى في الكتاب المقدس جيئون Géon وهذا النهر هو أكثر نهر في الدنيا فائدة ، فهو يروي كل الاراضي حيثما يمر، ويجعلها خصيبة ونضرة . وهذا النهر شديد العمق ، وقادر على أن يحمل كل أنواع السفن . وتكثر فيه كل أنواع الاسماك ، وهو جزيل الفوائد لولا انه تعيش فيه حيوانات تشبه التنين dragon تفترس الناس والخيل وكل الحيوانات الاخرى ، عندما تقع في متناولها ، وحتى على الشط . وتدعى هذه الحيوانات عادة التمساح Coquillaires ويفيض هذا النهر مرة في العام ، وتبدأ زيادته في منتصف اب ، ثم يأخذ بالتناقص ، وعندها يعمد الناس الى دفع مياهه نحو قنوات وسواق مقامة لهذا الغرض في الحقول ، كي تروى وتدمل(٢٧) . ويمكث الماء فوق الارض نحوا من أربعين يوما ، ثم تبدأ الارض بالجفاف ،ويلقى بعد ذلك البذار في هذه الارض(٢٨) وينمو بشكل مدهش يفضل ارتوائها بهذه المياه ، ذلك لانه لاتسقط الامطار ابدا في هذا البلد المذكور ، فلا نجد اختلافا ابدا بين الشتاء والصيف .

وقد وضع الاهالي عمودا من الرخام في وسط النهر وأمام مدينة مصر ، وقد صنعوا فوق هذا العمود بعض الاشارات : وعندما يكون النهر في فيضانه ، ينظرون الى هذه العلامات ، وعندما يصعد الماء حتى اعلا هذه العلامات ، فانهم يستبشرون بمحصول طيب ، وعندما لا يكون هناك ، خلاف ذلك ، فيضان قوي ، فهم يستخلصون عكس ذلك ، ويحددون اسعار البضائع استنادا الى هذه التوقعات وماء هذا النهر صحي جدا من أجل الشرب .

وتحوي مملكة مصر مينائين هما الاسكندرية ودمياط . .

« ولا يوجد في كل مصر مدينة ولا قلعة ولا قصر مزود بتحصينات او محاط بأسوار ، باستثناء مدينة الاسكندرية وقصر القاهرة . . وذلك مكان سكن السلطان » .

الاخ يعقوب الفيروني (١٣٣٥) Frére J. de Vérone

وهو حاج يدعو نفسه الاخ يعقوب الفيروني ، وربما كان هو الاخ الذي كان رئيس الدير الاوغسطيني المنذور للقديسة أوفيميا ، في فيرونا في ١٣٢٩ والذي قام بزيارة الاراضي المقدسة في سن الخامسة والعشرين . ولما غادر فيرونا في ١٧ أيار بصحبة عدد قليل من الاصحاب الذين اغفل ذكر اسمائهم ، ركب البحر في ٢٩ من الشهر المذكور من البندقية ، وبعد توقف في كريت وفي قبرص نزل في حيفا ، ومنها توجه الى بيت المقدس ، وبعده قصد سيناء مرورا بغزة . وعلى اثر عودته من زيارة دير القديسة كاترينا اجتاز البحر الاحمر ليبلغ القاهرة بالطريق الصحراوي في ٣٠ ايلول ١٣٣٥ . ولكن لم يمكث فيها أكثر من يومين لانه يروى لنا أن هناك حملة صليبية وشيكة عكرت مزاج السكان ضد الاجانب . فانكفأ يعقوب (جاك) الفيروني على عجل، وتحاشى الاسكندرية ، ليبحر من دمياط قاصدا يافا وفلسطين . وقال انه رأى في دمياط ، وبأمر من السلطان حجارة ضخمة ترمى في الميناء لجعله غير صالح لنزول الصليبيين . وشاهد الامر ذاته يحدث في حيفا وصور وعكا وهي الامكنة التي سافر اليها قبل ان يركب متن البحر قاصدا ايطاليا من بيروت .

ومما لفت نظر هذا الحاج ، على الخصوص ، في القاهرة هي رؤية فرق المماليك العسكرية ، وازدهار التجارة بشكل مذهل ، واليكم فقرات وصفه والتي نترجمها من النص اللاتيني الذي نشره رينهولد رويخرنشيت(٢٩) :

« بعد ان مضيت ستة ايام في اجتياز الصحراء ، وصلت في اليوم السابع الى مدينة القاهرة الجبارة الواقعة على النيل ، وهو نهر كبير ومدهش والذي هو أحد انهار الجنة الاربعة . ويدعى نهر جيون في سفر التكوين ، ولكن المسلمين يطلقون عليه في لسانهم اسم كاليسمو(٣٠) . وفي اخر يوم من ايلول ، وهو عيد القديس جيروم ، وصلت الى القاهرة ، المدينة التي تحوي على الكثير من العجائب التي تستحق الذكر، لانها زعيمة كل مصر وفلسطين والارض المقدسة ، وكل بلاد الاشور حتى ارمينية. حتى أن ملك ارمينية ، وهو نصراني ، يدفع للقاهرة في كل السنين جزية تبلغ مئتي الف فلورين ومائة الف حذوة حديد لبيطرة الخيول . وللسلطان مسكنه فيها، والذي يقع في المدينة ؛ وهو قصر رائع منيع ، مع أسوار وابراج ، وعمارات ضخمة . وفي هذا القصر حرس عديد مؤلف من مسلمين ، وأتراك ، وآخرين ، ومن نصارى (مرتدين) ، وكذلك العديد من الرقيق النصارى الوافدين من سائر انحاء النصرانية وقد فرحوا كثيرا برؤيتي . وهم يقيمون في قصر السلطان الذي يوجد فيه الطعام والكساء . هم عمال يبنون له صروحه .

وقد رايت في القاهرة ، أمام باب القصر ، جند السلطان ، حيث يجتمعون هناك في كل صباح جيشا لجبا من ٢٠٠٠٠ فارس حسب تقدير تجارنا النصارى ،مسلحين بالقسي ، يمتطون خيولا صغيرة الحجم تماثل المهور او أفراس الامراء الصغار . وكانت وقايتهم رديئة ، فليس على رؤوسهم سوى خوذة صغيرة من حديد ولا يكتسي بالدروع سوى عدد صغير منهم ، في حين كانت دروع الاخرين من الجلد ، كما لم يكن اي واحد منهم مزودا بما يقي ذراعه الذي يمسك بالقوس ، ولا بما يحمي افخاذهم وسيقانهم .

ولهم ركابات قصيرة ، وعندما يرمون بأقواسهم ، يقفون على ركابهم كي يطلقوا سهامهم . ورأيت خيل السلطان مغطاة بسروج مطرزة بالذهب والحرير مما يؤلف مشهدا بديعا ، طبعا ، ولكنها ذات حجوم صغيرة .

هذا كما رايت في مدينة القاهرة هذه : خمسة فيلة قرب قصر السلطان ، وهي حيوانات ذات قوام مدهش ، وللواحد منها زوج من الانياب الطويلة ، يبلغ طولها ذراعين تقريبا ، وآذان طويلة جدا . ويبلغ علو جسمها الضخم ثمانية اقدام ، مع سيقان ضخمة جدا ولها في أعلى الفم خرطوم طويل ، بحدود ذراعين ، وتضرب به بقوة .

وقد بلغ مسامعي من نصارى يسكنون البلاد أنه في القاهرة أكثر من ٢٠٠٠٠ رجل قادرين على حمل السلاح . وتقع المدينة على ضفة النيل الذي يدعى كاليسفو. وتمتد طولا على أكثر من خمسة أميال بعرض يتجاوز الميلين في سهل رملي . وتحوي العديد من المنازل العالية ، مشيدة باللبن مبيضة بالكلس من الخارج(٢١) ، وتحوي مساجد جميلة يؤدي المسلمون فيها صلواتهم .

ويوجد في مدينة القاهرة ذاتها وفي بابليون فرافات كبيرة حيث تقع اضرحة المسلمين ، وحيث شيدت قبور بديعة من الرخام ومن الحجر السماقي ومن حجر الهيصم ومن حجارة ثمينة أخرى ، مبنية ومذهبة بشكل رائع . ولم يسبق لي أن رأيت مثيلا لها في كل بلاد النصرانية ، وتتجه جميعا نحو الجنوب ، مثلما يوجه النصارى كنائسهم نحو الشرق .

وعلى مقربة من القاهرة ، على مسافة ميل واحد وبمحاذاة النيل والخليج ، تقع مدينة بابليون الكبيرة والمدهشة . وتكاد تكون ملاصقة للقاهرة ، ويخضع سكانها، شأن سكان القاهرة ، للسلطان الذي يسكن في هذه المدينة المذكورة مع قواته وضباطه الذين يحملون لقب « الامراء» . والله يعلم أن هناك الكثير مما يمكن قوله عن هاتين

المدينتين ، اللتين تقعان في موقع ممتاز على نهر جيئون Géon أو النيل ، الذي هو احد انهار الجنة الاربعة . والهواء فيها عذب وخال من اي شكل من اشكال الوخامة، والسكان اغنياء جدا بفضل تجارة الهند لان السفن تجلب عن طريق البحر الاحمر التوابل بمقادير لا تحصى ، وحجارة كريمة ، من مسافة تبلغ اربعة ايام عن القاهرة . وعندئذ تنقل قوافل الجمال التي لا يحصيها العد هذه البضائع حتى بابليون والقاهرة، وكذلك حتى الاسكندرية ، والتي هي بدورها مدينة هامة وكبيرة ، على البحر المتوسط ، واقعة بين فلسطين وسوريا شرقا ، وبين ممالك بلاد البربر Barbarie والمغرب وتونس من الغرب . وعن طريق البحر المتوسط الذي يحاذيها من الشمال تجلب اليها السفن من سائر بلاد العالم كل ما يمكن او يكون نافعا للانسان وعلى مسافة مائتي ميل الى الجنوب منها تقع القاهرة التي يهبط منها فرع من النيل حتى الاسكندرية مما يسمح بنقل كل الاشياء من بلد لاخر ، وهكذا تكون القاهرة وبابليون مزودتين بكل شيء . .

وفي القاهرة وبابليون العديد من النصارى ، يدعون نصارى الزنار لانهم يتمنطقون بالزنار ، على خلاف المسلمين الذين لا يضعونه على خصورهم . مثلما يضع النصارى على رؤوسهم فعلا ، قبعات سوداء ، في حين تكون بيضاء اللون لدى المسلمين . وقد سمعت من يقول ان عدد النصارى كان ٣٠٠٠٠ في كل مصر(٢٢) ،وان كل واحد يدفع للسلطان جزية سنوية تبلغ دينارا ذهبيا ، مما يعادل فلورين ونصف. وفي مصر عدة كنائس وعدة اديرة للرهبان الروم والارمن . ورايت في القاهرة عدة كنائس ، وقد وددت البقاء في مصر لبضعة ايام لولا الاشاعات عن الحرب ـ اذ انتشرت بين العوام اشاعة بأن حملة صليبية وشيكة الوقوع ـ مما جعل نصارى ايطاليا من الناطقين باللاتينية ، مشبوهين على انهم جواسيس . وقد انتابني الهلع فلم ابق بالقاهرة اكثر من يومين . وبعون الله والارقاء النصارى الذين كانوا هنا فقد استطعت العثور على مركب من النوع الذي يسمونه « الجرمة » الذي أوصلني الى دمياط . وكان علي ترك الاسكندرية على يسار والعزوف عن زيارتها ، للسبب الذي ذكرت .

* * *

ولنترك جانبا ، الرحلة المزعومة التي كتبها الفارس الانكليزي ـ النورماندي جان مانديفل في ١٣٥٦ والتي لم تكن سوى تركيم لروايات اختلاقية وملامح اسطورية من كل الجهات ، ولكن ابتداء من النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، اخذت روايات الرحالة الى القاهرة تقدم فائدة اكثر . ذلك هو العصر الذي اخذت فيه العلاقات الدبلوماسية تأخذ استمرارية . اكثر مما ساعد على رحلات افراد عاديين . فالسفن

الجنوية والبندقية التي حملت في القرون الفائتة الجيوش الى الشرق ، اخذت تنقل اليه الان التجار وشحنات السلع . وراح السفراء والقناصل يتجهون نحو الـدول الاسلامية لاقامة علاقات سلمية وتمتينها . واصبحت سبل الحج الى الاماكن المقدسة اكثر سهولة واكثر عددا . وقصد رجال الدين من كل الامم مدينـة القدس وسيناء مرورا بالقاهرة : من فرنسيين ، وفلمنك ، وانكليز ، والمان ، واسبان ، وطليان ، وروس .. فلم يعد كافيا تكرار معلومات مبتسرة وغامضة عن عاصمة السلطان متوفرة لدى مؤرخي الحروب الصليبية ، بل كتب الكثير من الرحالة روايـة شخصيـة عن رحلهم ، ورووا لنا ما رأوه .

وقد جلب لنا عام ١٣٨٤ ثلاث روايات لثلاثة نبلاء من فلورنسـة قاموا ، سوية ، برحلة الى الشرق في ذلك العام وهم : ليوناردو فريسكوبا لدى ، سيمون سيغولي، وغوكشي دي دينو ، يرافقهم فلورنسيون اخرون هم سانتي دل رنكو ، انطونيو دي، باولو ، والاخوان ماي واندريا رينوكشيني . وقد مات الاخير خلال الرحلة فيدمشق.

وكان هؤلاء قد غادروا فلورنسـة في العاشر من اب ١٣٨٤ كي يبحروا منالبندقية بتاريخ ٤ ايلول على السفينة بولا Pola التي يقودها القبطان لونزو موروسيني الذي كان ينقل شحنة من الاقمشة اللومباردية وصفائح الفضة والزيت والزعفران ، وبلغوا الاسكندرية في ٢٧ ايلول حيث استقبلهم القناصل الاوروبيون وقصدوا القاهرة التي امضوا فيها ثمانية ايام من ١١ الى ١٩ تشرين الاول ، قبـل ان يقصـدوا سيناء التي عبروها الى فلسطين وسورية ، وعادوامن بيروت بحرا في شهر كانون الاول ١٣٨٤.

وقد أصبح أولهم فيما بعد ، وهو ليوناردو ، ابن نيكولو فريسكو بالدى ،سفيرا لدى البابا بونيفاس التاسع في ١٣٩٨ ، واليكم وصفا للقاهـرة مترجمـا عن النص الايطالي الذي نشره غوغليلمو مانزي(٢٢) .

وصلنا الى القاهرة وبابليون في ١١ تشرين الاول ، واللتين هما الشيء نفسه . وهنا قادنا الترجمان الذي قصدناه في الاسكندرية ، الى الترجمـان الاكبر ، وهـو رئيس سائر تراجمة السلطان وقد انزلنا هذا الموظف الكبير في منزل مـع امتعتنا ، قصدناه في قناة تتصل بالنيل . ويقع هذا المسكن على مسافة تقارب ثلاثمائة ميل في داخل البلاد .

وخلال المشوار بين الاسكندرية والقاهرة صادفنا الكثير من مراكب المسـلمين موسوقة بالبضائع وتنقل كلها عددا كبيرا من نساء الشعب ويعملن فعلا بالكثـير من

صنوف التجارة وكن يسافرن الى الاسكندرية والى جزيرة الروضة(٢٤) وبقصد البيع والشراء .

ويقيم السلطان في مدينة القاهرة وبابليون . ويقع قصره في المكان ذاته الذي كان يقيم فيه فرعون مصر ، حيث جرى ارضاع موسى . وفي يوم وصولنا الى القاهرة كان السلطان عائدا من القنص بعد غياب استغرق بضعة أيام . وكان هناك خمسة آلاف خيمه ، ولم نر اطلاقا مثل ذلك الغنى الباذخ . وقد كان هذا السلطان نصرانيا من اليونان(٢٥) ، اشتراه أحد الامراء طفلا صغيرا اي انه أصبح مملوك قائد حربي . وعندما تقدم في العمر احتفظ به الامير ضمن حاشيته ومنحه أفراسا وزادت مكانة هذا الشاب الى ان غدا حاكم القاهرة .

ويجب أن نعرف ان في القاهرة اثني عشر اميرا ، منهما اثنان رئيسيان .وتقسم المدينة الى اثني عشر حيا كما تقسم فلورنسة الى اربعة احياء ، وكل أمير يحكم حيه ويقود عددا كبيرا من المحاربين ..

وتشكل بابليون مع القاهرة مدينة كبيرة جدا تمتد اكثر من ثمانية عشر ميلا طولا وثمانية أميال عرضا . ويحد النيل أحد أحيائها حيث يقوم ميناء جيد ، كان يرسو آنذاك عدد كبير من السفن مما لم نشهد له مثيلا في موانىء جنوا أو البندقية وآنكونة(٢٦) مجتمعة سوية . هذا عن السفن من ذوات الجسرين ، والتي لا تؤلف ثلث عدد السفن الراسية هنا والتي تكون كلها ذات حمولة تعادل ، اربعمائة بالة او أكثر. وفي عالية القاهرة(٢٧) ، وعلى مسافة ثلاثة أميال بمحاذاة الضفة ، يقع المكان الذي ولد فيه موسى (عليه السلام) وحيث القي في النهر في مهد مجلفط بالقار . وفي ساحة السلطان ، وعلى مقربة من القصر الذي يسكن فيه ،ينتشر العديد من دكاكين باعة المجوهرات الذين يتصرفون بكميات من الحجارة الثمينة ، والزمرد ، والياقوت والياقوت الاحمر Balais (٢٨) والفيروز ، واللاليء وانواع اخرى من الحجارة الكريمة من سائر الاصناف . وقد اشترى رفيقنا اندريا دي ميسر فرانسيسكو لزوجته بضع لاليء حملناها معنا ، فضلا عن اشياء اخرى استودعنا اياها عندما حضرته الوفاة بدمشق .

وعلى مسافة أربعة عشر ميلا من القاهرة ، فيما وراء النهر ، من جانب بابليون يقوم اثنا عشر من الانبار (عنابر القمح) ، من تلك التي امر يوسف ببنائها في عهد فرعون في أيام المجاعة. ولا تزال قائمة : وهي أبنية مربعة الزوايا مقصوصة على هيئة الالماسات وعرض كل منها عند القاعدة يعادل ارتفاعة ، ويبلغ محيطها نصف ميل وتستر الرمال قواعدها ، ولكن كان يوجد اكثر بكثير من هذه الانبار(٢٩) .

وقد سبق أن قلت ان القاهرة مدينة كبيرة للغاية ، وفيها يوجد الكثير من النسوة اللواتي يمارسن التجارة بنشاط ، فيقصدن الاسكندرية ، ورشيد ودمياط ، وسائر انحاء مصر ، تماما مثلما يفعل تاجر كبير . أما في المدينة فيمتطين رواحل بديعة قادرة على حمل حمولات خيول قوية . وهذه الحيوانات معروضة للاجار على الساحات العامة وعلى الطرق ، وكل واحد مع سائقه ، ولا يعمل هؤلاء شيئا أكثر من تأجير رواحلهم للتنقليات . وهم بالفعل عاجزون عن ممارسة أية مهنة اخرى . وكان يوجد في القاهرة عند وجودنا فيها ما لايقل عن ستين الفا من هؤلاء الحمالين.

وعملتهم من الذهب أو من سبائك الفضة غير المسكوكة . ويدعى الذهب بيزان besan ، وتبلغ قيمة السبيكة دينارا وربع من العملة المسكوكة . ولكن دنانير البندقية ducats من الذهب المسكوك دارجة هنا(٤٠) . وتدعى العملة الفضية الدرهم وتعادل بندقي كبير . وليس هناك سعر لاية عملة فضية مسكوكة اخرى سوى تلك البندقيات الكبيرة . ولديهم عملة نحاسية غير مسكوكة يدعونها فلوس وكان كل تسعين فلسا يعادل في القاهرة درهما واحدا . ولكن يعادل الدرهم في امكنة اخرى من البلاد الاسلامية ثلاثين درهما ، وتارة اربعين ، واحيانا اقل من ذلك حسب الامكنة . وكل بضائعهم ، تباع بالوزن ، حتى البطيخ الاحمر .

ويوجد في القاهرة حوالي ٢٥٠٠٠ من النصارى المرتدين ، ولكن القليل منهم من قومنا ، ومعظمهم ينتسب الى أمم أخرى. ونصادف عددا كبيرا جدا من الابل المبرذعة، جميلة وقوية ، وتستعمل حصرا لنقل مياه النيل الذي يجري بيعه في المدينة . ويقدر عدد الابل هذه بحوالي ١٣٠,٠٠٠ ، ويقال ان في القاقرة ٦٠٠٠ من السقائين . اما النصارى فمن عدة أقوام، اللاتين،وهم قلائل، والروم والنوبيون ،والكرج ،والاحباش، والارمن ، ونصارى الزنار ، الذين يعمدون بالنار على الراس وعلى الصدغ وآخرون على الصدغ والراس ، أو احيانا على الراس فقط ، وذلك حسب مذهبهم ...

وتكون كسوة النساء عموما من قماش حسن النسج ، وثيابهم الداخلية من قماش شيت Toile ، أو من كتان الاسكندرية الناعم لدى الاكثر غنى ، ويلبس بعضهم ثيابا قصيرة حتى الركبة ، ولكن في هذه الحالة يضعن فوق ذلك نوعا من معطف (مانطو) على الطريقة الرومانية . وهن محجبات ومخفيات بحيث لا تظهر سوى عيونهن ، واكثرهن اناقة يضعن أمام أعينهن قماشا رقيقا أسود اللون (برقع) يحول دون رؤيتهن ، مع انهن يرين الناس تماما . ويحتذين جزمات بيضاء ويغطين سيقانهن بجوارب وبواقيات للساق تهبط حتى الكعب ، وتكون نهاياتها مطرزة ـ حسب حال السيدة ـ بالحرير ، أو بالذهب ، أو بالفضة ، أو بالحجارة الكريمة ، أو بلآلىء مطرزة فوق القماش .

ويكتسي الرجال بثياب مسدلة ، ودائما فوق سراويل أو جزمات ، بل يكتفون بأحذية من طراز البلاد على شكل خف مغلق ، وعلى راسهم قبعة من قماش ابيض او قماش ناعم . وثيابهم البيضاء من حرير ، او من قطن او من كتان فائق النعومة . ولا يميل أهل مصر كثيرا للحروب ولا يحملون اي سلاح كان ، وقد يحدث أن يتشاجروا لدرجة تجعل المشاهد يتصور انهم سيقطعون بعضهم اربا اربا ، ولكن ما أن يصيح احدهم قائلا : « أستغفر الله » حتى تسود السكينة عليهم .

أما أمراء القاهرة فيمكن تسميتهم القادة العسكريين الاثني عشر : فكل منهم يحكم حيه وله فرقة وميليشيا ، ولا يهتم بالحي الاخر أو بالسكان المجاورين . ويتألف جنودهم من اتراك وعرب وتتر مع بعض مسلمي سورية وبعض المرتدين ، من نصارى ويهود من مختلف الامم .... » .

ويقوم فريسكو بالدي بعدئذ بوصف الفيلة والزرافات التي رآها في القاهرة ثم يتابع كلامه :

وتكون مدينة القاهرة ، العاصمة الامبراطورية ، غنية بالسلع من كل نوع ولاسيما بالسكر ، وبالتوابل ، وبالمأكولات من كل صنف ، وفيها ١٠٠٠٠ نسمة لا يملكون بيوتا ، وينامون ليلا في العراء ، كما أن هناك عددا كبيرا من الناس ينهمكون في اداء خدمات من كل نو ع مقابل أجر قرابة درهم يوميا ، مما يعادل تقريبا اربعة قروش وربع من عملتنا . وفي القاهرة هذه سكان يزيد عددهم على سكان اقليم توسكانيا كله، وفيها شارع واحد أكثر سكانا ، من كل مدينة فلورنسة . ونصادف بالمدينة عددا كبيرا من الطهاة الذين يعملون ليلا ونهارا في الطبخ بالعراء ، في الشارع في قدور جميلة كبيرة من نحاس مطلي . ويجهزون أنواعا ممتازة من اللحوم . ولا يقوم أي حضري ــ مهما بلغ من الغنى بالطبخ في بيته، وهذا هو الوضع الفعلي لكل المسلمين ، فيرسلون من يشتري لهم أقواتهم من « البازارات » وهو الاسم الذي يطلق على هذه المطابخ . وكثيرا ما يجلسون في الشارع على الارض لتناول طعامهم بعد ان ينشروا بساطا يضعون في وسطه طست الطعام ويتحلقون من حوله على الارض ، بعد طي سيقانهم على شكل متصالب ، أو على كعوبهم ..

ويدفع مسلمو البلاد بعض الضرائب النظامية لا يخضعون بعدها لاي رسم . بيد أن على اليهود والنصارى من كل طائفة أن يدفعوا ، فضلا عن المألوف ، دينارا عن كل راس كل ثلاثة عشر شهرا قمريا . ويبدا نظام التاريخ من محمد (عليه السلام)(٤١) ، ويلتزم الناس في كل عام بصيام شهر قمري ولكن هذا التوقيت لا يعود دوما للفترة نفسها ..

ومساجدهم بيضاء كليا من الداخل ، وفيها عدد كبير من المصابيح المتقدة ، ومناراتها عالية دون اجراس ، ومحاطة بشرفة ، يقوم مشائخهم في كل ساعة من النهار والليل ، بثلاث دورات حولها وهم يدعون للصلوات (٤٢) ..

وفي ١٨ من الشهر ذهبنا لزيارة الامكنة المقدسة وكنائس القاهرة وبابليون . وكانت اول كنيسة رأيناها هي كنيسة القديس توما الرسول التي تخص نصارى الزنار ، وهي كنيسة جميلة جدا ومقدسة والثانية هي كنيسة القديسة بارب Barbe ، وهي بدورها ، جليلة وبديعة ، حيث رأينا جسد القديسة وهي رفات مؤثرة جدا . وكانت الثالثة كنيسة القديسة مريم الدرج eescalier والعمود، وهي كنيسة مقدسة جدا ومزدانة ويسرد الاهلون عنها عجائب كثيرة .. وفي هذه الكنيسة يتسلم نصارى البلاد ، مراتبهم من يد البطريرك ، وهو الرئيس الاعلى لكل نصارى هذه الاصقاع ، ويقصدها الناس حتى من اليونان . ونصارى الزنار همالذين يخدمون بالقداس فيها . والكنيسة الرابعة هي كنيسة مريم الكهف حيث مكثت العذراء مختفية فيها مدة سبعة اعوام خوفا من هيرود . وهذه الكنيسة هي اكثر الكنائس توقيرا في العالم . فقد شيدتها القديسة هيلانة ، والدة الامبراطور قسطنطين ... وفي المكان الذي سكنت فيه سيدتنا نجد مصلى تحت الارض يهبط اليه بتسع درجات ، يماثل كهفا حجريا .. وقد كان محراب سيدتنا ، واليوم يقوم مذبح مكانه وطلبنا من حارس جبل صهيون في القداس اقامة قداس امامه ، وهو راهب فرنسيسي صغير Mineur ، وشريف من البندقية ، اسمه نيكولا(٤٣) وهو رجل يتمتع بشجاعة كبيرة وبحياة قدسية .. وقد جاء ليطلب السماح بتأسيس دير للاخوة الفرنسيين في وادي جوزافات Josaphat حيث يقع ضريح مريم العذراء ، ولكنه لم يغز بهذا الترخيص مطلقا . ويقوم نصارى الزنار ، من أهل بابيلون ،بخدمة هذه الكنيسة وبين القاهرة وبابليون اللتين تبعدان عن بعضهما أكثر من رمية سهم، تقع كنيسة القديس مارتن ، مطران الاسكندرية ، حيث يحتفظ بجثمانه ، أو بالاحرى برفاته ، مغلفة بكفن من حرير ، وقد احتضناه بأذرعنا . وقد دفنت في هذه الكنيسة ملكة ارمينية التي ماتت في الاسكندرية ، عندما كان زوجها أسير السلطان(٤٤) ويقوم النصارى الارمن على خدمة الكنيسة .

وقد أقمنا بضعة أيام في المدينة لتأدية عباداتنا ، ولزيارة طرائف المناطق المجاورة مثل انبار فرعون وبيت موسى (عليه السلام) وللتموية بقصد رحلتنا عبر الصحراء نحو أرض الميعاد . وكثيرا ما كان يزورنا الترجمان الاكبر بالبيت الذي نقطنه ويتناول الشراب معنا .. وكان فيه العديد من طير اليمام ، حتى في غرفتي ذاتها حيث كان لها فيه ثلاثة اعشاش ، وكانت هذه اليمامات المستأنسة ذات حجم يعادل حمام بلادنا ،

وكانت كلها أهلية شأن طير الحمام لدينا . وللسلطان العديد من الموظفين ، ولما كان يود سماع الاخبار فقد كان يتسلم ، في كل نصف ساعة ، في القاهرة ، رسائل ترده من الاسكندرية بوساطة الحمام ....

« وفي البلاد عوز شديد لخشب البناء . وللوقود تستعمل اوراق النخيل ، اي السعف ، وقفف الحبوب، وكذلك روث الابل الممزوجة بالغبار وبفضلات أخرى. ويكون الخبز رديء الشواء ، ولكنه ابيض كالحليب ، لان لديهم قمحا رائعا ... » .

أما سيمون سيغولي، صاحب فريسكو بالدي، فقد دبج ، بدوره رواية ايطالية عن رحلته . وقد نشرت مع روايتي فريسكو بالدي ورواية غوبكشي دي رينو بجهود كارلو كار غيولي(٤٥) وفيما يلي بعض فقرات منها :

« ... وتكون نياب المسلمين دائما من القطن الشديد النعومة حتى ليتصور اليه انه من حرير . وهناك من تسعفهم امكاناتهم فيكتسون بقماش من حرير ابيض . ويلبسون ثيابا طويلة وعريضة تغطي الظهر وتنسدل حتى الاقدام ، وذات أكمام طويلة جدا وعريضة جدا شبيهة بكتونات الرهبان . ويعتمرون فوق الرأس بقلنسوة ذات قمة حادة ويلفون الرأس والقلنسوة بقماش من كتان ناعم للغاية طوله خمسة وعشرون أو ثلاثون ذراعا . كما يحملون ايضا قطعة أخرى من الكساء وهي نوع من وشاح يتدلى من الخلف ، يماثل الوشاح الذي يضعه الشماس عندما يساعد الكاهن في القداس الكبير ويحمل كلهم تقريبا ، وعموما فوق اليد ، أو فوق الكتف ، منديلا مقلما من قطن مصبوغ .

ويلتزم المسلمون في كل السنوات بصوم يبدأ في أول شهر قمري من العام ، ويقع في شهر أيلول (كذا) ، والذي يدوم ثلاثين يوما . ويظلون طول النهار دون طعام او شراب ، وثم في المساء ، عندما تظهر النجوم في السماء ، يأخذ كل واحد منهم بأكل اللحم وكل ما يروق له ، يأكلون طيلة الليل ... (؟) وفي نهاية الايام الثلاثين ، وعندما يرون الهلال الجديد ، ويحتفلون بعيد كبير جدا . ويجتمعون في اكبر ساحة في المدينة ، وعندها يأخذ بعضهم بقرع الطبول ، والنقر على الدفوف وآخرون ينشدون أيضا ، ويرقصون ويأكلون ويلعبون بالصنج ، في حين يرفع البعض أوزانا ضخمة بقوة أذرعتهم ، وتستمر هذه الافراح مدة ثمانية أيام وتمتد شطرا كبيرا من الليل . ويظل كل طهاة المدينة ، خلال شهر الصوم ، في دكاكينهم طيلة الليل منهمكين في بيع اللحم والاطعمة الاخرى لان المسلمين لا يطهون الطعام في منازلهم ابدا .

وفي خارج القاهرة أو على مسافة عشرة أميال تقع أنبار فرعون ...

ولنتكلم الان عن جمال ونبل القاهرة ، وعن عظمتها وعن كثرة السكان الذين يسكنون فيها ، وعن عاداتهم وعن جلال السلطان :

يتجاوز طول القاهرة اثني عشر ميلا ، ومحيطها نحو ثلاثين ميلا . وهي ليست محاطة بسور ، بيد ان النيل يجري على طرفيها ، ويكون الطرف الثالث محفوفا بخندق . وتلعب بيوت السكن العالية جدا دور الاسوار . وقد روى لي نصراني اسمه سيمون من كانديا(٤١) والذي كان وجوده هنا لعقد صفقات تجارية ، ان المدينة تحوي اكثر من ثلاثمائة ألف نسمة ، يكون أكثر من خمسين ألف منهم دون بيت ولا يسترهم سقف يتظللون فيأه وينامون فيالليل فوق دكات لان المطر لا يهطل ابدا في القاهرة ويكون الطقس فيها شديد الحرارة جدا(٤٧) . وهناك من ناحية اخرى أكثر من عشر آلاف رجل من العراة باستثناء فوطة حول خصرهم . وقد روى لي هذا التاجر نفسه انه خلال طاعون ١٤٧٢ هلك بالقاهرة العديد من الناس أو ١٠٥٠٠٠ شخص في ثلاثة ايام. وتصور الوضع في مثل هذه الحال ، حيث كان يموت فيها عشرة آلاف او اثنا عشر ألف أو ستة عشرة ألف واكثر ، تارة أكثر ، وتارة أقل ، الذين أهلكهم هذا الطاعون الذي استمر قرابة ثمانية أشهر .

وفي المدينة غزارة كبيرة في البضائع من كل الانواع ، ولا سيما التوابل من كل صنف ، تأتي في المحيط الى البحر الاحمر من قطري الهند(٤٨) لتفرغ في مرسى القديسة كاترينا(٤٩)الذي يقع على مسافة خمسة عشر ميلا تقريبا عند حضيض جبل سيناء. وهناك الكثير الوافر من السكر ، الابيض كالثلج ، والقاسي كالحجر ، وهو افضل سكر بالدنيا . وبعد ان تفرغ البضائع في الميناء المذكور ، تحمل على ظهور الابل على الطريق الصحراوي حتى القاهرة ، مما يؤلف رحلة تمتد على ثلاثة عشر يوما لا يرى خلالها اي بيت أو سقف ، ولا يظهر سوى الجبل وسهل الرمل المغطى بالحجارة وبالحصباء .

« في مساء الأربعاء ١٩ منه وصباح الخميس ، خرجنا من القاهرة مع كل متاعنا ، وحميرنا وجمالنا ، لمتابعة رحلتنا نحو القديسة كاترينا » .

« وعلى مقربة من القاهرة ، وعلى مسافة ميلين ، على الطريق المباشر نحو دير القديسة كاترينا ، شاهدنا الكثير من الاشياء المدهشة ، واولها نبع من ماء غزير . وهو

عين جميلة جدا ذات مياه رائقة وطيبة ، مقسومة بجدار حيث تشكل ساقيتين احداهما بجانب الاخرى . وقد شيد السلطان فوق النبع بناء جميلا وكبيرا على عادتهم هناك . وهنا يقع بستان السلطان وهو واسع جدا وغاية في الجمال ، مليء بالنخيل والاشجار المثمرة ، وفيه ينتج البلسان الذي لا ينمو في أي مكان آخر . ويعتني بالبستان ويحرسه عدد من الموظفين والمستخدمين يعينهم السلطان، ويقومون بتسجيل محصول البلسان . ويحرص السلطان على ذلك ويتخذ التدابير كيلا يفقد شيء من المحصول . ويقال أن سيدنا المسيح هو الذي فجر هذا النبع بقدمه بناء على توسل امه(٥٠) عندما هربا من سورية الى مصر مجتازين صحراء بلاء ماء . وكانت سيدتنا عطشى فطلبت من وليدها أن تشرب ، وعندها ضرب المسيح الارض بقدمه وفي هذا النبع قامت سيدتنا مريم بغسل أقمشة وليدها ونشرتها لتجف فوق شجيرات البستان ، التي غدت بعدئذ تنتج البلسان الشافي ..».

الحواشي :

(١) لقد جرى جمع هذه النصوص قبل نشوب الحرب العالمية الثانية كي تكون مساهمة في كتاب كانت« الجمعية الجغرافية الملكية » في مصر تزمع اصداره في ١٩٤١ بمناسبةالعيد الالفي لتأسيس القاهرة . ولكن الظروف حالت للاسف دون نشر الكتاب المذكور ، الذي أخذ المسيو هنري مونييه ، والمسيو غاستون فييت ، من علماء الاثار المصرية ، علىعاتقهما مبادرة الاشراف عليه .

(٢) من المعروف أنه كانت هناك عواصم اسلامية متعاقبة قبل القاهرة . ففي سنة٦٤٠مدخل العرب الفاتحون مصر بقيادة عمرو بنالعاص الذي اقتحم بقواته « حصن بابليون » حيث كانت ترابط القوات البيزنطية . وعلى مقربة من هذا الحصن المنيع الذي يقع حاليا في حي « مصر القديمة » أنشأ عمرو مدينة « الفسطاط » لتصبح اول عاصمة لمصر العربية. وفي سنة ٧٥٠م استولى العباسيون على مصر وانشأوا عاصمة جديدة سموها « مدينة العسكر ». وكانت هذه العواصم الثلاث متقاربة ، تكاد حدودها تتداخل وتتلامس وان كانت جميعها دون اسوار ولا تحصينات دفاعية ، الى أن قدمت جيوش المغاربة الفاطميين الى مدينة «الجيزة» الواقعة على ضفة النيلالغربية، في مواجهة تلك العواصم الاسلامية الثلاث التي تقع جميعها على الضفة الشرقية القديمة . وفي ٦/٦/٩٦٩م استولى جوهر الصقلي على العواصم الثلاث . ورابطت القوات المغربية في الارض الخلاء الواسعة التي يشرف عليها جبل المقطم في الشرق ، ويحدها من الغرب قناة متفرعة من النيل تحمل اسم « الخليج المصري » كانت تصل بين العواصم المصرية الاسلامية وبين مدينة القلزم (السويس حاليا) على البحرالاحمر. وهذه القاهرة دعيت «قاهرة المعز لدينالله».

(٣) مؤرخ الحروب الصليبية . ولد في سوريا حوالي ١١٣٠م ومات في ١١٨٦ وكان بطريرك صور وقد ترك حوليات عن الشرق اللاتيني في القرن ١٢م .

(٤) والتي سموها فعلا « بابيلون الجديدة » لتمييزها بوجه الدقة عن بابل الاشوريين الشهيرة برج بابل .

(٥) لقد تمت ترجمة هذاا لنص عن الانكليزية بقلم الكان فالان أدلر «الرحلة اليهودية» . لندن ١٩٢٠، ونقابله نحن مع ترجمة أقدم للحصول على بعض التفاصيل ، وهي ترجمة بيير برجرون. عنوانها « رحلة بنيامين الطليطلي » في رحلات تمت في اسيا بشكل خاص خلال القرن ١٢، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، مع مقدمة بقلم بيير برجرون ذاته . لاهاي ١٧٨٥ .

(٦) احد انهار الجنة الارضية الاربعة ، كما جاء في سفر التكوين وهي : النيل والفرات وسيحون وجيحون .

(٧) يبدو هذا الرقم مبالغا فيه ، لان برجرون يقول : ٢٠٠٠ نسمة لا غير .

(٨) اي يعقوب عليه السلام ونسله .

(٩) اي هيكل السوريين أو الفلسطينيين .

(١٠) ويقول برجرون أن الكنيس الثاني يدعى فيرهاكوم .

(١١) حسب ترجمة برجرون : « ناثانائل ، هو رئيس المجمع ، ويراس كل جامعات مصر ، وهو الذي يعين الاساتذة وكذلك مديري أملاك الكنس ».

(١٢) زوان اسم عبري لمدينة تانيس Tanis القديمة وتدعى اليوم صان الحجر في مصر السفلى .

(١٣) نسبة الى الامام علي ابن عم الرسول (صلعم) وصهره ، والذين ينتسبون للشيعة. أما برجرون فيقول : يطلق على السكان اسم « موريديم » أي المتمردين .

(١٤) يقول برجرون : لقد أقام الاول بلاطة في قصر زوان الذي يستحقه اكثر بسبب موقع المكان، أي قلعة صلاح الدين .

(١٥) أي عيد الفطر ..

(١٦) ذاك هو مقياس النيل nilomètre في جزيرة الروضة . ويقول برجرون :«لقد حرص القدامى على اقامة عمود ، في الجزيرة التي يشكلها النيل ، يزيد ارتفاعه عن اثني عشرة ذراعا والذي يكون من المعتاد ان يرتفع الماء حتى سويته .

(١٧) أي كل الدلتا .

(١٨) كانت السمنة من مظاهر الصحة الجيدة، وحتى عهد قريب منا كان يقال : « كرش الوجاهة » .

(١٩) الفرسخ ٤ كم .

(٢٠) أي الاهرام . وكان يعتقد أنها عنابر لتخزين الحبوب تحسبا للمجاعات الدورية .

(٢١) يحفل التاريخ بالحكام الذين استنجدوا بالعدو للتشبث بكراسيهم ، أليس امرؤ القيس من أوائلهم عندما قصد قيصر بيزنطة للاستعانة به على مغتصبي كرسيه في قلب الجزيرة العربية ، ويغص تاريخ الاندلس بمثل هذه التحالفات المشينة التي قادت لخروج العرب من شبه الجزيرة او صهرهم بمحاكم التفتيش .

(٢٢) ترجم للفرنسية في القرن ١٢ تحت عنوان « كتاب فتح الارض المقدسة » أو « تاريخ هرقل ». نشر دار بولاق . باريس ، لدى دار فيرمان ديدو ١٨٧٩ . وعمل غليوم الصوري في فترة ١٠٩٥ ــ ١١٤٣ اعتمادا على مؤرخين سابقين ، ولكن للفترة ١١٤٣ حتى ١١٨٤ وهي سنة وفاته ، فقد كان عمله ذا أصالة .

(٢٣) نشره بونغراس . هانوفر ، سنة ١٦١١م.

(٢٤) وهذا خطأ من جانب الكاتب .

(٢٥) هذه الشهادة مدعاة للفخر عن التسامح العربي بالموازنة مع مذابح القدس عند دخول الفرنجة وما كان يفعله متعصبوا الاسبان بالاندلس من تذبيح وتهجير ومحاكم تفتيش تقشعر لفظاعتها الابدان .

(٢٦) جرى املاء هذا الكتاب بالفرنسية ، ولكنه ترجم الى اللاتينية في ١٣٠٧ ، واعيدت ترجمته الى الفرنسية ، ونشره بيير برجرون في كتابه « رحلات تمت خاصة في الشرق»

وتحت عنوان « التاريخ الشرقي » أو تاريخ للرهايتون . نسيب ملك ارمينية والذي يضم أولا : وصف موجز ولطيف لبضعة ممالك وبلاد شرقية ، حسب الوضع الذي كانت عليه حوالي العام ١٣٠٠ ، ثانيا : رواية الكثير من الامور الهامة التي انتابت شعوب هذه البلاد وامهها وقد تمت كتابة المجموع بيد نيكولا فالكون ، وترجم حسب النص اللاتيني من قبل آندرية موللر غريفنهاغ .

(٢٧) تسمد بالطمي .

(٢٨) كتب عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب يصف مصر : « حتى اذا بنتسقاه من فوته الندى وغذاه من تحته الثرى وبعد أن كانت الارض غبرة سوداء تصبح وبر جدة خضراء فتعالى الله الفعال لما يشاء » .

(٢٩) « حج الراهب الاوغسطيني جاك دوفيرونا » نشر رينهولد رويخرنشيت في مجلة « الشرق اللاتيني » عام ١٨٩٥ . وفيرونا مدينة قرب البندقية على نهر الاديج (٢٧٥٠٠٠ نسمة).

(٣٠) وهنا يخلط المؤلف بين النيل و «الخليج» وهي ترعة تجتاز القاهرة .

(٣١) وهو الجير في مصر والشيد في فلسطين .

(٣٢) أي في القاهرة وحاليا اكثر من ٢ مليون .

(٣٣) نشر كارلو مورد كشيني . روما ١٩١٨ .

(٣٤) Resette ? أورشيد .

(٣٥) وهو برقون الذي حكم من ١٣٨٢ و ١٣٩٩م وكان شركسيا ، اذ كانت تطلق عبارة بلاد اليونان على كل الاقطار التي تدين بالارثوذكسية .

(٣٦) ميناء على الادرياتيكي ، عاصمة اقليم مارش ١١٠٠٠٠ نسمة .

(٣٧) أي باتجاه الصعيد ، أو باتجاه المنبع أو amont بالفرنسية upstream بالانكليزية .

(٣٨) وجاء اسمه من اسم بلاد بلخشان ، قرب سمرقند ، حيث كان يستخرج هذا الصنف من الياقوت .

(٣٩) يقصد الاهرام .

(٤٠) كان السلاطين من بعد برقون يسكون دنانير ذهبية . فقد أصدر السلطان فرج الدينار الناصري والمؤيد المؤيدي ، وبرسباي الدينار الاشرفي . وتلك الدنانير طليعة القطع الذهبية المصرية .

(٤١) وبما يريد ان يقول من هجرة الرسول (المترجم) .

(٤٢) ويظهر هنا جهل فاضح لان الاذان خمس مرات وليس أربع وعشرين مرة .

(٤٣) ويذكر غوكشي دي دينو أن رجل الدين هذا يدعى نيكولا داكورينو ، وانه كان بندقيا . ولد في كاندي في كريت التي كانت من ممتلكات البندقية ، وهو حارس القدس .

(٤٤) وهي زوجة ليون السادس دو لوزينيان ، اخر ملك في منطقة كليكيا الارمنية ، وقد اقتيدت مع زوجها بعد سقوط سيس عاصمة مملكته في ايدي قوات السلطان في عام ١٣٧٥ .

(٤٥) دار فيرنزة سنة ١٨٦٢ .

(٤٦) عاصمة كريت واسمها الحالي هيراكليون على الساحل الشمالي وسكانها ٧٨٠٠٠ نسمة

(٤٧) ليس من المستغرب ان ينفي الاجانب عن القاهرة ظاهرة المطر لانهم لم يصدف كما يبدو ان زاروها في الشتاء لان معدل مطرها السنوي يعادل ٢٥ مم .

(٤٨) أي الهند والهند الشرقية (اندونيسا).

(٤٩) ميناء الطور .

(٥٠) وهنا مقاربة مع قصة انبجاس مياه زمزم تحت قدمي اسماعيل عليه السلام على اثر شدة الظمأ الذي اشتكى منه وامه هاجر زوجة ابراهيم عليه السلام.

نظـرة في بعض وثائـق عقـود الزواج مـن القـرن الثـالث الهجـري

د. فالـح حسـين
الجامعـة الاردنيـة

تعتمد هذه الدراسة على بعض وثائق عقود الزواج التي عثر عليها في مصر ، والتي تعود الى فترة مبكرة نسبيا هي القرن الثالث الهجري،واحداها تعود الى القرن الثاني، وقد عثر على أغلبها بصورة جيدة وبعضها شبه كامل . وفي دراستها محاولة لتوضيح فكرة بعض شروط الزواج من خلال ما أوردته وثائق هذه العقود . ولن يتركز الاهتمام في بحث ما هو صحيح أو خطأ ، بل تصوير حالة اجتماعية من خلال الشروط الواردة . بغض النظر عن الآراء الفقهية سواء توافقت مع الشروط أو تعارضت معهـا . أي ان البحث غير معني بفكرة الافتاء أو البحث عن المسوغ للشروط فهذا أمر متروك للفقهاء ، ولكن الشروط تعني بنفس الوقت حقيقة مرونة التطبيق بغض النظر عن صحة أو عدم صحة الشرط ، فالاصل في النظم الاجتماعية هو الواقع العملي .

هنا نجد الحديث عن المهر المؤجل والمهـر المعجل ، كما نجد تحديد قيمة المهـر وكيفيه دفع المؤجل منه . فالمهر المؤجل يعني هنا ما نفهمه اليوم بمبدأ تقسيط المهـر وهو أمر غير معروف عند المسلمين اليوم في التطبيق اذ أننا نستطيع ان نقول وبوضوح ان الغاية من المهر المؤجل كما تدل نصوص الوثائق التي بين أيدينا هي تسهيل عمليـة الدفع على الزوج حفظا لحق محدد للزوجة في مهرها ، اي كأنـه تأجيل لدفع ديـن استحق للزوجة على الزوج بشكل لا يقبل أي تفسير آخر ، اذ تحدد الوثائق الاقساط كما تحدد مواعيد الدفع ، وبالتالي يتوضح الهدف أو القصـد الذي من اجله أجّل قسم من المهر ــ المهر المؤجل ــ والذي يختلف عما يفهمه أهل عصرنا اليوم من ان المهر المؤجل كما يقال لتقييد الزوج أو لضمان حق الزوجة في حالة طلاقها منزوجها ، بينما هو في الوثائق لتحديد حق وواجب الدفع مع استمـرار رابطة الـزواج ولا علاقـة له (بالعقاب) الذي يفهم من المهر المؤجل هذه الايام ، اذ يبدو انه حق للزوجة تطالب بـه حالة الطلاق ، وكأنه عقاب للزوج عند طلاقه زوجته .

دراسـات تاريخيـة ، العددان ٤٩ / ٥٠ ، اذار ـ حزيران ١٩٩٤

ومن اللافت للنظر اغفال كثير من كتب الفقه الحديث عن المهر المؤجل وحكم التأجيل وسببه اللهم الا الاشارات التي وردت لدى مالك بن أنس ـ امام أهل المدينة ـ في المدونة الكبرى(١) .

ونجد أيضا في وثائق العقود بعض الشروط التي تحدد العلاقة بين الزوج وزوجته في حالة زواجه من زوجة اخرى ، وشروطا حول العلاقة بين الزوجة وأهلها على سبيل المثال ، كما نلاحظ كثرة عدد الشهود احيانا .

ولا شك ان الاسلام نظر الى الزواج والعلاقة الزوجية نظرة احترام وتقدير وشجع على اقامة هذه العلاقة على اساس المودة والرحمة المتبادلة قال تعالى « **ومن اياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة** »(٢). وحث على أن تكون العلاقة علاقة معروف وفي حالة تعذر ذلك اباح التفريق بين الزوجين « **فامساك بمعروف او تسريح باحسان** »(٣) .

ومن شروط عقد الزواج المهر او الصداق الذي جعل حقا مخصصا للزوجة ، زاد أو نقص ، قال تعالى « **واتوا النساء صدقاتهن نحلة** »(٤) وبين لسان العرب معنى كلمة نحلة انها فريضة أو ديانة أو عطية أو هبة ونحل المراة مهرها تقول أعطيتها مهرها نحلة اذا لم ترد منها عوضا ، أما كونها فريضة أو ديانة كقولنا ينتحل كذا وكذا اي يدين . وقيل نحلة أي دينا أو ديانة (وقال بعضهم هي نحلة من الله لهن ان جعل على الرجل الصداق ولم يجعل على المراة شيئا من الغرم فتلك نحلة من الله للنساء أي فريضة أو هبة) فهي هبة من الله للنساء وفريضة لهن على الازواج(٥) .

كما اشترط الاسلام نكاح النساء باذن اهلهن ، قال تعالى « **فانكحوهن باذن اهلهن واتوهن أجورهن بالمعروف** »(٦) ، وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا نكاح الا بولي »(٧) ورأى كثير من العلماء ان في الاية الكريمة « **وانكحوا الايامى منكم** »(٨) شرطا من شروط الولاية لان الخطاب كان للرجال دون النساء بتولي النكاح(٩) .

وللاطلاع على بعض ما ورد من شروط في وثائق عقود الزواج نثبت الوثيقة التالية بنصها الكامل وهي تعود الى ربيع الاول سنة ٢٥٩هـ .

١ ـ بسم الله [الرحمن الرحيم]

٢ ـ [هـ] ـذا ما اصدق اسـ [معيل مولى احمد] بن مروان القرشي بمدينة اشمون عايشه

٣ ـ [اب] نت يوسف السا [كنة بمدينة اشمون عندما خطبه] ـا الى نفسه
وه [ي ا] مراة ايم بالغ بعد ان فو [ضت] .

٤ ـ [امـ] ـرها الى جده [ـا يعقوب] بن اسحق ال [و] واشهدت له شهود ؟

٥ ـ بتوكيلها اياه فقبل وكـ [الته] ا وانفذ [نكاحها واصدقه] ـا اسمعيل مولى

٦ ـ [ا] حمد بن مروان القرشي اربعة دنانير مثاقيل طرا(١٠) جياد وازنة
يعجل بها

٧ ـ [ا] سمعيل دينرين مثقالين نقدا حالا معجلا ويبقى لعا [يشة] ابنت يوسف

٨ ـ على زوجها اسمعيل مولى احمد بن مروان دينرين مؤخرين الى [خمسة] ؟
سنين

٩ ـ أولهم ؟ شهر ربيع الاول سنة تسع وخمسين وما يتين وشرط اسمعيل مولى

١٠ ـ احمد بن مروان لامرته عايشة تقوى الله العظيم بحسن الصحبة والمعاشرة .

١١ ـ كما امر الله عز وجل وسنة محمد صلى الله عليه وسلم على

١٢ ـ الامساك بالمعروف أو التسريح بالاحسان وشرط اسمعيل .

١٣ ـ مولى احمد ان كل امراة يتزوجها على امراته عايشة ابنت يوسف .

١٤ ـ [ثقام] تلك المراة بيد عايشة تطلق كيف شـ [ـاءت] من الطلاق .

١٥ ـ وولي عقدة هذاالنكاح يعقوب بن اسحق فقبل الوكالة وانفذ

١٦ ـ النكاح ورضي اسمعيل بالمهر المعجل والمؤخر والشروط المسمات ؟

١٧ ـ في هذا الكتاب والزم نفسه في صحة عقله وبدنه وجواز

١٨ ـ امره لا علة به من مرض او عرة في شهر ربيع الاول سنة تسع

١٩ ـ وخمسين ومايتين وشـ [ـهد على] ذلك (١١) .

ومن النص السابق يبدو جليا :

١ ـ ان الرجل خطب المرأة الى نفسه وهي (امراة ايم بالغ) ثم فوضت امر زواجها الى جدها وهو وليها ، (والايم من النساء التي لا زوج لها بكرا كانت أو ثيبا)(١٢) مع ان مالك بن انس اورد في الموطأ حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (الايم احق بنفسها من وليها والبكر تستأذن في نفسها واذنها صمتها)(١٣) مما

يشعر ان الايم تعني الثيب وهي التي احق بنفسها في حين ان البكر تستأذن قبل موافقة وليها . وفي الوثائق وردت عبارة (ايم بالغ تلي نفسها)(١٤) ، (ايم بالغ بكر)(١٥).

مما قد يشعر أن عبارة ايم كانت تستخدم للثيبات ، خاصة مع ورود عبارة (تلي نفسها) في وثيقة رقم (٤٠) السابقة ، ويرى الطحاوي ان من شروط العقود مع النساء ان يكتب عند ذكرها في الشهادة (وهي امراة بالغ) لان البلوغ مما يخطيء عند النساء (لخفاء أمور النساء فيه)(١٦) فهو اذن لم يتطرق لكلمة ايم ، بكر ، ويبدو لنا أن ورود كلمة ايم هنالايقصدبها تحديد البكارة أو الثيوبة بل لتقرير أن المرأة لا زوج لها لان التأيم ، (المكوث من دون زواج للرجل أو المرأة والايم من النساء البكر والثيب اذا لم يكن لها زوج)(١٧) في حين أن الثيب هي التي تزوجت وفارقت زوجها لاي سبب وهي بهذه الحالة عكس البكر وهي التي لم يسبق لها الزواج(١٨) وفي كلتا الحالتين البكر والثيب فانها لا تزوج نفسها بل يزوجها وليها . وذكر مالك بن عمر بن الخطاب(لا تنكح المرأة الا باذن وليها أو ذي الراي من أهلها أو السلطان)(١٩) .

وبينا فيما سبق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا نكاح الا بولي) أي أن المرأة لا تزوج نفسها على كل حال ، وهذا ما نجده فعلا في الوثائق التي بين أيدينا(٢٠) وفي حالة عدم وجود الولي من أب أو اخ أو جد أو من يتولى من عصبة المرأة تزويجها فان القاضي نفسه كان يعلن ولياً للزوجة . وهذا يذكر بما رواه مالك عن عمر بن الخطاب آنفا (٢١) لكننا اضافة لذلك لدينا ما يثبت ذلك وثائقيا فقد جاء في عقد زواج يعود لفترة متأخرة نسبيا سنة (٤٦١) هـ ما يلي : —

(وولي تزويجها اياه بذلك الشيخ ابو الفضل العباسي بن هبة الله بن عفيف بأمر القاضي أبو القاسم عبد الله بن علي بن عبد الرحمن خليفة القاضي أبي الحسن مسرة بن عبد الله على الحكم والصلاة والخطابة والقضاء والمظالم بمدينة اشمون واعمالها . .)(٢٢) . ونجد في احدى الوثائق(٢٣) ما يشعر لاول وهلة وكأن الزوجة كانت تلي نفسها أي أنها زوجت نفسها بنفسها دون ولي . ويظهر ذلك من وصفها سطر ٣—٤ (وهي اذ ذاك امرأة بكر بالغ تلي نفسها ومالها) ولكن متابعة النص تبين بوضوح أن والدها هو الذي تولى تزويجها وورد ذكره (القاسم بن عبيد الله الولي) سطر ١٠ ووردت وكالتها بشكل أوضح سطر ١٣ (على اقرار رحمه ابنه قاسم ورضاها بوكالة قاسم بن عبيد الله يزوجها من عبد الله بن محمد الزوج ورضاه بالو[كا]لة بها) ولذلك يفترض فهم العبارة الاولى بمعنى ان لها حرية التصرف بمالها وشخصها أي ان لها استقلاليتها الشخصية والمالية تتصرف دون قيد من احد ، لان الفهم انها ولية نفسها بشأن الزواج مناقض لما هو معروف في عقود الزواج الاخرى .

٢ ـ حدد المهر بأربعة دنانير المعجل منه والمؤجل وكان المؤجل نصف المهر ، وقد حددت المدة المؤجلة هنا بخمس سنين (سطر ٧ـ٩) . ونجد مثل هذا التحديد في بقية الوثائق دون التقيد بالمدة نفسها اذ الاجل يتفق عليه ، اما عن فترة التأجيل فقد تصل الى عدة سنوات ولكنها قد تقتصر لبضع ليال . فقد ورد في احدى الوثائق ان دفع المؤجل عن المهر وهو ثلاثة دنانير يجب ان يتم دفعه في خمس ليال متعاقبة ابتداء من تاريخ عقد الزواج في حين ان المعجل من المهر دينار واحد من أصل مجموع الصداق وهو أربعة دنانير (وأخرت الثلاثة دنانير الباقي مهرها عليه الى انقضى (خمسة) ليلى/ متواليات أولهن تاريخ هذا الكتاب)(٢٤) .

ويبدو ان هذه الحالة استثنائية ، خاصة وان الرجل كان قد استرجع زوجته بهذا المهر بعد ان كان قد طلقها طلقة واحدة (سطر ٥ـ٦) . وفيما يتعلق بقيمة المهر الصداق ، فنجده مختلفا اختلافا بينا في وثائق عقود الزواج ، وقد ذكر مالك بن انس اقل المهور هو ربع دينار (٢٥). وذكر السرخسي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا مهر في أقل من عشرة دراهم (٢٦) أي ان الحد الادنى للمهر هو عشرة دراهم ويساويه دينار واحد فيذلكالوقت. وبالفعل فان قيمة المهر مختلفة بشكل واضح لان ذلك يرجع الى وضع الافراد ، واقل ما عثر عليه في الوثائق البردية كان دينارا واحدا في الوثيقة (رقم (P. Berol. 8217) ، ويبين جروهمان ، وهو اشهر من عمل في نشر الوثائق البردية العربية ، ان اقصى ما وقفت عليه من قيمة الصداق ما ورد في عقدي الزواج المحفوظين في دار الكتب المصرية تحت رقم تاريخ ١٧٣٥/٣ ، ١٧٣٥/٤ هو ٨٠ دينارا(٢٧) وفي اغلب الاحيان يدفع نصف المهر معجلا كما هو حال العقد الذي بين ايدينا(٢٨) .

٣ ـ اشترط الرجل على نفسه حسن الصحبة والمعاشرة على الامساك بالمعروف أو التسريح بالاحسان كما يطلب الكتاب والسنة وهذا مقتبسعن الاية الكريمة(فامساك بمعروف او تسريح باحسان)(٢٩) .

٤ ـ أعطى الرجل ، الزوج ، شرطا على نفسه لزوجته أن يكون امر كل امراة يتزوجها بعد زواجه منها بيد زوجته هذه ولها ان تطلقها اذا شاءت ، وهذا الشرط يتكرر في وثائق اخرى وبلهجة اكثر تحديدا ووضوحا ، اذ يشترط الزوج في وثيقة تعود لسنة ٢٧٩هـ على نفسه ان اية زوجة يتزوجها مسلمة كانت [او] ذمية فامرها بيد امراته هنيدة ابنت اسحق تطلقها عليه ما شاءت من الطلاق [جايز] عليه ولازم له وكل جارية يتخذها عليها . يكون بيعها بيد امراته هنيدة ان شاءت عتقت وانشاءت باعت فعتقها وبيعها جايز عليه ولازم له (٣٠) .

ونجد مثل هذا الشرط ايضا في وثيقة تعود للقرن الثاني الهجري اي سابقة لهذه الوثيقة بحوالي القرن بشكل واضح مما يشعر ان مثل هذا الشرط كان متعارفا عليه من قبل اذ يرد في نص العقد ان الزوجة مريم بنت اسماعيل لها مثل هذا الحق (فان تزوج عليها .. تزوجها عليها بيد امراته مريم ابنت اسمعيل ان شات طلقت ولن شات امسكت .. السرية بيد امراته مريم بنت اسمعيل .. شات باعت وان شات وهبت وان شات صدقت)(٢١) .

وهذا الشرط يبدو متناقضا مع ما يذكره مالك بن انس في الموطأ عند حديثه عن شروط الزواج اذ يقول (فالامر عندنا انه اذا شرط الرجل للمرأة وان كان ذلك عند عقدة النكاح ان لا أنكح عليك ولا اتسرر ان ذلك ليس بشيء الا ان يكون في ذلك يمين بطلاق أو عتاقة فيجب ذلك عليه ويلزمه)(٢٢) . ولكن اشارة مالك هذه تدل على رفضه لمثل هذا الشرط الذي يبدو أنه كان معروفا في ايامه . ولكن وثائقنا لا تذكر اشتراط الرجل على نفسه وحسب بل تجعل امر النساء او السراري الاخريات بيد المرأة التي يذكرها العقد ، أي انه يذهب ابعد مما قصد مالك ويثبته في العقد .

٥ ـ يبدو ان المرأة هي التي تتولى القبض والابراء منه فيما يتعلق بتسليم المعجل او حفظ حقها من باقي المهر المؤجل وهذا يتضح من النصوص التي تبين اقرار الزوجة نفسها بالقبض (اقرار أم علي زوجة جبريل بن جعفر أنها قبضت من زوجها جبريل ... عن معجل صداقها وحازت وأبرءت زوجها ... من هاذين ؟ الدينرين)(٢٣) . (شهد الشهود على اقرار قطامة ابنت نصر .. انها قبضت من زوجها .. معجل صداقها(٢٤) . وهذا يوضح أن المرأة شخصيا معنية بالقبض ولها يحفظ الحق المؤجل ويشعر ذلك بشخصية المرأة واستقلاليتها المالية .

٦ ـ يبين نص العقد مسؤولية الرجل ، الزوج ، عما في العقد وانه كان عندما الزم نفسه بالشروط كامل الاهلية القانونية في الصحة والعقل والبدن (في صحة عقله وجواز امره لا علة به من مرض أو عره) سطر (١٧ـ١٨) .

٧ ـ ثم يحمل العقد التاريخ الذي كتب به وهذا نجده في جميع العقود دون استثناء .

٨ ـ خلو النص الذي بين أيدينا من الشهود لا يعني عدم وجودهم بل يفترض ذكرهم في ورقة منفصلة(٢٥) بل اننا نلاحظ المبالغة في ذكر اسماء الشهود أحيانا كما هو الحال في وثيقة عقد الزواج رقم ٣٩ لسنة ٢٦٤ هـ الذي يعدد أسماء وشهادات ستة

عشر شاهدا(٣٦) ، وفي وثيقة الزواج رقم ٤١ سنة ٢٧٩ وهو على الرق كان عدد الشهود خمسة وكتبت شهاداتهم بأيد مختلفة مما يشير الى أن كلاً منهم كتب شهادته بخط يده ، وهنا نود أن نذكر ان عبارة (كتب شهادته) أو (كتب بخطه) امر كثير الوجود في مثل هذه الوثائق(٣٧) .

٩ ـ وقد ترد في عقود الزواج شروط اخرى متعلقة بالعلاقة بين الزوجة واهلها بعد الزواج مثل (ولا يمنعها من أهلها ولا يمنع أهلها منها) وان لم يرد هذا الشرط في الوثيقة التي ذكرنا نصها هنا ، الا اننا نجده يتكرر في وثائق اخرى وفي وقت مبكر يسبق هذه الوثيقة ، ومثل هذا الشرط يحفظ حق الزوجة في استمرار علاقتها بأهلها في عقد الزواج ، وهي ليست حالة فردية لأنا نجد مثل هـذه العبارة متكررة وبنفس النص غالبا مما يشعر بتداول هذا الشرط غالبا(٣٨) .

وقد تحرر وثيقة منفصلة عن عقد الزواج (براءة) تعترف بها المرأة بما وصلها من زوجها من مهر معجل أو بما قبضت من المؤجل لاحقا . وفي هذه الحالية يتبين لنا ان مثل هذا الاقرار كان يكتب على نسختين كما يبدو من المثال التالي : ـ

١ ـ نسـ[خـ]ـت .

٢ ـ بسم الله الرحمن الرحيم .

٣ ـ شهد من اثبت شهادته في آخر هذه البراءة على قرار ام ع [ـ] زوجة جبريل بن جعفر الجدي انها

٤ ـ قبضت من زوجها جبريل بن جعفر دينارين مثاقيل (طري [جيا]د عن معجل صداقها وحازت ـ وابر[ء]ت ؟ زوجها جبريل بن جعفر

٥ ـ من هذين الدينارين براة قبض واستيفا وذلك في رجب من سنة سبع وتسعين ومايتين شهد على ذلك .... (٣٩) .

وتمثل مثل هذه الوثيقة مدى استقلالية شخصية المرأة الاجتماعية والمالية حيث كتبت البراءة باسم المرأة واقرارها لاثبات حق الزوج بالدفع واقرار زوجته بالقبض بشهادة الشهود ، كما تبين بشكل واضح أن البراءات (الصكوك) الخاصة كانت تكتب على نسختين يحتفظ كل من طرفي العقد بنسخته الخاصة(٤٠) ويبين الطحاوي في كتاب الشروط الصغير الذي يمثل اقدم ما وصلنا في فقه الشروط اي توثيق المعاملات والعقود ان مثل هذه الكتب تبدأ ب (هذا ما شهد عليه الشهود المسمون في هذا الكتاب)(٤١) .

ثم ينسق الكتاب حتى يؤتى على تاريخـه . أي ان هذه العبارة ترد في صـدر الكتاب قبل النص ، والطحاوي قريب جدا بل هو معاصر لتاريخ كتابة هذهالنصوص التي بين ايدينا كما انه مصري ايضا .

وقد يكتب بالمبلغ المؤجل من صداق المرأة صك (ذكر حق) على زوجها وبـذا فانه يكسب شرعية الدين للمرأة على زوجها ، ويكتب منفصلا عن عقد الزواج كما في الوثيقة التالية :

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم .

٢ ـ ذكر حق يونة ابنت حليصي على زوجها يزيد بن قاسم

٣ ـ الجرار عليه عشرة الدنانير ؟وزن المثاقيل الجديد عينا

٤ ـ ذهبا نقد جيد وهذا ؟ العشرة الدنانير ؟ حالة

٥ ـ ليونة ابنت حليصي على زوجها يزيد بن قاسم الجرار

٦ ـ والعشرة الدنانير ؟ بقية صداقها ومن قام بالذكر الحق

٧ ـ اقتضاه ومن احالت عليه اقر لها بحقها شهد على ذلك

٨ ـ اليسع بن عيسى وهو كاتب الصك وشهادته في انسلاخ

٩ ـ صفر سنة ثلث وثلثين ومايتين ..(٤٢) .

ثم تستمر الوثيقة بذكر الشهود وهم سبعة وعشرون شاهدا وقـد كتبت بعض الشهادات في وقت لاحق سنة ٢٤٥ في شوال وذي الحجة (سطر ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤) وبعضها كتب في نفس العام ولكن بتاريخ لاحق لتاريخ الصك (سطر ١١ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٢٤ شهر ربيع الاول) ويبين الطحاوي صيغة كتابة وثيقة ذكر الحق عموما كمايلي:

(ذكر حق فلان بن فلان الفلاني على فلان .. شهد على اقرار فلان .. يعني المطلوب وفلان .. يعني الطالب بجميع ما سمي ووصف في هذا الكتاب ثم تنسـيق الشهادة عليهما)(٤٣) .

وذكر الحق هو الصك والجمع ذكور حقوق ويقال ذكور حق أي صكـوك(٤٤) . واورد الطحاوي ضمن صيغ كتابة مثل هذه الذكور حق (من قام بهذا الذكر حق فهو ولي ما فيه)(٤٥) .

ومما يلفت الانتباه ان احدى وثائق عقود الزواج تحمل اسماء نصرانية (قبطية) لكلا الزوجين مما يحمل على الظن انه عقد زواج بين نصارى واذا كان كذلك فان النص يشبه الى حد كبير عقود الزواج الاخرى التي كانت عقود زواج اسلامية من حيث الشروط العامة للعقد كالمهر المعجل والمؤجل ووجود الولي كما نجد اشارة الى تقوى الله واحسان صحبة الزوجة ، ولكن ليس هناك اشارة (لامر الله ورسوله او الى فكرة الامساك بالمعروف او التسريح باحسان مثلا وربما لان فكرة الطلاق عند النصارى غير وارده في ذلك الوقت ونرى من المفيد اثبات نص وثيقة العقد التي تعود لشعبان سنة ٢٧١ هـ .

١ ــ بسم الله الرحمن الرحيم

٢ ــ هذا ما اصدق يحنس بن شنودة الساكن بمدينة اشمون دروا ابنت

٣ ــ شنودة الساكنة مدينة كذا عندما خطبها الى نفسها وهي امراة ايم بالغ تلي

٤ ــ نفسها ..(.. فلان بن فلان البقال واشهدت له شهودا

٥ ــ بتوكيلها اياه في انكاحها) ب فاصدقها اربعة دنانير

٦ ــ عينا ذهبا لمراته قبل اصابته بها ودخوله عليها دينرين نقدا جياد

٨ ــ خمس سنين متواليات اولهن شعبان من سنة احدى وسبعين ومايتين وعليه تقوا

٩ ــ الله وحده لا شريك له واحسان صحبتها وقد اوصل يحنس بن شنودة الدينرين

١٠ــ المعجلين الى امراته دورا (ابنت شنودة ..).. واقرت بوصولهما اليهاوذلك

١١ــ في العشر الاواخر من شعبان سنة احدى وسبعين ومايتين شهد على ذلك

١٢ــ ....(٤٦) .

ونستطيع ان نستخلص من الاستعراض السابق مايلي:

١ ــ ان المهر المؤجل كان في هذه الفترة بمثابة دين مؤجل للزوجة على زوجها ويفترض انه شكل نوعا من التسهيل على الزوج بالدفع خاصة واننا نجده مقسطا دائما بشكل واضح .

٢ ــ ان المراة كانت هي نفسها صاحبة الحق في المعجل والمؤجل من المهر وليس وليها فيصدر القبض والاستبراء منه عنها شخصيا وهذا يعني الاعتراف العملي باستقلال شخصيتها ماليا واجتماعيا .

٣ – يبدو ان الزوج كان يخطب المراة الى نفسها اولا ثم يتم توكيل الولي بعد موافقتها لاتمام الزواج تمشيا مع المبادىء الاسلامية.

٤ – ركزت بعض الشروط على عدم امكانية تحكم الزوج بعلاقة الزوجة مع اهلها بعد الزواج .

٥ – نجد من بين الشروط شرطا يعطي المراة الحق في التدخل في حالة تعدد الزوجات أو اتخاذ السراري وكأنه نوع من الحد من تعدد الزوجات .

٦ – هناك تشابه كبير بين نصوص عقد الزواج للمسلمين والنصارى في هذه الفترة.

ولا بد من التنويه في نهاية هذا البحث بان الدراسة التحليلية لهذهالوثائق لايمكن أن تعطي الحكم النهائي في موضوع عقود الزواج وحقوق المراة ودورها في حياة الاسرة بعامة ، لان النصوص قليلة جدا وتتناول جانبا واحدا من الموضوع وقد يكون هناك سواها وفيه من المعلوماتما يوضح ما ورد فيها، او يخالفه أو يعدله . كما أن في كتب الفقه الكثير ممالابد من الرجوع اليه في هذا المجال بشكل عام . ولكنا حرصنا على عرضها وتحليل ما ورد فيها وما يعطيهمن دلالات واشارات لايماننا بأهمية اعتماد النص المكتوب ، لا سيما اذا كان وثيقة اصلية في كتابة تاريخ امتنا السياسي والاجتماعي والاقتصادي والحضاري بعامة .

الحواشي :

(١) انظر : مالك بن أنس ، المدونة جـ٢ ص ١٦٠ – ١٨٩ طبعة دار الفكر للطباعة والنشر، دون تاريخ ولم يتطرق له فيالموطأ ، انظر : الموطأ، كتاب النكاح جـ٢ ص ٥٢٣ – ٥٣٠ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار احياء التراث العربي بيروت ١٩٨٥ . وكذلك الشافعي في الام جـ ٥ كتاب النكاح ص ٣ وما بعدها ، تحقيق محمد زهدي النجار ، مكتبة الكليات الازهرية طبعة أولى ، القاهرة ١٩٦١ ، السرخسي ، المبسوط جـ٥ باب المهور ص٦٢ وما بعدها طبعة دار المعرفة (أوفست) ، ابن قدامة ، المغني جـ ٧ ص ٣٣٧ وما بعدها . دار الكاتب العربي (أوفست) بيروت، ١٩٧٢ ابن عابدين ، حاشية ابن عابدين جـ٣ باب المهر ص ١٠٧ وما بعدها ، طبعة ثالثة – مصطفى البابي الحلبي – القاهرة ١٩٨٤ .

(٢) سورة الروم (٢١) .

(٣) البقرة (٢٢٩) انظر (٢٣١) .

(٤) النساء (٤) انظر آية (٢٠) .

(٥) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة نحل ج١١ ص ٦٥٠ (طبعة دار صادر – بيروت) .

(٦) النساء (٢٥) .

(٧) سيد سابق، فقه السنة، دار الكتاب العربي بيروت ، طبعة ثالثة ١٩٧٧ ج٢ ص ١٢٦ . وقال رواه احمد وابو داوود والترمذي .

(٨) سورة النور (٣٢) .

(٩) سيد سابق ، فقه السنة ج٢ ص ١٢٥–١٢٦.

(١٠) اي جديدة الغرب انظر جروهمان في أوراق البردي العربية جـ١ ص ٧٥ .

(١١) انظر جروهمان ، أوراق البردي العربية ج١ ص٧٣-٧٤ عقد زواج رقم (٣٨) يعود لسنة ٢٥٩هـ وكتب العقد على ورقة بردي صفراء وهذا النص لا يحمل أسماء الشهود ويفترض ان شهادة الشهود دونت في صك منفصل وهذا أمر معروف في بعض الوثائق البردية ، انظر جروهمان ، ج١ ص ٧٧-٧٨ ولذا فهذا النص لا نقص فيه من نهايته ، وهو كما يبدو شبه كامل لم يفقد منه شيء .

(١٢) ابن منظور - لسان العرب ، مادة ايم ج١٢ ص ٣٩ .

(١٣) مالك بن انس ، الموطأ طبعة محمد فؤاد عبد الباقي ، نشر دار احياء التراث العربي بيروت ١٩٨٦ ج٢ ص ٥٢٤ - ٥٢٥ .

(١٤) جروهمان ، ج١ ، ص ٨٥ عقد زواج سنة ٢٧١ .

(١٥) جروهمان ، ج١ ص ٨٨ عقد زواج رقم (٤١) سنة ٢٧٩ .

(١٦) الطحاوي ، ابو جعفر احمد بن محمد ت ٣٢١ هـ .
كتاب الشروط الصغير ، جزءان تحقيق روحي اوزجان مراجعة عبد الله محمد الجبوري ، نشر رئاسة ديوان الاوقاف ، سلسلة أحياء التراث الاسلامي (١١) ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٧٤ ج١ ص ١١ وجاء في احدى الوثائق وصف الزوجة انها (ايم بكر بالغ) انظر :
Grohmann, Arabische Papyri aus den Staatlichen museen zu Berlin, Der Islam (22) 1934 p. 48.

(١٧) انظر ابن منظور ، لسان العرب ، ايم ،ج١٢ ص٤٠ .

(١٨) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ثيب ، ج١ ص ٢٤٨ ، انظر مادة بكر ج٤ ص ٧٨.

(١٩) مالك بن انس ، الموطأ ، ج٢ ص ٥٥٢، انظر الموسوعة الفقهية ج٢ ص ١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٠ طبعة اولى ١٩٨٦ وزارة الاوقاف - الكويت .

(٢٠) انظر عقد زواج رقم ٣٠ مؤرخ بسنة ٢٦٤ ، جروهمان ج١ ، ص ٧٩ عقد زواج رقم ٤٢ يعود للقرن الثالث الهجري ج١ ٩٢-٩٣.

(٢١) انظر هامش رقم ٨ (الصفحة السابقة).

(٢٢) جروهمان ، اوراق البردي العربية ، ج١ ص١٠١ عقد زواج رقم (٤٥) سطر ١٢-١٥.

(٢٣) الوثيقة رقم (١٠) التي نشرها جروهمان ، في مجلة Der Islam عدد ٢٢ لسنة١٩٣٤ بعنوان
Arabische Papyri aus den Statlichen muessn zu Berlin p. 38.

(٢٤) جروهمان ، اوراق البردي العربية ج١ رقم ٤٥ ص١٠٠-١٠١ الاسطر ٨-١٠ .

(٢٥) مالك بن انس ، الموطأ ج٢ ص ٥٢٨ .

(٢٦) السرخسي ، المبسوط ج٢ ص ٨١.

(٢٧) جروهمان ، اوراق البردي العربية ج١ ص ٧٦ يقصد هنا المهور المتداولة على النطاق الشعبي بين الناس ولا يقصد بها الحالات الفردية التي قد نجدها بين الخلفاءوالامراء أو سواهم مما لا ينطبق على الحالات الطبيعية في المجتمع اذ لا قياس على الاستثناء او على الحالات المقصودة هنا .

(٢٨) وكذلك العقد رقم (٤٠ ، ٤٤ ، ص ٨٥ ، ص ٩٧) من المنشور في اوراق البردي العربية ج١ وعقود اخرى مشابهة ضمن اوراق مجموعة برلين رقم ١٢٧٨٩ ، ٧٢١٧ انظر جروهمان ، اوراق البردى العربية ج١ ص ٧٦ - ٧٧ .

(٢٩) البقرة (٢٢٩) انظر ايضا اية (٢٣١) النساء (١٩) الاحزاب (٤٩) .

(٣٠) جروهمان ، اوراق البردي العربية ج١ ص ٨٩ عقد رقم ٤١ لسنة ٢٧٩ سطر ٨–١٠.

(٣١) Grohmann, Arabische Papyri.. Der Islam, (22), 1934, p. 30-31.

(٣٢) مالك بن انس ، الموطأ ج٢ ص ٥٣ .

(٣٣) جروهمان ، اوراق البردى العربية ج١، ص١١٢ رقم ٤٩.

(٣٤) جروهمان ، اوراق البردى العربية ج١ ، ص ١١٤ رقم ٥٠ انظر وثيقة رقم ٤٥ . سطر ٧–٩ .

(٣٥) انظر جروهمان ، اوراق البردى العربية ج١ ص ٧٧–٧٨ .

(٣٦) جروهمان ، اوراق البردى العربية ج١ ص ٨٠–٨١ .

(٣٧) Grohmann, Arabische Papyri.. Der Islam, (22), 1934. Nr. 10, p. 37 .

وانظر ايضا ص ٤٠سطر ٢٥،٢٧ حيث اثبت الناشر كلمة Hand Zeichen بالالمانية وفعلا يظهر في الاصل (التوقيع) ويعود تاريخ هذا العقد لسنة ٢٩٥ .

(٣٨) انظر مثلا سطر ١٠ من الوثيقة رقم ٨ .. Grohmann, Arabische Papyri..

ورجح الناشر تاريخ العقد بالقرن الثاني الهجري وانظر ايضا رقم ١١ سطر ٨ص٤٥ اذ جاء النص (ولا يمنعها من زيارة أهلها ولا يمنع اهلها من الدخول عليها). وفيأوراق البردي العربية ج١ ، واعقد زواج رقم ٣٩ لسنة ٢٦٤ هـ سطر ١ ص ٧٨ ، عقد زواج رقم ٤١ لسنة ٢٧٩ هـ سطر ١٠ ص ٨٩نجد نفس النص المشار اليه (ولا يمنعها من أهلها ولا يمنع أهلها منها) .

(٣٩) جروهمان ، اوراق البردى العربية ،ج١ص ١١٢ وثيقة رقم ٤٩ لسنة ٢٩٧ ورد فيالاصل تاريخ الوثيقة ٢٩٩هـ ونعتقد انه خطامطبعي. انظر وثيقة رقم ٥٠ ص١١٤ ومضمونها :باقرار قطامة ابنة نصر الفران الساكنة بمدينة اشمون انها قبضت من زوجها (معجلصداقها الذي عقد به اليها)وتعود للقرنالثالثالهجري

(٤٠) انظر الطحاوي ، ابو جعفر احمد بن محمد ت٣٢١ – كتاب الشفعة من كتاب الشروط الصغير ج٢ ص ١١٠٠ – ١١٠٢ .وانظر ج١ ص ٤٥٥ ، ٤٦٤ . وهو جزءان تحقيقروحي اوزجان مراجعة عبد الله محمد الجبوري، نشر رئاسة ديوان الاوقاف ، سلسلة احياء التراث الاسلامي (١١) مطبعة العاني ، بغداد ١٩٧٤ .

(٤١) انظر الهامش السابق .

(٤٢) جروهمان ، اوراق البردي العربية ج١ ص١٠٦ – ١٠٨ رقم ٤٨.

(٤٣) الطحاوي ، كتاب الشروط الكبير ج١ ص ٤٦٤ .

(٤٤) انظر الزمخشري ، جار الله ابو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨) المفصل ، تحقيق عبد الرحيم محمود اوفست دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٩ ص ١٤٤ . الزبيدي ، محمد مصطفى ، تاج العروس تحقيق عبد الكريم الغرباوي ، وزارة الاعلام – الكويت –سلسلة التراث العربي (ح١) ١٩٧٢ ط ١ ص ٣٧٩. ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ذكر ج٤ ص٣١٠ .

(٤٥) الطحاوي ، الشروط الكبير ج١ ص ٤٦٥ وانظر الشروط الصغير باب اذكار الحقوق والرهون ص ٤٥٥ – ٤٦١ . قارن مع سطر ٦–٧ من الوثيقة .

(٤٦) جروهمان ، اوراق البردي العربية ج١ ص ٨٥–٨٦ عقد زواج رقم ٤٠ سنة ٣٧١ هـ وهو مكتوب على ورقة بردي (نود هنا ان نشير بوضوح ان الوثيقة او ناشرها لا تلمح الى كون الزوجين من النصارى وانما شجعنا على الظن على ما قلناه الاسماء النصرانية للزوجين وليس لدينا دليل واضح على ظننا الذي أقمناه على أساس عدم الاشارة الى سنة محمد (ص) او مسألة الامساك بمعروف أو التسريح باحسان .

العيارون والشطار
ودورهم في الحرب بين الامين والمأمون

د. محمد ارشيد العقيلي
ج. الامارات العربية المتحدة

العيارون والشطار لغة واصطلاحا :

العيارون جمع عيار ، والعيار لغة الشخص الكثير التجوال الذي يتردد على الاماكن بدون عمل . ويقال عار الفرس يعير ، أي ذهب أو انفلت يهيم على وجهه لا يثنيه شيء ،فهو عائر أي متردد وجوال . كما يطلق العيار على الوزان أو الكيال(١). وفي الفارسية يعني اللص الشريف . والشطار جمع شاطر وفعله الثلاثي شطر . ويقال شطر عن أهله أي نزح عنهم وهجرهم ، والشطارة تعني الانفصال والابتعاد . والشاطر من عصا ولي أمره وانشطر عن أهله وعاش في الخلاعة . ويتصف الشاطر بالدهاء والمكر والخبث والذكاء والحيلة(٢) .

وأما العيارون والشطار اصطلاحا فهم علم على طائفة من اللصوص الشرفاء المتمردين على واقعهم الاجتماعي ، ذاع صيتهم وتردد ذكرهم في بعض حقب الدولة العباسية لاسيما في مرحلة التفكك السياسي ، وأيام الفتن الاهلية او المذهبية أو الازمات الاقتصادية الخانقة ، او التفاوت الاجتماعي الطبقي البغيض .

ثمة قواسم مشتركة بين العيارين والشطار وبين من أطلق عليهم اسم الاحداث والزعار والدعار والعياق والحرافيش ، أو اصحاب المهن المتدنية الوضيعة(٣) من المعدمين والجياع والعاطلين عن العمل الذين أعجزتهم البطالة وطحنهم الفقر . اذ ان كلا منهم قد احترف اللصوصية وسيلة . ولكن مع اختلاف في الغايات ،وتفاوت في الاهداف والمرامي لهذه « الطوائف ».

وهذه الدراسة تتمحور اولا حول نشأة طائفة العيارين والشطار في العراق عامة وبغداد خاصة . وتفسير دوافع هذه الطائفة وغاياتها ، وهل تتميز عن اللصوص العاديين . وثانيا موقف هذه الطائفة من اجتياح جيوش المأمون التي تأتمر بأوامر قادة

دراسات تاريخية ، العددان ٤٩ / ٥٠ ، آذار ــ حزيران ١٩٩٤

من الفرس لمدينة بغداد ، ابان الحرب بين الامين والمأمون ، وتفسير هذا الموقف وما ترتب عليه من نتائج .

الصلة بين الصعاليك والعيارين والشطار :

ان الباحث لا يستطيع ان يتناول طوائف العيارين والشطار والفتيان ودورهم في المجتمع العربي الاسلامي دون ان يربط ذلك بطائفة الصعاليك(٤) في المجتمع الجاهلي. وذلك لما بينهما من وشائج عميقة في كثير من الدوافع والوسائل والغايات . فهي جميعها تصدر في سلوكها عن موقف مشترك رافض ومتمرد على الواقع الاجتماعي والسياسي في عصرها . والصعلكة في المجتمع الجاهلي تعتمد على لصوصية السيف والعقل ، ولكنها في جوهرها تقوم على النشاط الفردي أو البطولة الفردية . في حين تقوم حركة العيارين والشطار واضرابهم على النشاط الجمعي أو البطولة الجماعية ، وهي أشبه بتنظيم الجند أو النقابات المهنية .

وحركة الصعاليك في العصر الجاهلي هي تمرد على النظام الاجتماعي والاقتصادي ، لانهم وجدوا انفسهم ضحية لنظام جائر فرفضوه وتمردوا عليه فانشطروا « انفصلوا » عن قبائلهم فقابلتهم قبائلهم بدورها (بخلعهم) . وقد اسفر ذلك عن صراع مرير بين الجانبين ، بين الصعاليك الخلعاء وبين قبائلهم(٥). والصعاليك في الجاهلية طوائف ثلاث : الخلعاء الذين تبرأت منهم قبائلهم وطردتهم ، والاغربة السود الذي سرى لهم السواد من أمهاتهم الاماء فلم يعترف بهم اباؤهم العرب مثل تأبط شرا(٦) والشنفري(٧) ، ثم طائفة الفقراء والمتمردين الذين تصعلكوا نتيجة لظروفهم الاقتصادية السيئة ، ويمثلهم عروة بن الورد ومن التف حوله من فقراء العرب . ومن هذه الطوائف الثلاث تألفت عصابات انطلقت الى الصحراء يجمع بينها على اختلاف قبائلها الفقر والتشرد ، والتمرد على الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية والايمان بان الحق هو القوة .

وبذلك يتضح ان الظاهرة في حياة الصعاليك هي أنهم جميعا فقدوا توافقهم الاجتماعي . وقد انتهى بهم ذلك الى «سلوك صراعي» مع مجتمعاتهم(٨) .

ان ما يعنينا من طوائف الصعاليك ذلك الفريق الذي صدر في سلوكه عن موقف فروسي نبيل ، أو احساس مرير بالقهر الاجتماعي،لا عن نزعة شريرة متأصلة حاقدة، فطارد الاغنياء المترفين ، ولا سيما البخلاء منهم ، وتربص الدوائر بالقوافل التجارية، وآلى أفراده على انفسهم أن يثأروا من مجتمعهم ، وان يقتلوا من يعترض طريقهم .

وبذلك تكون الصعلكة كما يراها يوسف خليف(٩) نزعة انسانية نبيلة ، وضريبة يدفعها القوي للضعيف ، والغني للفقير ، بهدف تحقيق لون من الوان العدالة الاجتماعية ، واعادة التوازن الاقتصادي بين طبقتي المجتمع المتباعدتين . فالغزو والسلب والنهب لم يكن عند الصعاليك غاية بل وسيلة لتحقيق العدالة والتوازن الاجتماعي . ويجسد عروة بن الورد فلسفة هذا الفريق الاجتماعية والاقتصادية(١٠) ، معبرا عن تلك المعايير المادية التي تحكم عصره بمرارة وتهكم بقوله :

ذريني للغنى أسعى فإني ... رأيت الناس شرهم الفقير
ويقصيه النديّ وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير
وتلقى ذي الغنى وله جلال ... يكاد فؤاد صاحبه يطير

وكما عرف القرشي(١١) الصعلوك بأنه لص شاطر مغير ، فان مصادر اخرى اشارت الى أن الصعاليك هم شطار العرب في الجاهلية . كما ألحق ابو عبيدة البكري(١٢) صفة العيارة بهم في اطلاقه اسم اللص العيار على قرين بن الصاد الكلبي .

والملفت للنظر أن بعض المصادر العربية ذكرت أن بعض الصعاليك طاب لهم أن يطلقوا على أنفسهم « الفتيان » لاتصافهم بالفتوة الدالة على الشهامة والمروءة والفروسية والشجاعة والنجدة ، واغاثة الملهوف ، ونكران الذات(١٣) وغيرها من مقومات « الفتوة الشعبية » .

والجدير بالذكر أن صعاليك العرب أو شطار الجاهلية وعياريها انقسموا حسب دوافعهم النفسية والاجتماعية الى فريقين : فريق متمرد حاقد تنطوي نفسه على نزعة أنانية شريرة . وفريق تنطوي نفسه على نزعة خيرة غايتها حماية المستضعفين وتحقيق العدالة الاجتماعية . وأشهر من يمثل هذا الفريق عروة بن الورد ومن انضوى تحت لوائه(١٤) . وقد تغنى بعض الصعاليك ببطولاتهم شعرا ونثرا بفخر واعجاب(١٥) ، وحفرت بعض قصصهم مكانا في الذاكرة الشعبية العربية كسيرة عنترة بن شداد الذي تمحورت سيرته حول قضية التحرر الاجتماعي وظلت حية في الوجدان الشعبي في العصور الاسلامية .

وبذلك فان ظاهرة الصعلكة الجاهلية في نزعتها الانسانية التقت مع ظاهرة العيارة والشطارة في المجتمع الاسلامي . وقد اعطى معظم الباحثين تفسيرا أو مضمونا انسانيا لكلتا الظاهرتين من حيث اللقاء والتداخل بينهما من ناحية ، والتواصل من ناحية اخرى ، لان الظاهرتين تحملان في طياتهما فكرة انسانية رددتها العامة في كلا

العصرين الجاهلي والاسلامي الوسيط ، في الحكايات والقصص . ولا شك أن هاتين الظاهرتين التاريخيتين والشعبيتين تعكسان طموحا أو حلما جماعيا لتحقيق العدالة الاجتماعية والسياسية ، تتلاشى معه تلك الهوة السحيقة التي تفصل بين اقلية تملك معظم الثروة ، واغلبية ساحقة تعيش على الفقر والحرمان(١٦) .

وقد عبر احد الصعاليك والعيارين عن المرارة التي تتفاعل في نفسه بسبب التفاوت الاجتماعي وضيق ذات اليد بقوله :

وإني لأستحيي من الله أن أرى أجرجر حبلا ليس فيه بعير
وأن أسأل الخب اللئيم بعيره وبعران ربي في البلاد كثير

ولذلك فان طائفة من الصعاليك ، وكذلك من العيارين والشطار قد بررت وسوغت لنفسها اللجوء الى السرقة ، واعتبرت ذلك موضع فخر واعتزاز ومؤشرا على البطولة ، وأن تقوم بذلك في رابعة النهار . وقال احدهم :

معاذ الله أن أسرق بليل ولكني أجاهر بالنهار (١٧)

ولذلك فان الصعاليك من قبل والعيارين والشطار من بعد ، باعلانهم التمرد على بعض طبقات المجتمع ، وعلى الذين استأثروا لأنفسهم بالسلطة أو المال أو بهما معاً ، استهدفوا أن ينالوا بأسلوب غير شرعي ما يتصورون ويعتقدون أنه حق شرعي لهم . وسوف نجد أن ظاهرة التمرد هذه سوف تواجه بكل عنف وقسوة من السلطة القائمة، باعتبارها خروجا على القانون والسلطة الشرعية . ومن الطبيعي أن تشوه صورتهم من قبل مؤرخي السلطة الرسميين ، إما جهلا بأوضاع هذه الطبقة الاجتماعية المتردية أو ممالأة للسلطة القائمة . غير أن العيارين والشطار بالمقابل حظوا باعجاب العامة في عصرهم ، فتعاطفت معهم وأشادت بأفعالهم . وقد انتهى الارتقاء بالشطار والعيارين في التراث الشعبي الى مرتبة البطولة شبه ملحمية ، حتى رددت الالسنة أن اللص أحسن حالا من الحاكم المرتشي أو القاضي الذي يأكل أموال اليتامى(١٨) .

تطور ظاهرة العيارين والشطار حتى مطلع العصر العباسي :

ظاهرة العيارين والشطار ظاهرة عالمية لها بصماتها في المجتمعات الهندية والبابلية والفرعونية والعربية قبل الاسلام(١٩) . غير أن هذه الظاهرة كانت تتفاوت بين مرحلة وأخرى ، فتخبوا وتتلاشى حين تكون المجتمعات في حالة مد حضاري ،

وتظهر وتشتد حين تكون في حالة جزر . وهي عموما تنتعش في الحقب التاريخية التي تتعرض فيها المجتمعات للفوضى والتفكك والتجزئة ، وضعف السلطة المركزية أو التفاوت الاجتماعي الطبقي .

ففي العصر الجاهلي كما عرفنا كانت ظاهرة الصعلكة والشطارة وليدة الصراع الداخلي بسبب شح الموارد والفقر والجوع(٢٠) وما نجم عنه من فرز طبقة فقيرة معدمة لم تجد سوى الغزو والسلب والتلصص وسيلة لاستنقاذ نفسها من ذل الفاقة والحرمان ، مما دفعها الى التمرد . ولكن بعد ان أشرقت الجزيرة العربية بنور الاسلام تغيرت أوضاع الحياة العربية الاجتماعية والاقتصادية ولم يبق للصعلكة مكان فيها(٢١) وبخاصة في العهدين النبوي والراشدي ، بسبب ما نشره الاسلام من مبادىء سامية قائمة على العدالة ومبدأ تكافؤ الفرص ، ومسؤولية الامة عن أي حيف او جور اجتماعي يقع على كاهل الفقراء والمعوزين .

وفي العصر الاموي وجهت طاقات الامة نحو الجهاد ونشر الاسلام . ففضالة بن شريك مع أنه كان شاعرا فاتكا صعلوكا مخضرما أدرك الجاهلية والاسلام(٢٢) لم يصل الينا من شعره الا ما ورد من أخبار وأسماء اسلامية . وكان لابنه « فاتك » مركز اجتماعي مرموق في عهد عبد الملك بن مروان . وبرغم أن ثمة رواسب للصعلكة في شعر أبي خراش(٢٣) الاسلامي في تصويره للفقراء والجياع ذوي الثياب البالية ، فاننا نشهد صورة أخرى لتلك الحياة التي تغيرت ظروفها بسبب ما أحاط برقاب الصعاليك من ضوابط الدين الجديد. فلم يعودوا قادرين على المضي في حياتهم كما كانوا في الجاهلية، لأن مقياس الامور في ظل الحياة الاسلامية كان يقوم على الحق والعدل . ومع ذلك نجد رواسب تلك الحياة المتصعلكة التي أخلص لها أبو حراش في جاهليته اخلاصا عميقا ظلت آثاره تتسرب من حين لآخر في شعره الاسلامي . والجدير بالذكر أن ابنه حراش كان من أكثر المتحمسين للجهاد في سبيل الله .

ظاهرة العيارين والشطار في العصر العباسي الاول :

شهدت الدولة العباسية في عصرها الاول تغيرات شاملة في مختلف الميادين ، الثقافيه والاجتماعية والاقتصادية ... وما نجم عن ذلك من بروز ظاهرة التفاوت الطبقي ـ الاقتصادي ، ما ولدته من ردود فعل ، كان ضمنها أولى بوادر ظاهرة العيارين والشطار . ونتلمس بدايات هذه الظاهرة منذ عهد الخليفة العباسي المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩هـ) . ويذكر البلاذري بوادر هذه الظاهرة في مقاطعة « سيسر » التي كان بها مزوج لدواب الخليفة المهدي وأغنامه بقوله : « فلما كثر الصعاليك والذعار

وانتشروا بالجبل في خلافة المهدي أمير المؤمنين ، جعلوا هذه الناحية ملجأ لهم وحوزا. فكانوا يقطعون ويأوون اليها ولا يطلبون لأنها حد همذان والدينور وأذربيجان . فكتب سليمان بن قيراط وشريك معه يقال له سلام الطيفوري بخبرهم وشكيا تعرضهم لما في أيديهم من الدواب والاغنام ، فوجه لهم جيشا عظيما وكتب الى سليمان وسلام يأمرهما ببناء مدينة يأويان اليها وأعوانهما ورعاتهما ، ويحصنان فيها الدواب والاغنام مما خافاه عليها. فبنيا مدينة « سيسر » وحصناها وأسكناها الناس ، ووليها عامل، وكان خراجها يؤدى اليه »(٢٤) . ويقول الفقيه الهمذاني في حديثه عن « سيسر » أحد رساتيق همذان بقوله : « ولم تزل سيسر وما ولاها مراعي لمواشي الاكراد وغيرهم . فلما كثر الصعاليك والدعار وانتشروا في الجبل في خلافة المهدي ، جعلنا هذه الناحية ملجأ لهم ، فكانوا يقطعون ويأوون اليه ، فلا يطلبون ..... فكتب سليمان وشريكه (صاحبا صحراء وقيراط بمدينة السلام) الى المهدي بذلك . فوجه اليهما جيشا عظيما ، وكتب اليهما فأمرهما ببناء مدينة يأويان اليها مع أغنامهما ورعاتهما مما خافاه عليها . فبنيا مدينة « سيسر » ، وحصناها وأسكناها الناس »(٢٥) .

ويذكر البلاذري(٢٦) أيضا أن الصعاليك كثروا في خلافة أمير المؤمنين الرشيد وشعثوا سيسر ، فأمر ببنائها وتحصينها ، ورتب فيها ألف رجل من أصحاب خاقان الخادم السعدي . وفي آخر أيام الرشيد وجه الى سيسر مرة بن مرة العجلي ، ولم يزل مرة يؤدي الخراج عن سيسر في أيام محمد بن الرشيد (الامين) الى أن وقعت الفتنة . ثم أخذت سيسر من عاصم بن مرة ،فأخرجت من يده في عهد المأمون، ورجعت الى ضياع الخلافة . فولى عليها المأمون قائدا يدعى همام بن هاني العبدي على ان يتعاون مع أهلها ويحصنها من غارات الصعاليك(٢٧) .

من خلال ما سبق عن بدايات ظهور الصعاليك والدعار في رستاق سيسر ، يتبين ان بوادر هذه الظاهرة كانت في مطلع العصر العباسي وفي شرق دار الخلافة . وان هذه الظاهرة لم تكن تشكل خطرا كبيرا يهدد سلطة الدولة . وذلك لان الدولة كانت لا تزال قوية متماسكة ، وفي أوج مجدها السياسي والحضاري ، ولا تزال قبضتها قوية حتى على الاطراف. ولم تكن غاية الصعاليك والعيارين حتى عهد الرشيد سوى ان يتعرضوا لقافلة أو سفينة ، فيختلسوا على حين غرة الشيء الطفيف الذي يسد عوزهم .

دور العيارين والشطار في احداث الحرب بين الامين والمامون :

نعود جذور الصراع على السلطة بين الامين والمأمون الذي استمر خمس سنوات سالت خلالها دماء أهل العراق وخراسان وانتهى بمقتل الامين ، الى ذلك القرار

السياسي الذي اتخذه الرشيد بتقسيم الخلافة بين أبنائه الثلاثة(٢٨) . وما ذهب اليه بعض المؤرخين المحدثين امثال فلوتن وولهاوزن(٢٩) من تفسير عنصري لهذه الحرب ، وأنها حرب فارسية عربية ، تفسير غير واقعي ، فالمأمون برغم أنه كان معه بعض العناصر الايرانية التي أسلمت حديثا مثل الفضل بن سهل ، فقد كان معه أيضا العديد من العرب ، كما كان في جيش الامين الى جانب العرب عناصر ايرانية ، مع أرجحية العنصر الفارسي عند المأمون والعربي عند الامين . كما أن الامين لم يحاول جذب العرب والتوسل بالنزعة العربية الا في فترة متأخرة من هذا النزاع ، مما أهاج عياري بغداد وشطارها للدفاع عنه في حصار بغداد ضد التيار الفارسي الذي يحيط بالمأمون.

ويرى المستشرق الفرنسي سورديل أن الدوافع الحقيقية للنزاع بين الامين والمأمون تكمن في اختلاف النزعة الدينية الفكرية لكلا المعسكرين(٣٠) ، الا أنني أرى ان أفضل تفسير لهذه الحرب أنها نزاع اقليمي بين العراق وخراسان على أيهما سيكون الاقليم المركزي للدولة يتمتع بامتيازاتها ، تماما كما ظلت بلاد الشام ناقمة على العباسيين منذ أن نقلوا عاصمتهم من دمشق الى الهاشمية ثم الى بغداد في العراق . وقد تمحور هذا التأقلم حول الفضل بن الربيع ممثل الكتلة العربية في بلاط الامين ، والفضل بن سهل ممثل الكتلة الفارسية في بلاط المأمون ، ولعبت الطموحات الشخصية لكلا الشخصين دورا بارزا في تأجيج مشاعر الاخوين ضد بعضهما البعض وتفجر الموقف الذي انتهى باجتياح طاهر بن الحسين قائد المأمون لمشرق العالم الاسلامي في طريقه الى العراق وقتل علي بن عيسى بن ماهان قائد الامين ، واحتلال معظم مدن العراق ، ثم محاصرة الامين في بغداد(٣١) .

والجدير بالذكر أن ظاهرة العيارين والشطار أخذت تلفت انظار المؤرخين منذ أن حاصر طاهر بن الحسين بغداد . وحين ضيق طاهر الخناق على مداخل المدينة من الشرق ثارت العامة فيها دفاعا عن الامين الخليفة الشرعي ، ويشير ابن الاثير(٣٢) أنه في سنة ١٩٦ هـ نقب أهل السجون السجون ، وخرجوا منها ، وفتن الناس وساءت أحوالهم ، ووثب الشطار على أهل الصلاح . ويقصد بأهل الصلاح كبار التجار والاثرياء والقواد .

وسبب ثورة العيارين والشطار على التجار والاثرياء هو تخاذل هؤلاء في نصرة الامين حينما رميت بغداد بالمجانيق والعرادات في مطلع عام ١٩٧ هـ ودب فيها الخراب هدما وحرقا(٣٣) . وقد هرب معظم قواد الامين ، وتخاذل جنده واستسلم معظمهم . وكان عيارو بغداد وشطارها وعامتها وأوباشها وأهل السجون هم رموز موازرته والدفاع عن بغداد . وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير الطبري بقوله : « فذلت الاجناد ،

وتواكلت عن القتال ، الا باعة الطريق والعراة ، وأهل السجون والاوباش والرعاع والطرارين وأهل السوق »(٣٤) . وقد ذكرهم أيضا ابن الاثير وسماهم « الغوغاء والفساق »(٣٥) .

معركة قصر صالح :

أحكم طاهر بن الحسين حصار بغداد ، لكنه فشل في اقتحامها لضراوة مقاومة العيارين ، ويذكر الطبري ان ظاهرا ظل يقاتلهم لا يفتر ولا يمل ولا يني عن ذلك(٣٦) ولكنهم أعجزوه . وحدثت حول قصر صالح بين قواته والعيارين معركة من أشرس المعارك بين العرب والفرس واستمات العيارون في الدفاع عن المدينة والقصر . وبرغم أن قائد الامين الموكل بقصر صالح علي افراهمرد قد استسلم وسلم ما بيده الى جند طاهر ، وكذلك صاحب شرطته محمد بن عيسى ـ وكان مجدا في نصرته ـ كما استسلم اخرون ، الا ان الفواة والعيارين قاتلوا قوات طاهر قتالا شديدا داخل القصر . وقد اورد الطبري : « فلما استأمن هذان الى طاهر اشفى الامين على الهلاك، واقبلت الغواة من العيارين ، وباعة الطريق ، والاجناد ، فاقتتلوا داخل قصر صالح قتالا عظيما »(٣٧) . كما يذكر ابن الاثير انه قتل من اصحاب طاهر جماعة كثيرة، ومن قواده جماعة . ولم تكن وقعة قبلها ولا بعدها أشد على طاهر منها(٣٨) .

ويسترسل الطبري في وصف المعركة وضراوتها داخل القصر بين العيارين وقوات طاهر بن الحسين : « وقتل في داخل القصر ابو العباس يوسف بن يعقوب ومن كان معه من القواد والرؤساء المعدودين . وقاتل فراهمرد وأصحابه خارجا من القصر حتى فل وانحاز الى طاهر . ولم تكن وقعة قبلها ولا بعدها اشد على طاهر واصحابه منها ، ولا اكثر قتيلا وجريحا مقعورا من أصحاب طاهر من تلك الوقعة . فاكثرت الشعراء فيها القول من الشعر ، وذكر ما فيها من شدة الحرب» (٣٩) .

وقد اسفر ذلك عن تدمير بغداد واحتراقها لاول مرة في التاريخ ، وتعرض كل من جانبي المعسكرين الى حرق وتدمير من قبل الطرف الاخر . وقد رثى الشعراء بغداد رثاء يفيض ألما وحسرة على ما ألم بها من مصير ، وحتى احد شعراء العيارين الذين أطلق عليهم الطبري اسم « فتيان بغداد » رثاها بقصيدة نجتزىء منها(٤٠) :

بكيت دما على بغداد لما ... فقدت عضارة العيش الانيق

تبدلنا هموما من سرور ... ومن سعة تبدلنا بضيق

اصابتها من الحساد عين ... فأفنت أهلها بالمنجنيق

فقوم احرقوا بالنار قسرا　　ونائحة تنوح على عريق
وقوم اخرجوا من ظل دنيا　　متاعهم يباع بكل سوق
فلا ولد يقيم على أبيه　　وقد هرب الصديق بلا صديق
ومهما أنس من شيء تولى　　فاني ذاكر دار الرقيق

وقد تناول الحريمي وهو شاعر مأموني احداث بغداد ووصف ما جرى فيها بقصيدة طويلة من نحو مائة وخمسين بيتا أورد الطبري نصها كاملا في حين تركها ابن الاثير لطولها(٤١) وقد أنحى الشاعر باللائمة على الذعار والشطار والعيار وغيرهم ، وكان يرى أن دفاعهم عن بغداد هو الذي جلب لها الحرب والدمار . غير أنه لا ينكر أن المسؤولية تقع على الطرفين المتقاتلين . نجتزىء من هذه القصيدة بعض الابيات التي فيها ذكر للعيارين والشطار(٤٢) .

وصار رب الجيران فاسقهم　　وابتز امر الدروب ذاعرها
يحرقها ذا وذا يهدمها　　ويشتفي بالنهاب مشاطرها
والكرخ أسواقها معطلة　　يستن عيارها وعاثرها
كتاب الهرش تحت رايته　　ساعد طرارها مقامرها
خرجت الحرب من اراذلهم　　أسود غيل علت قساورها

وهذه القصيدة تعكس رأي أنصار المأمون من خلال الشائعات التي روجوها بأن الامين وجنده والعيارين والشطار وغيرهم هم الذين أحرقوا مدينة بغداد . كما أن هناك قصائد أخرى تذهب هذا المذهب بوضع المسؤولية على الحركة الشعبية ومن يمثلها من الشطار والعيارين . من هذه القصائد قصيدة طويلة للشاعر البغدادي الاعمى الذي كان متعصبا للمأمون ومنها(٤٣) :

وصار رئيس القوم يحمل نفسه　　وصار رئيسا فيهم كل شاطر

بيد أن الطبري كان أكثر موضوعية وحيادا حين نسب ما حدث من سلب ونهب الى « اللصوص والفساق » دون أن يذكر العيارين بينهم ، فقال « وكان اللصوص والفساق يسلبون من قدروا عليه من الرجال والنساء والضعفاء من اهل الملة والذمة »(٤٤) .

وبرغم أن المسعودي(٤٥) فيما يروي يقرن بين العيارين و « من أهل السجون »، الا أن رثاء العيارين لمدينةبغداد يعكس مشاعر هذه الطائفة ومروءتها ، ولو كان العيار لصاً لما صدرت عنه مثل هذه الاقوال والافعال التي سنأتي على ذكرها ، والتي تفيض نبلا وعفة ومروءة . فالسطو على النساء لم يكن من شيم الشطار والعيارين ولذلك فان رواية الطبري تنطوي على اعجاب بهم خاصة عندما لاذ أكثر قادة الامين بالفرار أو آثروا السلامة بانضمامهم الى قوات طاهر بن الحسين ، وثبت العيارون والعامة من أهل بغداد واستماتوا في الدفاع عن بغداد ودحروا الجند الخراسانيين مرارا .

وليس أدل على اقدام العيارين والشطار وقوة بأسهم من هذه الحكاية التي أوردها الطبري(٤٦) والمسعودي(٤٧) وابن الاثير(٤٨) : « أن قائدا من قواد أهل خراسان ممن كان مع طاهر من أهل النجدة والبأس خرج يوما الى القتال ، فنظر الى قوم عراة، لا سلاح معهم ، فقال لاصحابه : لا يقاتلنا الا من أرى ؟ استهانة بأمرهم واحتقارا لهم، فقيل له : نعم هؤلاء الذين ترى هم الافة ، فقال أف لكم حين تنكصون عن هؤلاء وتخيمون عنهم ، وانتم في السلاح الظاهر والعدة والقوة ، ولكم مالكم من الشجاعة والنجدة . وما عسى أن يبلغ كيد من أرى من هؤلاء ، ولا سلاح معهم ، ولا عدة لهم ، ولا جنة تقيهم . فأوتر قوسه وتقدم ، وابصره بعضهم ، فقصد نحوه ، وفي يده بارية قصيرة ، وتحت ابطه مخلاة فيها حجارة فجعل الخراساني كلما رمى بسهم استتر منه العيار ، فوقع في باريته أو قريبا منه ، فأخذه فجعله في موضع من باريته ، وقد هيأه لذلك ، وجعلهشبيها بالجعبة . وجعل كلما وقع منه أخذه ، وصاح دانق ، اي أن ثمن النشابة دانق قد أحرزه ، ولم تزل تلك حالة الخراساني وحال العيار حتى أنفد الخراساني سهامه ، ثم حل على العيار ليضربه بسيفه . فأخرج من مخلاته حجرا فجعله في مقلاع فرماه ، فما أخطأ به عينه ، ثم ثناه بآخر . فكاد يصرعه عن فرسه لولا تحاميه ، وكرّ راجعا وهو يقول : ليس هؤلاء بانس ، قال : فحدثت أن طاهرا حدث بحديثه فاستضحك وأعفى الخراساني من الخروج للحرب » .

وكان طاهر بن الحسين اعرف بحقيقة هؤلاء العراة العيارين ، فهم وحدهم الذين أفقدوه خيرة جنده وقواده ، وحالوا دون سقوط بغداد بأيدي قواته ، في حين كان موقف تجار بغداد واثريائها متخاذلا ، لا يأبهون لسقوط المدينة . وهذه المواقف المتباينه جعلت أهل بغداد والعامة والمستضعفين فيها ينظرون نظرة ازدراء واحتقار لاغنياء بغداد وكبارها ، ونظرة تقدير واعجاب الى العراة العيارين ، الذين كانوا بنظرهم ابطال بغداد الحقيقيين ولو هزموا في النهاية . مدحهم احد شعراء بغداد المجهولين(٤٩) في قصيدة منها :

ليس يدرون ما الفـرار اذا الابـ طال عاذوا من القنـا بالفـرار
واحـد منهم يشد عـلى الفـين عريــــان مـالــه مــن ازار
ويقـول الفتـى اذا طعن الطعـ نة : خذهـا مـن الفتى العيـار

وبرغم ان بعض قادة الامين وجنده تخلوا عنه واستسلموا ، ومنهم عبد الله بن حميد بن قحطبة الطائي واحوته وولد الحسن بن قحطبة ، ويحيى بن علي بن ماهان، ومحمد بن أبي العاص(٥٠) . الا أن ذلك لم يفت في عضد العيارين ، ولم يزدهم الا تصميما على الدفاع عن بغداد . فواجه بعض قادة المأمون وخاصة عبد الله بن الوضاح و « هرثمة » هزائم منكرة على يدهم . وكان من غيظ جند هرثمة وصفهم بـ « اولاد الزنـا » في حين وصفهم بعض اصحاب هرثمة وقد داخله العجب في أمرهم وقوة بأسهم بقوله(٥١) :

يفنى الزمـان وما يفنى قتالهـم والدور تهـدم والامـوال تنتقص
يأتوننـا بحديـث لا ضيـاء لـه في كل يـوم لاولاد الزنـا قصص

لكن الغريب والملفت للنظر انه في الوقت الذي كانت بغداد تنهب أو تحرق على يد جند الامين تارة وبأمر منه(٥٢)، وعلى يد جند طاهر بن الحسين تارة وبأمر منه ،فان ذلك كان ينسب الى العيارين.ومع ذلك فان هؤلاء لم ينثن لهـم عـزم ، واستماتوا في الدفاع عن بغداد ، ومناصرة الامين حتى النهاية .

وقعة الكناسـة :

يتلخص خبر هذه الوقعة كما ورد في الطبري(٥٣) في ان طاهر بن الحسين احاط بغداد بعدد من قواده، فجعل العلاء بن الوضاح في أصحابه على الوضاحية ، وجعل نعيم بن الوضاح فيمن كان معه من الاتراك وغيرهم على شاطىء الصراة . واستمر القتال اشهرا حتى ان طاهرا باشر القتال بنفسه ، وقتل فيه عدد كبير من أصحاب الامين . وقد وصف هذه الوقعة الشاعر عمرو بن عبد الملك بقصيدة طويلة مطلعها :

وقعــة يـوم الاحــد صارت حديث الابــد
كـم جسد أبصرتــه ملقى وكـم مـن جسـد

وفي الابيات الاخيرة منها ندد باتباع الامين ومنهم العيارون بانهم بلا أصول وبلا قضية ، وان الامين لو انتصر لن يكترث بهم أو أن يلتفت اليهم :

من أنت يا ويلك يا مسكين من محمد

وقعة درب الحجارة :

وهذه الوقعة من الايام المشهودة بين قوات طاهر واتباع الامين الذين كان معظمهم من العيارين ، وكانت الغلبة فيها لاصحاب محمد علي أصحاب طاهر من الجند الخرساني(٥٤) ، قتل فيها اعداد غفيرة من اصحاب طاهر ، وندد شاعر مأموني في أعقابها باتباع الامين من العامة والعيارين في قصيدة منها(٥٥) .

وقعة السبت يوم درب الحجارة قطعت قطعة من النظارة
ذلك من بعد ما تفانوا ولكن أهلكتهم غوغاؤنا بالحجارة
اخرجته من بيتها أم سوء طلب النهب أمه العيارة
ليس هذا زمان كريم ذا زمان الانزال أهل الزعارة

وقعة باب الشماسية :

وهي من الايام الحاسمة الكبرى بين اتباع طاهر بن الحسين وبين العيارين والشطار والذعار انصار الامين ، وقد مرت بمراحل وكان فيها عدة جولات . كان على راس قوات طاهر هرثمة بن اعين ، وعبيد الله بن الوضاح ، وأبرز قواد الامين حاتم ابن الصقر . وقد أوعد حاتم اصحابه الغزاة والعيارين أن يباغتوا عبيد الله بن الوضاح ليلا . فأوقعوا به وقعة وأزالوه عن موضعه وولى هاربا تاركا الخيل والسلاح والمتاع . وسيطر حاتم على الشماسية(٥٦) . فخف هرثمة بن أعين لنصرة ابن الوضاح فوافاه اصحاب الامين في جولة ثانية وتمكنوا من دحر قواته ، ووقع هرثمة نفسه في الاسر . لكن ما لبث ان خاصه احد جنده . وطارد أصحاب الامين فلول جيش هرثمة ، ولم يتمكنوا من استثمار هذا النصر بسبب حلول الليل ، وما شغلوا فيه من النهب والسلب(٥٧) . ولم يتمكن هرثمة من تجميع صفوف جنده الا بعد يومين . وقد نظمت أشعار كثيرة في هذه الجولة منها ما قاله عمرو الوراق شاعر طاهر بن الحسين يندد بالعيارين ويتهكم عليهم ويستخف بهم :

عريـــان ليـــس بـــذي قميص		يغـــدو على طلـــب القميـــص
في كفـــــــه طـــــرارة		حمـــــراء تلمـــع كالفصـــوص
حرصا عـــلى طلـب القتـــال		أشـــد مـــن حرص الحريـص

ولما بلغ طاهر ما صنع العراة وحاتم بن ابي الصفر بابن الوضاح وهرثمة ، اشتد عليه ذلك . فأمر بعقد جسر على دجله فوق الشماسية ، وعبأ أصحابه وخرج معهم الى الجسر استعدادا لجولة فاصلة . فعبروا اليهم وقاتلوهم أشد قتال حتى ردوا الى أصحاب الامين وأزاحوهم عن الشماسية ، واستردوا الاسرى وقتل من العراة بشرا كثيرة(٥٨) . وكما هي العادة فان عمرو بن انوراق شاعر طاهر بن الحسين نظم قصيدة في هذه المناسبة تهكم فيها على العيارين وسخر من سلاحهم وطبلهم نجتزىء منها بعض الابيات(٥٩) .

ضربـــوا طبلهـــم فثـــار اليهـــم		كل صلـــب القنـــــاة والساعدين
أو وزيـــر ام قائد بـــل بعيـــد		انت من ذين موضـــع الفرقديـــن
كم بصـــير غدا بعينين كي يبـــ		ـصر ما حالهـــم فعـــاد بعـــين

ورغم أن هؤلاء العيارين بنظر هذا الشاعر لا يتطلعون الى مراكز قياديـــة كالوزارة او غيرها ، « اين من ذي موضع الفرقدين » ، الا انهم استماتوا في مقاومة قوات طاهـــر والدفاع عن بغداد ، وكان سلاحهم المسمى « المطرد » لا يخطىء ما يريدون ولا يصيب الا العينين .

وقد ترتب على هزيمة أصحاب الامين في الجولة الاخيرة مـــن وقعة الشماســـية نتائج هائمة أبرزها أن الذعر والهلع دب في صفوف قواته ، ففر معظمهم الى المدائن . كما أدرك التجار والاثرياء أن لا أمل لهم في الامين وخافوا على أنفسهم من « الغوغـــاء والسفلة » والعيارين . وتداعوا واتفقوا على مكاتبة طاهر بن الحسين للدخول في طاعته . وعلى تبروئهم ممن سموهم على حد تعبيرهم بالسفلة الذين ليست لهم في بغداد دور ولا عقار ولا مأوى سوى الحمامات والمساجد ، وقد برر هؤلاء موقفهم بأنهم لا طاقة لهم بهؤلاء الاوباش والعيارين . وقد أورد الطبري(٦٠) النص الكامل للكتاب الذي وجهـــه هؤلاء التجار الى طاهر بن الحسين . ومضمونه يدل دلالة واضحة على أن هذه الطبقة من الاثرياء كانت تسير وفق مصالحها ، اذ عندما كانت للعامة ـ أو من يطلق عليهم الاثرياء اسم الاوباش وأهل السجون والعيارين ـ حماة بغداد وحماة هؤلاء الاثرياء من

هجمات قوات طاهر . هذا في حين تنصلت جماعة اخرى من الدخول في طاعة طاهر خوفا على انفسهم وأموالهم من مطاردة من سموهم بالسفلة في بغداد : « والرأي الا تشهروا انفسكم بهذا ، فانا لا نأمن ان رآكم أحد من السفلة أن يكون به هلاككم ، وذهاب أموالكم والخوف من تعرضكم لهؤلاء السفلة أعظم من طلبكم براءة الساحة عند طاهر خوفا ، بل لو كنتم من أهل الاثام والذنوب ، لكنتم الى صفحه وتغمده وعفوه أقرب فتوكلوا على الله تبارك وتعالى وامسكو ، فأجابوهم وامسكوا »(٦١) .

ومهما يكن الامر فانه من الطبيعي في حالة الفوضى والذعر التي أصابت بغداد أن تختلط الامور وتتعدد الولاءات ، وأن يبحث كل فريق عن النجاة بأية وسيلة . لذلك رأينا فريقا يطلب النجاة في موالاة طاهر ، وفريقا آخر يتخوف من عاقبة موالاة طاهر بأنها ستثير العامة والعيارين في بغداد ضدهم .

ومما زاد الامور تعقيدا واضطرابا أن طاهرا انتهج سياسة ماكرة ذكية وهي مراسلة بعض قادة الامين ورجاله ، يحذر هم من مغبة موقفهم ، وانه سيستولي على ضياعهم . ففر معظمهم واستبقوا الاحداث وانضموا الى صفوف قوات طاهر ، بعد ان شاهدوا بأم أعينهم ان ميزان القوى يسير لغير صالح الامين، ثم ان طاهرا دعا العيارين أيضا وهم القوة الرئيسية التي بقيت تناصر الامين وتذب عن بغداد بقوة واخلاص ، دعاهم للكف عن القتال والاستسلام ، له على أن يؤمنهم على أرواحهم . فرفضوا على الرغم من هزائمهم المتوالية(٦٢) . وقد عبر عمرو الوراق عن هذا الموقف بقصيدة منها :

نادى منادي طاهر عندنا — يا قوم كفوا واجلسوا في البيوت

فثارت الفوغاء في وجهه — بعد انتصاف الليل قبل القنوت(٦٣)

والذي ينبغي أن يسجل في هذا المقام أمران ، الاول : أن العيارين صمدوا صمود الابطال في الدفاع عن بغداد مؤمنين بعدالة قضيتهم ، رغم ما كال لهم خصومهم من تهم وما أثاروا حولهم من شكوك وشبهات ، وما وجه لهم من تحقير وسخرية . ولولا ايمانهم بعدالة قضيتهم لما استماتوا في حرب طاهر بن الحسين من بيت لبيت ومن شارع لشارع(٦٤) . وكان بمقدورهم لو كانوا لصوصا ، ان يهربوا ويستنفذوا أرواحهم وهم ــ كما وصفهم بعض تجار بغداد ــ لا دور لهم ولاعقار . ولا يسعنا الا القول بان هؤلاء العيارين كانوا يحاربون عن بغداد العربية في وجه ما اعتقدوا انه سيطرة فارسية استظلت بالمأمون في سبيل استئصال شرعية الخلافة ممثلة بالامين.

والثاني : ان أثرياء بغداد وكبار تجارها وبعض قادتها كشفوا عن حقيقة موقفهم بعد ان انقلبت نتائج الحرب لصالح المأمون ، فتخلوا عن الامين الخليفة الشرعي من ناحية ، وتنصلوا من الغوغاء والسفلة والعيارين ، الذين سبق أن دافعوا عنهم وحموا اموالهم ودورهم من ناحية أخرى . وبذلك انكشفت النوايا وتحددت المواقف ، بعد ان اتضحت هزيمة العيارين . وهذه المواقف تنطوي على نزعة طبقية من قبل الاثرياء وكبار التجار على اعتبار انهم يمثلون فئة اجتماعية تنظر بمنتهى الازدراء والتحقير للعيارين وأمثالهم ، اضافة الى ان هذه الطبقة يهمها بالدرجة الاولى ان تحافظ على مصالحها المادية والاقتصادية . وقد عبر احد شعراء طاهر عن هذا الاتجاه بقوله(٦٥).

أي دهـر نحـن فيـه	مـات فيـه الكبـراء
هذه السفلة والغـو	غـاء فينـا امنـاء

وقد أسفرت المعارك عن رجحان كفة قوات طاهر وانهيار المقاومة في صفوف الامين . وأصيب الناس بالهلع والجوع لشح الموارد وارتفاع الاسعار . وزاد الطين بلة ان جند المأمون احرقوا المنازل ، ومنها منازل الامين بالخيزرانية(٦٦) ، التي انفق على بنائها عشرين مليون درهم . وكانت سقوفها مرصعة بالذهب . وفي عام ١٩٨ هـ ضعف امر الامين وايقن بالهلاك ، ووجه التهم لاحد قادته البارزين وهو عبد الله بن خازم بن خزيمة ، وتحامل عليه السفلة والغوغاء على حد تعبير الطبري(٦٧) مما حمله على مكاتبة طاهر والهرب مع أسرته الى المدائن . وعندما أحكم الحصار على بغداد وضاقت الحال اوعز الامين الى قائد من قواده يقال له ذريح أن يتعقب اصحاب الاموال والودائع والذخائر من أهل الملة(٦٨) ورفده بشخص عرف بالهرش . فكانا يهجمان على الناس ويأخذان اموالهم بالظنة . فتجمعت اموال كثيرة ، ولكن العواقب كانت وخيمة ، اذ فر معظم الناس من بغداد بعلة الحج(٦٩) فاضطرب الامر ، وعمت الفوضى وتأزم موقف الامين .

هده الاوضاع المتردية كانت ايذانا بالمعركة الفاصلة بين الفريقين في جزيرةالعباس وذلك أن الهرش ومن معه من العيارين خرجوا الى هذه الجزيرة ، فتصدى لهم اتباع طاهر وحصل اقتتال شديد كانت الغلبة فيه للعيارين . ولكن طاهرا أمد اصحابه في اليوم التالي بجند كثيف ، فدارت الدائرة على العيارين وقتل منهم اعداد غفيرة ، ولاذ الباقون بالفرار(٧٠) .

وأصيب الامين في أعقاب ذلك باحباط شديد ، ونسب اليه انه قال : « وددت ان الله قتل الفريقين جميعا ، فأراح الناس منهم ، فما منهم الا عدو لي ، أما هؤلاء فيريدون مالي ،واماأولئك فيريدون نفسي »(٧١) . وبذلك ضعف امر الامين ، وتفرق جنده ، وايقن بظفر طاهر به .

الا أن اعدادا غفيرة من الصعاليك والعيارين ظلت موالية للامين حتى اللحظات الاخيرة من حياته وتذكر المصادر ان الامين حين هم لخمس ليال بقين من محرم عام ١٩٨هـ بتسليم نفسه الى القائد المأموني هرثمة بن أعين دخل اليه الصعاليك من أصحابه ، وهم فتيان الانبار والجند فقالوا له(٧٢) : يا أمير المؤمنين ، ليس معك من ينصحك ، ونحن سبعة الاف رجل مقاتلة(٧٣) ، وفي اصطبلك سبعة الاف فرس (يحمل كل منا على فرس) ونفتح بعض ابواب المدينة ، ونخرج في هذه الليلة ، فما يقدم علينا احد الى ان نصير الى بلد الجزيرة وديار ربيعة ، فنجتبي الاموال ، ونجمع الرجال ، ونتوسط الشام ، وندخل مصر ، ويكثر الجيوش والمال ، وتعود الدولة مقبلة جديدة ، فقال : هذا الله بالراي ، فعزم على ذلك وهم به وجنح اليه . وكان لطاهر في جوف دار الامين غلمان وخدم من خاصة الامين يبعثون اليه بالاخبار ساعة ساعة . فخرج الخبر الى طاهر من وقته . فخاف طاهر ، وعلم انه الرأي ان فعله ، فبعث الى بعض قواد الامين مهددا « ان لم تزيلوه عن هذا الرأي لاخربن دياركم وضياعكم ولازيلن نعمكم ، ولاتلفن نفوسكم ، فدخلوا على الامين . في ليلتهم فأزالوه عن هذا الرأي. واتاه هرثمة في الحراقة الى باب خراسان ، فدخل الامين الحراقة ، وكان يرتاح الى هرثمة ، غير ان طاهر نمي اليه خروج الامين ، فبعث ببعض رجاله فدفعوا الحراقة فانقلبت بمن فيها ، فنجا هرثمة وألقي القبض على الامين ، فقتله جند المأمون .

وكان العيارون قد حذروا الامين من الاستسلام ، وقالوا : « حرب من الداخل وحرب من الخارج »(٧٤) . بمعنى أن بطانة الامين وبعض قادته عندما هددهم طاهر وارغمهم على حمل الامين على عدم الخروج مع الصعاليك والعيارين ، كانوا أشد حربا عليه من جيوش طاهر التي تطوقه من الخارج ، وبوادر الخيانة التي ظهرت بفترات متعاقبة من حصار بغداد ، وآخرها هذه الخيانة .

ولكن ، ماذا كان مصير هؤلاء العيارين والشطار والصعاليك الذين أدينوا من السلطة العباسية في ظل الحكم الجديد ، كما أدينوا من كبار التجار والاثرياء ؟ سوف يسكت صوت هذه الحركة الشعبية الاجتماعية الثائرة نسبيا مدة نصف قرن . ولكن صوت العيارين عاد فارتفع من جديد عندما بدأ قتل الخلفاء على يد القادة الترك ابتداء من عصر المتوكل ومرورا بقتل المنتصر والمستعين ، وما نجم عن ذلك من فوضى واضطراب . حتى أن الخليفة المتوكل عندما اراد ان يعزز موقفه ضد النفوذ التركي شكل فرقة عسكرية جديدة تتكون من (١٢) الفا من العرب والصعاليك(٧٥) . وواجهت هذه الفرقة مؤامرات القيادة التركية . ونجد صوتهم مرتفعا أيضا ابتداء من عصر المعتضد العباسي عندما بدات قبضة الدولة تتراخى(٧٦) ، والظاهرة تتنامى في فترات الفوضى والاضطراب عام ٣١٥هـ في عهد المقتدر(٧٧) ، وامرهم يتفاقم كلما ضعفت

الحكومة كما في الفترة بين مقتل بجكم التركي(٧٨) ودخول بني بويه الى بغداد (٣٢٩ ــ ــ ٣٣٤ هـ) . والملفت للنظر أن ظاهرة الشطار والعيارين كانت تجد تعاطفا كبيرا في اوساط العامة في بغداد ، حتى أن العامة ربطوا بين سقوط « قبة بغداد » وغضب السماء على الامة بما اجتاح بغداد من عواصف وأمطار غزيرة(٧٩) .

ويستقرأ من انتعاش ظاهرة العيارين والشطار أنها تزامنت مع محاولات قوى خارجية للسيطرة على بغداد العربية وخلفائها العباسيين الهاشميين ، كما حدث ابان الفتنة بين الامين والمأمون أو سيطرة القادة العسكريين الترك على مقدرات الخلافة أو قدوم عنصر بويهي جديد حل محل المؤسسة العسكرية التركية المنهارة .

تنظيمات العيارين ودستورهم الاخلاقي :

انفرد المسعودي(٨٠) بالاشارة الى تنظيمات العيارين والشطار واهل السجون في معرض حديثه عن مقاومتهم لجيش هرثمة بن أعين بقوله : « انه ما كاد هرثمة ينصب المنجنيقات على بغداد ويأخذ لنفسه عشر ما في السفن من أموال التجار الواردة من البصره وواسط ، الامر الذي تأذى منه الناس ، وصعد نحوه من العيارين وأهل السجون وكانوا يقاتلون عراة في أوساطهم التبابين والمبارز ، وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص ، وسموها الخوذ ،ودرقا من الخوص والبواري قد قيرت وحشيت بالحصى والرمل ، على كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير ، ولكل ذي مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده ، فالعريف له أناس مركبهم غير ما ذكرنا من المقاتله ، وكذلك النقيب والقائد والامير ، وناس عراة قد جعل في أعناقهم الجلاجل والصوف الاحمر والاصفر ، ومقاود قد اتخذت لهم ولجم وأذناب من مكانس ومذاب. فيأتي العريف وقد أركب واحدا وقدامه عشرة من المقاتلة على رؤوسهم خوذ من الخوص ، ودرق البواري . ويأتي النقيب والقائد والامير كذلك . فتقف النظارة ينظرون الى حربهم مع أصحاب الخيول .. والدروع والتجافيف والسواعد والرماح والدرق . فهؤلاء عراة ، وهؤلاء على ما ذكرنا من العدة ، فكانت العراة على زهير . وأتاه المدد من هرثمة ، فانهزمت العراة ، ورمت بهم خيولهم ، وتحاصروا جميعا ، واخذهم السيف ، فقتل منهم خلق ، وقتل من النظارة خلق » .

والجدير بالذكر أن هذا التنظيم شبه العسكري كان شأنهم في كافة حروبهم ، ان مع الامين ، أو في الازمات اللاحقة في العصر التركي او البويهي . وقد وصفهم المسعودي في أكثر من موضع ووصف اسلحتهم واعلامهم وابواقهم ، فهم من العراة اصحاب مخالي الحجارة والآجر ، وخوذ الخوص ، ورماح القصب ، وأعلام الخرق وقرون البقر(٨١) .

ويشير المسعودي الى أعدادهم في احدى المعارك بقوله : « وثارت العراة ذات يوم فيnحو مائة الف بالرماح والقصب ، والطرارات من الفراطيس على رؤوسها ، ونفخوا في بوقات القصب ، وقرون البقر ، ونهضوا مع غيرهم من المحمدية (جند الامين) ، وزحفوا نحو المأمونية(٨٢) (أصحاب جيش المأمون) . وهناك تشابه واضح بين تنظيمات العيارين في الحرب بين الامين والمأمون ، وتنظيماتهم في الفتنة بين المستعين والمعتز . يقول المسعودي : « وقد كان لأهل بغداد في أيام حرب المستعين والمعتز نحو هذا من خروج العيارين الى الحرب ، وقد اتخذوا خيلا منهم وأمراء ، كالملقب بنينويه خالويه، وغيرهم ، يركب الواحد منهم على واحد من العيارين ويسير الى الحرب في خمسين الف مراة »(٨٣) .

ان هذا العدد الكبير من العيارين في مواجهة أعداء السلطة الشرعية القائمة ، سواء في عهد الامين أم في ظل الفوضى العسكرية والتركية أو البويهية ، يضعنا أمام تساؤل خطير ، وهو مصداقية ما ألصق بهم من تهم ، وانهم ليسوا سوى مجموعة من اللصوص والحرامية والذعار . فلو كانوا لصوصا ما أصروا على المقاومة حتى النهاية وقد قتل منهم في مذبحة واحدة زهاء عشرة آلاف . وكان بامكانهم أن ينجوا بأرواحهم لو لم تكن لديهم بواعث كبيرة وأهداف سامية يحاربون من أجلها ، بوسائل بدائية ، جيشا منظما ومسلحا تسليحا قويا ، وكان بامكانهم أن يستنقذوا أنفسهم بما عرض عليهم من أمان. اضافة الى بعض الشواهد التي تدل على أن حركتهم تنطوي على غايات كبيرة.

فقد ورد أن احد الشطار تستر على ابراهيم بن المهدي واخفاه في بيته . ورفض افشاء سره وتسليمه لقاء الجائزة التي أعلنها ابن أخيه الخليفة المأمون ، ومقدارها الف دينار لمن يدل عليه أو يسلم رأسه(٨٤) .

نستطيع أن نكوّن فكرة عن دستور العيارين وأخلاقياتهم مما كتبه أبو القاسم الراغب الاصفهاني عن التلصص وما يجري مجراه(٨٥) وشيئا من احاديثهم ووصاياهم، وما نقله عن الجاحظ في بضع فقرات من « وصية عثمان الخياط للشطار اللصوص ». بالاضافة لما ضمنه الجاحظ نفسه في كتابه « الحيوان »(٨٦) عن الوصية ذاتها . وعثمان الخياط يعد زعيم اللصوص الفكري ، لانه هو الذي وضع الاسس والمبادىء الحرفية والاخلاقية التي ينبغي أن يتصف بها اللصوص ، ونسب اليه أنه قال : « ما سرقت جارا ؛ وان كان عدوا ،ولا كريما ،ولا كافأت غادرا بغدره(٨٧)» . ومن وصاياه لاصحابه: « اضمنوا لي ثلاثا اضمن لكم السلامة : لا تسرقوا الجيران واتقوا الحرم ، ولا تكونوا اكثر من شريك مناصف ، وان كنتم أولى بما في أيديهم لكذبهم وغشهم وتركهم اخراج الزكاة ، وجحودهم الودائع » .

وذكر الاصفهاني ايضا أن سليمان وكان أجلد عصابة العيارين « خرج ليلة بأصحابه الى دار بعض الصيارفة ، فاختفوا ، فلما ارادوا الانصراف ، قال بعض أصحابه : دعنا نقم على مفارق الطرق لنأخذ من بعض المارة نفقة يومنا ، فقال : على ان لا تبطشوا بهم . فقالوا : وهل يفعل ذلك الا الجبان . فبينما هم كذلك اذ مر شاب ذو هيئة . فلما قرب سلم عليهم ، فرد عليه بعضهم السلام ، فقام اليه بعضهم ،فقال رئيسهم : دعه فانه سلم ليسلم ، واجابه بعضكم فصار له ذمة بذلك ، قالوا فنخلي سبيله ، قال : أخاف عليه غيركم ، ليذهب معه ثلاثة يوصلونه الى منزله ، ففعلوا ، فلما بلغ دفع لهم مالا وقال : لاحوطنكم بمالي وجاهي لما عاملتموني به . فلما عادوا بالدراهم قال رئيسهم : هذا أقبح من الاول تأخذون مالا على قضاء الذمام والوفاء بالعهد ، لا ابرح أو تردوا اليه المال : فقالوا : قد افتضحنا بالصبح . فقال : لئن نفتضح بالصبح خير من تضييع الذمام وقال : ما خنت ولا كذبت منذ تفتيت»(٨٨).

أما الجاحظ في كتابه « اللصوص » فقد سرد نوادر اللصوص الشطار وطرائفهم وحيلهم ولطائف خدعهم . وهو بذلك يقدم فلسفة هؤلاء اللصوص ، ودوافعهم الكامنة وراء شطارتهم ، وما يسبغونه على سلوكهم من شرعية . فقد ضمن القاضي أبو علي المحسن التنوخي في كتابه « الفرج بعد الشدة » بعض ما ذكره الجاحظ في «اللصوص» عنهم . ومن ذلك قوله عن بعضهم : « ان هؤلاء التجار خانوا اماناتهم ، ومنعوا زكاة اموالهم . فصارت أموالهم مستهلكة بها . واللصوص فقراء اليها . فاذا اخذوا أموالهم — وان كرهوا أخذها — كان ذلك مباحا لهم . لان عين المال مستهلكة بالزكاة . وهؤلاء يستحقون اخذ الزكاة بالفقر . شاء ارباب الاموال ام كرهوا»(٨٩) .

ويستدل من استجواب التجار من قبل العيارين والشطار انهم بالفعل لا يزكون اموالهم رغم غناهم .

يتضح من خلال هذه الوصايا ، ومن اخبار العيارين ان العيار يخون أو يكذب منذ ان صار من اللصوص الفتيان . والسرقة بنظرهم هي سرقة كبار الاغنياء والبخلاء وغيرهم ممن لم يخرج زكاة او يغش او يكذب في معاملات الناس او يجحد الودائع . فتلك في رايهم هي اللصوصية الحقيقية . اذن المروءة والقيام بالفتوة هي من شيم هؤلاء اللصوص والسرقة في عرفهم عملا مشروعا مادام يتم من خلالها استعادة مال الله (الزكاة) من الفجرة والبخلاء ، واعادة توزيعه على مستحقيه الشرعيين من وجهة نظرهم(٩٠) .

الخلاصة :

في ضوء ما سبق عرضه من بدايات ظاهرة الشطار والعيارين في العصر العباسي الاول وتبلورها بشكل واضح في احداث الحرب بين الامين والمأمون ، ثم خفوت صوتها بعد ذلك لتظهر في حقب الاضطراب والفوضى الاجتماعية والسياسية والعسكرية في العصر العباسي الثاني (التركي) . وفي العصر العباسي الثالث (البويهي) . ومن خلال ممارسات أفراد هذه الطبقة من العيارين والشطار والدستور الاخلاقي الذي التزمت به الغالبية لتسويغ ما تمارسه من أعمال اللصوصية أو لاضفاء الشرعية على استخدام وسائل غير شريفة لتحقيق غايات سامية نبيلة ، وهي استعادة ما كان قد سلبه الاغنياء من حقوق الفقراء ممثلا بالزكاة ـ الفريضة المعطلة ـ بنظر هؤلاء العيارين . وان انتزاع هذه الاموال من أيوي المترفين واعادة توزيعها توزيعا عادلا على الفقراء والمعوزين أمر يقع داخل دائرة الواجب الديني .. من خلال ذلك كله يمكن أن نجمل اسباب بروز هذه الظاهرة في المجتمع الاسلامي ابتداء من العصر العباسي الاول، وان نضع تقييما شاملا لها .

ان بروز ظاهرة الشطار والعيارين كان نتيجة طبيعية لما آل اليه المجتمع الاسلامي في بغداد من تمايز طبقي وتباين اقتصادي . حيث عاش الامراء والقواد والاثرياء ، في مجتمع بغداد من قبل وفي مجتمع القاهرة والشام من بعد ، في غاية الغنى والترف . في حين كان العامة والعاطلون عن العمل ، واصحاب الحرف المحقرة يعيشون في اقصى درجات الفقر والحرمان . وكان هذا التباين بين من يموتون من التخمة ومن يموتون من الجوع وسوء التغذية يزداد عمقا ، في ظل الصراعات المذهبية ، او التكتلات القومية (الشعوبية) ، أو الخلل الاقتصادي والتمزق السياسي ، ومن الطبيعي ان يترافق ذلك باضطرابات وفوضى ، وضعف سلطة الدولة ، وبالتالي اختلال الامن . فظاهرة العيارين والشطار اذن هي وليدة المجتمع . واحدى افرازات التباين الطبقي الاقتصادي التي صاحبها بالضرورة اختلال الامن ، مما انعش اللصوصية الفردية ، التي ما لبثت أن تحولت الى عمل شبه جماعي منظم ومدروس وله قواعد وقيم وتقاليد . ولكن ينبغي بالمقابل ان لا نغمض اعيننا عن الوجه الاخر وهي اللصوصية الرسمية أو لصوصية بعض الجند والقادة وأصحاب السلطة في ظل ظروف الفوضى وغلبة العسكر على مقاليد الامور لتصبح بغداد مرتعا خصبا للفتن والقلاقل والاضطرابات . فكان العسكر أول من يعبث فيها فأخربوا البلاد ، ونهبوا العباد ، وقطعوا الطرق على حد تعبير الطبري وابن الاثير .

وكان العامة هم ضحية هذه الاوضاع السياسية المتردية في أرجاء الدولة ،وتقع

المسؤولية ابتداء على عاتق الدولة ، لانها لم تكن جادة في الحـد من التفاوت في الملكية والثروة بالطرق المشروعة لضمان حقوق وواجبات كافة الطبقات الاجتماعية ، ولتوفير الحد الادنى من متطلبات الحياة للفقراء . لذلك كان المناخ مواتيا في ظل هذه الظروف لازدهار حركة الشطار والعيارين في بغداد . خاصة وان بغداد اكبر عواصم الدنيا ، تستقطب افواجا كبيرة من المهاجرين ، وجلهم من الطبقات الفقيرة الباحثة عن عمل. فظهرت فيها تجمعات بشرية يسودها الفقر والقذارة وعصابات اللصوص والعيارين هي من افرازات هذه الطبقات(٩١) . وكلما تعسفت الدولة العباسية في كبح جماح اللصوص ، كلما تفنن هؤلاء في ايجاد الوسائل للتمرد او الثورة على الاغنياء . ومـع مرور الايام اصبحت اللصوصية الفردية بتنظم جماعي له قوانين ودستور اخلاقي واعراف وتقاليد ، وسوغت لنفسها ما تقوم به لصوصية لاضفاء الشرعية على هـذه الاعمال حتى من ناحية دينية . ثم ما لبثت ان تحولت الى حركة شعبية بمن انضم اليها من اهل الاصناف والصنائع والحرف الصغيرة ، وهدفهم الاساسي موجهـا للتجار الموسرين(٩٢) ومن يحميهم من رجال السلطة . وكان من شيمهم الا يتعرضوا لاصحاب البضائع القليلة التي تكون قيمتها دون الف درهم فضلا عن احترامهم للمرأة، فلا تفتش ولا تسلب ولا تهان .

والجدير بالذكر ان طبقة العيارين والشطار لم تشكل حركة سياسية كالزنج او القرامطة ، لانه لم يخطر ببالهم اساسا قلب نظام الخلافة ، او الثورة على الخليفة الشرعي ، لذلك رايناهـم مع الخليفـة الشرعي « الامـين » ضـد مـن ارادوا أن يطيحوا به . وكذلك الامر عندما ثاروا على الترك أو البويهيين كانوا مع الخليفة ضد خصومه . وجل ما كانوا يتطلعون اليه هـو ان يحظـوا في تحقيق العدالة الاجتماعية والسياسية التـي يحلم بهـا هؤلاء المحرومون . واذا كـان خصـومهم السياسيين ومـن شـايعهم مـن المؤرخـين الرسـميين ، قـد شـوهوا غاياتهـم النبيلـة ، وان انتفاضتهم لم تكن سوى « انتفاضة حرامية »، ففرغوا بطولاتهم حتى في وقوفهم مع الامين ضد قوات طاهر بن الحسين من أي مضمون سياسي . الا ان خصومهم لـم يستطيعوا بنظر جمهور العامة ان يسلبوهم الجانب البطولي في مقاومتهم لجيش طاهر. على اعتبار انه في نظرهم ، جيش فارسي جاء ليطيح بالخلافـة العربية الهاشـمية ولكن الذي ينبغي أن يسجل أيضا هنا هو انه يجب أن لا يظن أن كل الشطار والعيارين كانوا ابطالا او شرفاء ، وان جميع حركاتهم كانت انتفاضات ثورية واعيـة او ذات غايات نبيلة . اذ ان معظم الثورات الاجتماعية يندس فيها كثير من المشبوهـين ، واصحاب المصالح . فما بالنا اذا كا نابطال مثل هذه الانتفاضات هم من الشـطار والعيارين اساسا . بل نجد اكثر من هذا ان بعض ذوي النفوذ والسلطة من الحكام

كان متواطئا مع حركة الشطار والعيارين(٩٢) بمعنى ان بعض افرادها كانــوا أدوات بيد السلطة العباسية وكانوا يتقاسمون ما يسلبونه مع بعض افرادها .

ومجمل القول أننا عند دراسة ظاهرة الشطارة والعيارة لا نجد انفسنا أمام نوع من اللصوص بالمعنى التقليدي ينبغي أن تطبق عليهم الحدود الشرعية أو الوضعية . ولكننا نجد انفسنا امام نوع جديد من اللصوص هم ثوار لم يستهدفوا الثورة ضـد الخلافة الاسلامية أو النظام نفسه ، بقدر ما استهدفوا الثورة على الواقع الاجتماعي او القائمين على النظام وذلك عن طريق احتراف اللصوصية والعيارة(٩٤) وليس مـن شك ان هذه الحركة لجأت الى أساليب متطرفة وغير مشروعة . لكنها وجدت ما يبرر سلوكها في وضعها الاجتماعي والفقر والحرمان الذي تعاني منه من ناحية . وفي تعسف السلطة القائمة بما مارسته من ظلم وقسوة من ناحية أخرى(٩٥) دون أن تلتفت الـى حل مشاكل الطبقات الفقيرة الذي هو أحد واجبات السلطة الرئيسية .

الحواشــــي :

(١) انظر المعاجم اللغوية ومنها : لسان العرب ، ابن منظور ، مادة عير .

(٢) لسان العرب ، ابن منظور ، مادة شطر .

(٣) يقال : زعر ريشه اي قل وتفرق فانكشف الجلد . وزعر الرجل : قل خيره . والازعر وجمعه زُعر وزعران تعني اللص الخاطف المارد . والزعارة شراسة الخلق . واهـل الزعار تعني العيارين الذين يترددون بلا عمل ويطلقون للنفس هواها وعنانها . وتحمل مادة « ذعر » و « دعر » في المعاجم اللغوية المعنى نفسه . واما العياق فاصلها عاق . وعاق فلان اي صرفه عما اراد وحبسه عنه والعائق الذي يعوق الناس عن عمل الخير . ورجل عائق هو المانع الذي يعوق الطريق ويقطعه عن الناس . انظر : مادة عوق في المعاجم اللغوية. ــ واما الحرافيش فمفردها حرفوش وتعني ذميم الخلق والخلق وهو القاتل أو اللص. (المعاجم اللغوية ، ومعجم دوزي) مـادة « حرفش ».

(٤) انظر : مادة « صعلك » في لسان العرب لابن منظور . فالصعلوك لغة هو الفقير الذي لا مال له ، غير أن أبا زيد القرشي صاحب كتاب « جمهرة أنساب العرب » ص : ١١٥ يصف الصعلوك بأنه الفقير المتجرد للغارات . ولعل القرشي هو ادق من عرّف معنى الصعلوك . والجدير بالذكر انه حتى عروة بن الورد سيد الصعاليك كان فقيرا مثل الصعاليك الذين كانوا يترددون عليه ويأوون اليه (التبريزي: شرح حماسة أبي تمام : ٢/ ٩). والصـراع الداخلي بين القبائل في الجاهلية يرجع في بعض الاحيان الى الفقر والجوع . انظر : (الاصفهاني في حديث الاصمعي في الاغاني : ٣٩/١٤) . كما يقرر علماء الاجتماع أن الجوع هو أول الدوافع المسيطرة على حياة الانسان.

(٥) انظر تفسير هذه الظاهرة في : يوسف خليف: الشعراء الصعاليك ، مكتبة غريب ، القاهرة ص ٦٠ وما بعد .

(٦) السيوطي ، القاهرة ١٣٢٥هـ ، المزهـر : ٢٦٩/٢ .

(٧) المصدر نفسه : ٢٦٩/٢ .

(٨) أنظر :

E.R. Groves, **Personality and Social Adjustment.** U.S.A. P. 193 .

وانظر :

Mac, Iver, Society . New York. 1944 .

(٩) انظر : خليف ، ص ٢١٨ وما بعدها .

(١٠) الاصفهاني : الاغاني ، القاهرة ١٩٣٦ ، ٧٣/٣ وما بعدها .

(١١) القرشي : جمهرة أنساب العرب ، ص١١٥ .

(١٢) ابو عبيدة البكري ، الامثــال ، تحقيــق : احسان عباس . مطبوعات جامعة الخرطوم/ ١٩٥٨ ، ص ١٥٣ .

(١٣) عمر رضا كحالة ، دراسات اجتماعية في العصور الاسلامية ، دمشق ١٩٧٣ ، ص٣٠ .

(١٤) سيد حنفي ، الفروسية في العصر الجاهلي ، دار المعارف / القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٦٠ .

(١٥) خليف ، ص ٢١٨ .

(١٦) محمد رجب النجـار ، حكايات الشـطار والعيارين في التراث العربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون ـ الكويت ١٩٨١ ، ص١١٥ .

(١٧) ابن قتيبة : عيون الاخبار : ١٧٨/١ . وانظر: الابشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ٢٢٤/١ .

(١٨) الراغب الاصفهاني : محاضرات الادباء ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦١ ، ١٩١/٢ .

(١٩) Oleary (Delacy) , Arabia before Muhammad, London 1927, p 3

وانظر : كـرات (الكسندر هجرتي) ، علـم الفولكور ، ترجمة رشدي صـالـح ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٦٧ .

وانظر :

Muir, (Sir William), The Life of Mohammed, Edniburg 1912, p. Xc.

(٢٠) الاصفهاني ، الاغاني ، ٣٩/١٤ ـ (حديث الاصمعي) .

(٢١) خليف ، ص ٢٤٧ .

(٢٢) الاصفهاني ، الاغاني ، ١٧١/١٠ (بولاق) .

(٢٣) ابن الاثير ، اسد الغابة ، الوهبية ،القاهرة ١٢٨٠هـ ، ١٧٨/٥ .

(٢٤) البلاذري :فتوح البلدان ، مكتبة الهلال ، بيروت ١٩٨٣م ، ص ٣٠٣ .

(٢٥) ابن الفقيه الهمذاني ،مختصر كتاب البلدان، نشر دي غويه، بريل ليدن ١٨٨٥م ،ص٢٤٠ .

(٢٦) المصدر السابق ، ص ٣٠٤ .

(٢٧) المصدر نفسه ، ص ٣٠٤ .

(٢٨) الدوري ، العصر العباسي الاول ، ص١٦٨ وما بعدها .

عبد المنعم ماجد ، اضواء على البرامكة ، الموسم الثقافي في بغداد ١٩٧٣ م .

(٢٩) انظر : فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، المطبعة الاردنية ، عمان ١٩٨٢ ، ٣٥/٣ .

(٣٠) المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

(٣١) الطبري ، تح. محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف ، مصر ، ٤٤٥/٨ .

(٣٢) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٥ ، ٢٦٩/٦ .

(٣٣) المصدر نفسه ٢٧٢/٦ . وانظر المسعودي: مروج الذهب، دار الاندلس ، بيروت ١٩٦٦، ٤١٥/٣ والطبري ٤٥٠/٨ وما بعدها .

(٣٤) الطبري ، ٤٤٨/٨ .

(٣٥) ابن الاثير ، ٢٧٣/٦ .

(٣٦) الطبري ،٤٤٨/٨ وما بعدها .

(٣٧) الطبري ، ٤٥٤/٨ .

(٣٨) ابن الاثير : الكامل ٢٧٢/٦ .

(٣٩) المصدر السابق ، ٤٥٥/٨ .

(٤٠) وانظر المسعودي ٤١٤/٣ . وانظر ابن الاثير، ٢٧٣/٦ ، ٢٧٤ .

(٤١) ارجع الى ذلك في الطبري ، ٤٤٨/٨-٤٥٤ ابن الاثير ، ٢٧٤/٦ .

(٤٢) الطبري ، ٤٥١/٨ .

(٤٣) المسعودي ، ٤٠٢/٣ .

(٤٤) المصدر السابق ،٤٥٦/٨ .

(٤٥) المسعودي ، ٤٠٤/٣ .

(٤٦) الطبري ، ٤٥٨/٨ .

(٤٧) المسعودي ، ٤١٤/٣ .

(٤٨) ابن الاثير ، الكامل ، ٢٧٥/٦ .

(٤٩) الطبري ٤٥٨/٨ .

(٥٠) المسعودي ،٤٥٦/٣ . وانظر : الطبري ، ٤٥٦/٨ .

(٥١) المصدر السابق ، ٤٦٦/٨ .

(٥٢) ابن الاثير ، ٢٥٢/٦ . وانظر : الطبري ٤٧٦/٨ وما بعدها .

(٥٣) الطبري ، ٤٦٢/٨،٤٦٣ . وانظر المسعودي، ٤١٦/٣ .

(٥٤) المصدر نفسه ، ٤٦٣/٨.وما بعدها .وانظر: ابن الاثير ، الكامل ٢٧٦/٦ .

(٥٥) ابن الاثير ، الكامل ٢٧٦/٦ . وانظر :الطبري ٤٦٣/٨ ، ٤٦٤ .

(٥٦) ابن الاثير ، الكامل ٢٧٦/٦ . الطبري ، ٤٦٥/٨ .

(٥٧) الطبري ، ٤٦٥/٨ .

(٥٨) الطبري ، ٤٦٧/٨ . وانظر : المسعودي ، ٤٠٩/٣-٤٥٠ . وهو ينسبها لشاعر اخر .

(٥٩) المصدر نفسه ، ٤٦٨/٨ .

(٦٠) الطبري ، ٤٦٧/٨ ، ٦٦٨ .

(٦١) الطبري ، ٤٦٨/٨ .

(٦٢) المصدر السابق ، ٤٧٠/٨ .

(٦٣) المصدر نفسه ، ٤٦٩/٨ .

(٦٤) المسعودي ، ٤٦/٣ .

(٦٥) المصدر السابق ، ٤٧٥/٨ .

(٦٦) ابن الأثير ، الكامل ،٢٧٦/٦ .

(٦٧) انظر : الطبري ، ٤٦٧/٨ . وايضا : ابن الاثير ، الكامل ، ٢٧٧/٦.

(٦٨) الطبري ، ٤٧٦/٨ .

(٦٩) المسعودي ، ٤١٠٦/٣ .

(٧٠) ابن الاثير ، الكامل ، ٢٧٧/٦ .

(٧١) المصدر نفسه ، ٢٧٧/٦ .

(٧٢) المسعودي ، ٤٢٠/٣٠ .

(٧٣) وانظر : ابن الاثير ، الكامل ، ٢٨٣/٦ . وهناك اختلاف في بعض التفصيلات . واما الطبري فأورد المضمون (٤٧٨/٨) ولكن هناك اختلافات كبيرة فالسبعة الاف مقاتل ذكرها سبعمائة وكذلك عدد الخيول ذكرها ألفا وليس سبعة الاف .

(٧٤) انظر : الطبري ، ٤٧٩/٨ .

(٧٥) فاروق عمر ، ٥٥/٣ .

(٧٦) انظر : المسعودي ، ١٦٠/٤ .

(٧٧) ابن الاثير ، الكامل ، ١٣٦/٤ .

(٧٨) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم : ص : ١٢٠ .

(٧٩) ادم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة عبد الهادي ابو ريدة ، بيروت ١٩٦٧ ، ص : ٣٠ نقلا عن مخطوطتي المنتظم وكتاب العيون .

(٨٠) المسعودي ، ٤١١/٣ .

(٨١) المسعودي ، ٤١٦/٣ .

(٨٢) المصدر نفسه ، ٤١٧/٣ .

(٨٣) المصدر نفسه ، ٤١٥/٣ .

(٨٤) ابن تيفور ، تاريخ بغداد ، ص: ١٨٧ .

(٨٥) الراغب الاصفهاني ، ١٩٨/٣ وما بعدها .

(٨٦) الجاحظ ، الحيوان ، دار صعب ، بيروت ١٩٧٨ ، ٣٩٢/٢ ، ٥٤/٣ ، ٥ .

(٨٧) المصدر السابق ، ١٩١/٣ .

(٨٨) المصدر السابق ، ١٩٢/٣ .

(٨٩) القاضي ابو علي المحسن التنوخي : الفرج بعد الشدة : تح. عبود الشالجي ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٨ ، ٢٣١/٤ وما بعد .

(٩٠) الراغب الاصفهاني ، ١٩١/٣ .

(٩١) انظر : علي الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (٦ اجزاء) بغداد ١٩٦٩ .

(٩٢) د. حمدان الكبيسي ، اسواق بغداد ، الدار الوطنية ، بغداد ١٩٧٩ ، ص٢٧٤ .

(٩٣) انظر تفاصيل ذلك : حسين مؤنس : الحضارة ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٧٨ ، ص ٢٦٧ وما بعدها . استنادا الى ما ورد في الطبري ، ٤٦١/٨ وما بعدها .

(٩٤) الجدير بالذكر ان كلمة عيار ظلت تستخدم في تركستان حتى وقت قريب بمعنى «اللص الظريف» الذي يلجأ الى أعمال اللصوصية لانه يفشل في تسوية وضعه الاجتماعي أو حريته السياسية .

(٩٥) انظر الى ما اشارت اليه المصادر التالية : مسكويه : تجارب الامم ، تح امدروز ، مصر ١٩١٤ ، ٣٠٣/٦ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد (١٤ جزءا) القاهرة ١٩٣١ ، ٨١/١ .

اليعقوبي ، لبدن ١٩٨٢ ١٣٢/٣ — ١٤٦ . وانظر محمد رجب النجار : حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، الكويت ١٩٨١ ، ص ٧٩ وما بعدها .

* * *

راي للمناقشــة

حول اصل الاسم « سوريــة »

د. فاروق اسماعيل
جامعة حلب

على أرض شرقنا القديم نهضت أقدم الحضارات الانسانية ، وسطرت اقـدم الوثائق الكتابية التي تروي صفحات زاهية عن تاريخ المنطقة بمختلف جوانبه . وكانت ارض سورية موئلا ثرآ حيوياً ، ففي رحابها واركانها تجولـت القوافـل التجارية ، وازدهرت الحياة الزراعية والرعوية ، وبرزت ممالك ودويلات ، ودارت جولات من الحروب . كذلك برع سكانها في ابداع ثقافية متميزة شملت الفنون والاداب .

منذ اواخر القرن الماضي ظهرت آراء كثيرة في تفسـير اصل الاسم « سورية »، وتحول الامر الى موضوع مثير ومسألة تعددت فيها الاراء الى حد كبير ، دون الوصول الى نتيجة نهائية . والسبب في ذلك هو غياب الوثائق التاريخية العلمية التي تقـدم تفسيرا مباشرا ، لذا يبقى الامر في اطار الاقتراحات المعتمدة على استنتاجات شخصية ذاتية . وهنا يبرز الاختلاف في المنطلقـات والمصادر المعتمـدة وكذلـك في الغايات المنشودة ، وليست جميعها علمية تاريخية . وهكذا تعددت الاراء بشكل لانجده في كثير من المسائل الاخرى .

هذه محاولة لبسط جميع الاراء التي طرحها المستشرقون المختصون في حضارات الشرق القديم مع مناقشة لها . وهي لا تهدف الى تقديم جواب نهائي للمسالة ، لان ذلك في اعتقادي سيكون في المحصلة اغلاقا لباب يجب ان يبقى مشرعا ريثما تتوافر قرائن ووثائق اخرى .

لا خلاف في ان الاسم بصيغته الحالية يوناني ، وان اول مـن ذكره هو المؤرخ هيرودوت (ولد سنة ٤٨٤ ق.م) ثم كسينوفون (٤٢٦ ـ حوالي ٣٥٥ ق.م) .ولكن التساؤل الذي يطرح نفسه هـو : علام اعتمد اليونان في هذه التسمية ؟ وما المصـدر الذي اشتق منه الاسم ؟ وما التبدلات التي طرات عليه . . . ؟ الخ .

لعل المستشرق الالماني نولدكه(١) T. Nöldeke هو اول من تعرض للمسالة عـام

١٨٧١م ، ورأى ان الاسم مشتق من اسم بلاد آشور (شمال بلاد الرافدين) ، ثم انتقلت الدلالة الجغرافية وتوسعت لتشمل المنطقة المتاخمة لها غربا .

في اعتقادي ثمة شرطان اساسيان يجب أن يتوافرا في مطابقة من هذا النوع ، اعني الاطار الجغرافي الموحد والتوافق في الاشتقاق اللغوي . وواضح ان راي نولدكة يفتقر لكليهما ، فللبلدين منذ القديم حدود متميزة خاصة ، وان تعرضت عبر التاريخ الى التداخل والاتساع او التقلص ، وتباين في كثير من المقومات والمظاهر الحضارية ، واختلاف في الهوية السكانية . ومن ناحية ثانية ليست لدينا شواهد مماثلة تبين حدوث مثل هذا الانتقال الدلالي الجغرافي الذي يطرحه نولدكه .

لقد خلط نولدكه ، كما فعل عدد من كتاب العصر الكلاسيكي ، بين الاسمين بسبب التشابه اللفظي ، وهو اتجاه مرفوض في دراسات علم اللغة رفضا قاطعا .

في قاموس العهد القديم ، الصادر عام ١٩٠١ ، يتجه سميث(٢) اتجاها اخر اذ يربط بين الصيغة اليونانية للاسم (سوريا) واسم مدينة صور المعروفة . وهو يرمي الى تأكيد الاصل العبري للاسم لقناعته بأن كلمة صور عبرية بمعنى « الصخرة ، المنحدر الصخري » . وما يفند هذا الزعم أمران ، هما :

١ ــ كلمة صور ليست عبرية فحسب ، وانما هي من الكلمات التي تشترك فيها عدة لغات سامية قديمة ، فقد وردت في ملحمة جلجامش المدونة باللغة الاكدية (البابلية القديمة ، النصف الاول من الالف الثاني ق.م) دالة على الصخور(٣) . كما وردت اسما لمدينة صور في الكتابات الاوغاريتية (القرن الثالث عشر ق.م)(٤) ، ثم في النقوش العبرية (نقش سيلوح)(٥). وفي الارامية الدولية (القرن الخامس ق.م) تحولت الصاد طاء (طور)(٦) ، وكذلك في السريانية بمعنى « هضبة ، جبل »(٧) .

٢ ــ معروف ان اليونان عرفوا المدينة باسم Tyre (تلفظ تور) ، أي بالتاء ، وهي صيغة متأثرة بالارامية على الارجح . فاذا كانوا قد اشتقوا اسم سوريا من صور ، فلماذا ابدلوا الصاد تاء ؟.

وفي عام ١٩٤٥ نشر هـ . كراب(٨) دراسة عن اله اناضولي قديم يصور في هيئة اسد ويسمى « سوريا » ، وحاول الربط بين الاسمين . وهو راي لا يدعمه سوى التشابه اللفظي ، ولا تسنده اية أدلة علمية .

في الآونة الاخيرة ساد بين أوساط الباحثين راي يلقى قبولا . وهو يتلخص في أن الاسم مشتق من اسم الشعب الخوري (في الدراسات العربية : الحوري ،

الحوريون) . والحوريون شعب لا يمت بصلة الى مجموعة الشعوب المعروفة ب (السامية) ، ولكنه اصيل في منطقة الشرق الادنى القديم ولا سيما سورية . وهو من الشعوب الهند اوربية ، كان مستقرا في البدء في مناطق شمال غرب ايران وارمينيا وفي اواخر الالف الثالث ق.م بدأ بالانتقال والتغلغل جهة الغرب والجنوب الغربي ، وتوزع في اصقاع شتى من بلاد الرافدين وسورية ، وبدأ ذكر الحوريين يتردد في الوثائق الكتابية المسمارية بدءا من الفترة المسماة ب « عهد سلالة اور الثالثة أو البعث السومري » ، وكان لهم وجود متميز في ابرز المراكز الحضارية في الالف الثاني ق.م مثل : نوزي ، ارابخا ، شبت انليل / شخنا ، ماري ، ايمار ، الالاخ ، اوغاريت .

شكل الحوريون عنصرا اساسيا في المملكة التي انشأها الميتانيون في منطقة مثلث الخابور (حوالي ١٤٦٠ ـ ١٣٣٠ ق.م) ، وكانت واشوكاني ـ التي يفترض وقوعها في منطقة منابع الخابور ـ عاصمة لها . في عهد هذه المملكة برزت علاقات متميزة بين حكام ميتاني والسلالات الحاكمة في مصر ، وتبادلوا الرسائل وعقدوا الاتفاقات للحد من الخطر الحثي . وبشكل عام سيطر الحوريون لفترة من الزمن على معظم مناطق شمال وشمال شرق سورية ، وكانت نهاية سيادتهم السياسية على يد الحثيين .

تطلق الوثائق الكتابية المصرية اسم خورو على المناطق السورية ، وبالاسم نفسه ذكرتها الرسائل المكتشفة في تل العمارنة بمصر ، وهي رسائل مدونة باللغة الاكدية تبادلها امراء سورية وفلسطين مع فراعنة مصر (القرن الرابع عشر ق.م) وكان الاسم يشير الى المنطقة المجاورة لمصر من جهة الشمال مقابل اسم كوش الذي كان يشير الى المنطقة الواقعة جنوب مصر . كما سمى المصريون البحر الاحمر ـ وفي بعض المصادر البحر المتوسط ـ باسم «بحر خورو» لانه يفصل بلادهم عن بلاد خورو .اما النصوص المصرية القبطية التالية فقد اطلقت عليه اسم « بحر شوري »(٩) .

لذلك يعتقد ان اصل الاسم هو (خ ر و) ، ثم ابدلت الخاء في القبطية شينا (ش ر ي) ، وهو ابدال مقبول لتوافر شواهد عدة مماثلة في النصوص القبطية . كما ان الابدال بين الصائتين (و/ي) امر مألوف شائع . وجدير بالذكر أن الاسم ورد بالصيغة نفسها ـ مع اضافة النون ـ في وثائق أوغاريت (ش ر ي ن)(١٠) .

ويرى الذاهبون الى هذا الراي أن اليونان اعتمدوا على الصيغة الاخيرة بعد قلب الشين سينا ، وهو شائع ايضا .

من جانب آخر فان اسم شوري شائع في الوثائق المسمارية ، ويطلق دائما على مواقع ومدن حورية . فثمة مواقع عدة بهذا الاسم كانت ماهولة بالحوريين ، وتقع

في مناطق متفرقة . فقد اوضحت دراسات تناولت المعطيات التاريخية الجغرافية في الوثائق المسمارية وجود مدينة باسم شوري في منطقة مديات التركية (ربما في تل سوار غرب مديات)(١١) . واخرى في منطقة مثلث الخابور ذكرت في وثائق شاغر بازار وماري وتل ليلان(١٢) . كما اشير الى مدينة بالاسم نفسه في وثائق نوزي (يورغان تبه قرب كركوك) .

ومن الاراء التي يمكن عدها ثانوية تفتقر الى حجج مقنعة نذكر :

١ ـ الاسم مشتق من اسم جبل حرمون بصيغته المذكورة في العهد القديم (سريون)(١٣) .

٢ ـ مصدر الاسم هو الاسم المذكور في نقش للملك كسرى ، حيث ورد فيه (سيرارا وجبل لبنان) (١٤) .

معلوم ان منطقة سورية عرفت في النصف الاول من الالف الاول ق.م باسم آرام (العليا والسفلى)(١٥) لانها كانت مأهولة بالاراميين الذين انتشروا في مختلف أرجائها ، واسسوا فيها ممالك ودويلات صغيرة كانت في صراع دائم مع الاشوريين بهدف التخلص من نفوذهم في المنطقة(١٦) . كما أن اللغة الارامية في ذاك العهد تفردت بخصائص لغوية مستقلة(١٧) . بعد ذلك انتشرت الارامية كلغة مراسلات دولية في مناطق متفرقة وصلت إيران وما وراءها ومصر . ثم برزت خصوصيات لهجوية واضحة بسبب سعة رقعة الانتشار الجغرافي وتعدد الممالك لدرجة تسمح بالحديث عن لغات آرامية منها : التدمرية والنبطية والفلسطينية ، وآرامية جزيرة الفيلة بمصر ، وارامية مملكة الحضر .. وغيرها .

في القرون الاربعة السابقة للميلاد شهدت أرض سورية صراعات بين القوى الاجنبية على ارضها كالفرس واليونان والرومان . وكان سكانها الاراميون والعرب يحاولون اثبات الذات والاستقلال بشؤونهم ، وقد انعكس ذلك في الاحداث التي شهدتها أبرز المدن أو الممالك السورية كتدمر والبتراء والرها وانطاكية .

لقد تبنى اليونان الاسم الجديد للبلاد (سوريا) ونشروه بدلا من (آرام) ، واعتمادا على ذلك سموا سكان البلاد أيضا باسم جديد هو (سوريان ، سريان) أي السوريين في صياغة يونانية . ومع فجر الديانة المسيحية التي اعتنقها قسم كبير من السكان ، تمسك هؤلاء بالتسمية الجديدة التي توحد بينهم ، ونبذوا الاسم القديم لهم (الاراميين) لانه يذكر بعهود وثنيتهم .

في هذه الفترة تميزت مملكة الرها الارامية الاصل كمركز اساسي هام من مراكز الديانة الجديدة ، وبرزت كذلك لغة الرهـا ، وانتشرت وطغت على اللغات الاراميـة الاخرى التي اختفى استعمالها مع مرور الزمن . وكان طبيعيا أن يشمل تغير اسـم المكان اسم لغتهم ايضا ، فصارت تسمى (السوريانية ، السريانية) أي السورية في صياغة يونانية أيضا .

فالناطقون بهذه اللغة فيعصرنا هم آراميو الاصل سوريو الوطن مسيحيو الديانة.

الحواشــــي :

(١) راجع : Hermes 5 (1871) 443-468

(٢) Smith's Bible Dictionary (Syria) 669

(٣) راجع معجم اللغة الاكدية :

W. von Soden: AHw 1115.

(٤) راجع معجم اللغة الاوغاريتية :

C. H. Gordon : Ugaritic Textbook. 476 .

(٥) راجع معجم النقوش السامية الشماليـة الغربية :

Ch— F. Jean; J. Hoftijzer : DISO, 247 .

(٦) انظر المعجم نفسـه ، 110 .

(٧) انظر قاموس كوستاز ص ١٢٥ .

(٨) H. Krappe: The Anatolian Lion God . JAOS (1945) 144-145.

(٩) راجع الدراسة التالية والمراجع المذكورة فيها :

J.A. Tvedtnes : The Origin of the Name «Syria». JNES(1981) 139-140 .

(١٠) انظر المرجع المذكور في الحاشـيـة (٤) . ص ٤٩٥ .

(١١) انظر :

K - H. Kessler : Untersuchungen zur historischen Topographie Nordmesopotamien ......, 1979, 57 ff.

(١٢) انظر :

F. Ismail : Altbabylonische Wirtschaftsurkunden aus Tall Leilan (Syrien) . Diss. Uni . Tübingen, 1991, 147 .

(١٣) ذكر في سفر التثنية ٢ : ٩ والمزامير٢٩:٦.

(١٤) راجع :

J. B. Pritchard : ANET, 291.

(١٥) راجع مثلا النقوش المكتشفة في الســفيرة (قرب حلب) .

(١٦) راجع : علي ابو عساف : الاراميون ، دار اماني ١٩٨٨ .

(١٧) حول لغة تلك الممالك الارامية القديمةراجع: فاروق اسماعيل : لغة نقوش الممالك الارامية رسالة ماجستير ، جامعة حلب ١٩٨٤ .

متى كان لسورية والعراق حدود مميزة خاصة ؟!

د. محمد محفل

يسرد لنا الباحث في الدراسة التالية عدة آراء حول اشتقاق اسم « سورية » ليستبعدها بشكل أو بآخر ، باستثناء الرأي القائل أن الاصل اسم « سورية » ارتباطا باسم الشعب « الخوري / الحوزي » ، ولحسن الحظ أن الباحث يقول في فاتحة الدراسة ، ان اجتهاده لا يهدف الى « تقديم جواب نهائي للمسألة ، لان ذلك في اعتقادي سيكون في المحصلة اغلاقا لباب يجب ان يبقى مشرعا ريثما تتوافر قرائن ووثائق اخرى. » ، واعتمادا عليه ، نعرض رأي (لجنة الاشراف على مجلة «دراسات تاريخية ») لتوضيح بعض النقاط ، شاكرين للكاتب تعاونه واهتمامه بموضوع صريح الصلة بتاريخنا القومي .

من الامور المسلم بها ، واعتمادا على الوثائق المعروفة حتى الان ، كان المؤرخ اليوناني (هرودوتس ، حول ٤٨٤ ــ حول ٤٢٠ ق.م .) اول من ذكر التسمية الجغرافية « سورية » في مؤلفه (التاريخ ، الكتاب الاول ، ١٠٥ ، الخ..)، ثم شاعت التسمية فيما بعد لدى غيره من الكتاب الاغريق ، قبل ان تعم في الكتابات اللاتينية، اعتبارا من القرن الاول ق.م ، والجدير بالذكر وجود اشارة الى « سورية ، سوري » في مصدر يوناني آخر ، للشاعر المسرحي اليوناني (اسخيلوس ، حول ٥٢٥ ــ حول ٤٥٦ ق.م .) في مسرحيته « آغا ممنون ١٣١٢ » ،مشيرا الى قصر الملك ، الذي غدرت به امرأته بمساعدة عشيقها ، بعد عودة « آغا ممنون » من حرب طروادة : « وكأن الدار ، عندما نسمعك ، لا تعبق بالاريج السوري » ، علما ان « اسخيلوس » قد وضع « آغا ممنون » (اولى ثلاثيته المأساوية ، اورستيا) قبل تواريخ هرودوتس بعشرات السنين .

يطرح الكاتب عدة تساؤلات حول أصل التسمية « سورية » والتبدلات التي طرات ــ عبر العصور ــ على مصدرها (الخوري / الحوري) لندركها لاحقا باسم « سورية » اعتبارا من عصر هرودوتس . ويبدا بتنفيذ قول المستشرق الالماني

(ثيودور نولدكه T. Noeldeke ، ١٨٣٦ ـ ١٩٣٠) ، الذي ربط بين اسم « سورية Syria » وآشور Assyria ، شمال بلاد الرافدين » . ويرى الكاتب ، أن راي (نولدكه) يفتقر الى شرطين أساسيين ليصبح مقبولا ، أما هذان الشرطان ، فهما في راي الكاتب :

١ ـ الاطار الجغرافي والتوافق في الاشتقاق اللغوي .

٢ ـ وجود شواهد جغرافية مماثلة تدعم فرضية المستشرق الالماني .

فيما يتعلق بالشرط الاول يقول الباحث ، ردا على نولدكه « .. فللبلدين منذ القديم حدود متميزة خاصة ، وان تعرضت عبر التاريخ الى التداخل والاتساع والتقلص ، وتباين في كثير من القوميات والمظاهر الحضارية ، واختلاف في الهوية السكانية .. ».

وهنا ، وفي رأينا ، لابد من القول اننا لا نشارك الباحث في رأيه .. فمتى كان للبلدين حدود متميزة خاصة ، سواء في العصور القديمة ام العربية الاسلامية ، والحديثة فالمعاصرة ، حتى الحرب العالمية الاولى ، فاتفاقية (سايكس ـ بيكو) ؟! ولو أخذنا حصرا الديار الاشورية ، ولا نعني الامبراطورية الاشورية الحديثة ، بأطرافها المترامية ، أفليست هي حاليا (محافظة نينوى وعاصمتها الموصل) المتاخمة لمحافظة (الحسكة / الجزيرة) .

ثم ، أين تقع (تل ليلان : شوبات انليل / شخنا) حاضرة الملك (شمش أدد الاول ، القرن الثامن عشر ق.م) ، الاموري الاصل والذي أعتلى عرش آشور ، أليست في الجزيرة السورية (٢٥ كم الى الجنوب الشرقي من مدينة القامشلي .؟!) فهل ننسبها الى الاشوريين أم الى الاموريين الغربيين (السوريين) .. ؟ ومن أين انطلق مؤسسو السلالة البابلية الاولى(القرن التاسع عشر ـ السادس عشر ق.م) ؟!. من الغرب كما نعلم (سورية) .

اما الحمدانيون ، فعلى العكس ، انطلقوا من ديار الموصل وأرض الجزيرة السورية غربا ليجعلوا من حلب حاضرة امارتهم .

ثم تأتي الى اتابك الموصل (عماد الدين زنكي) فنور الدين الشهيد وصلاح الدين الايوبي ، الم ينطلقوا من شمال العراق ، بلاد آشور نحو الغرب سورية فمصر ؟!

وكيف تغيب عن بالنا (قضية الموصل) والصراع على نفطها ، بعد الحرب العالمية الاولى ، ورسم الحدود المصطنعة (سايكس / بيكو) !؟.. فهل هي سورية (في راي فرنسا) أم عراقية (وفقا لمنطق الاستعمار البريطاني).

ثم الملك الفيصل الاول ، الم يكن في سورية قبل ان يعتلي عرش العراق ؟! ونعد بالعشرات الزعماء السوريين الذين انتقلوا معه الى العراق ولعبوا دورا كبيرا في تاريخ العراق المعاصر .

فهل بعد هذا يمكننا القول ان للبلدين «منذ القديم حدودا متميزة خاصة ..»؟!.

اما بالنسبة للشرط الثاني : انتقال الدلالة الجغرافية ، فدراسة لغوية تاريخية لمختلف اسماء المواقع الجغرافية في بلادنا . تؤكد مفهوم « الشواهد المماثلة ».

وبالاضافة لكل ذلك ، فهرودوتس الذي اطلق تسمية « سورية » هو نفسه الذي عمم اسم « فلسطين » (الكتاب الاول ، ١٠٥، الثاني ١٠٤، الثالث ٩١، الخ.).

أما النص الذي يجعلنا نميل الى ما ذهب اليه نولدكة ـ ونعتقد ان المستشرق الالماني قد اعتمد عليه لبناء فرضيته ـ هو التالي (هرودوتس) الكتاب السابع ، ٦٣) : « والاشوريون كان لهم خوذ نحاس منسوجة ومشبكة بطريقة غريبة الوصف ، وحرابهم وتراسهم وخناجرهم تشبه تقريبا سلاح المصريين ، وفوق ذلك كانوا يحملون نبابيت خشب لها عجر من حديد ودروعا كتانية كاللباد ، وكان اليونانيون يسمونهم سوريين والبرابرة آشوريين وكان الكلدانيون منضمين اليهم وكان قائد الفريقين أو تسبس بن أرتاخايس » .

نجد هذا المقطع في سياق النص الذي وضعه هرودوتس ، ساردا فيه وقائع الحرب الفارسية ـ اليونانية الثانية (٤٨١ ـ ٤٧٩ ق.م)، في عهد (خسايارسا / سرخس) الفارسي ، حيث حشد « ملك الملوك » قطيعا بشريا هائلا ، مؤلفا من مختلف شعوب الامبراطورية الفارسية ، الممتدة من أفغانستان حتى مصر .

نحن نعتقد ان ما جاء اعلاه يرجح قول نولدكه . ونود أن نطرح السؤال التالي:

لماذا نستبعد الاشتقاق « السامي » ونجهد النفس في البحث عن الاصل « الهندو ـ أوروبي » .. ثم ، ما هو الارث اللغوي (الخوري / الحوري) في الطوبوغرافية التاريخية لبلادنا ، مقارنة بالالاف التي لا حصر لها لاسماء المواقع التاريخية والجغرافية لبلادنا .

الملك والأسرة المالكـة في فينيقية

د. احمـد حامـدة
جامعـة دمشـق

يعالج هذا البحث دور الملك والأسرة المالكة في فينيقية . وفينيقية اسم اطلق على الارض ، في حين سمي الشعب باسم الفينيقيين . والاسم اغريقي المصدر يرجع اشتقاقه الى أصل لغوي معناه « الارجوان » .

تقع فينيقية على طول الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، وتتكون من أرض ضيقة محصورة بين مصب نهر العاصي شمالا ونهر بيلوس (النعمين حاليا في فلسطين) جنوبا ، يحدها من الشرق جبال اللاذقية وسلسلة جبال لبنان. ونظرا لاقتراب الجبال من البحر في معظم المناطق كانت الاراضي الصالحة للزراعة محدودة لا تفي باحتياجات السكان ؛ كما أن انتشار السلاسل الجبلية جعل اتصالهم بالداخل وفيما بينهم صعبا الى حد كبير ،هذا بالاضافة الى النزعة التوسعية لجيرانهم الاقوياء آنذاك من الآشوريين والبابليين ثم الاسكندر وخلفائه ؛ وغيرهم . كل ذلك ساعد منذ فترة مبكرة على تكوين «دويلات مدن » صغيرة مستقلة اداريا ؛ أو شبه مستقلة ، ودفع الفينيقيين الى الاهتمام بالبحر وتوجيه أنظارهم نحوه(١) .

أطلق الفينيقيون على وطنهم اسم كنعان ، وهي كلمة لم يتفق الباحثون على معناها بعد . اسمها في الفينيقية (كينع ، أو كنعان) . ونجد في المصادر أنها اطلقت على البلد ، في حين اطلق اسم الكنعانيين على الشعب وظهر هذا الاسم بالقرن الخامس عشر قبل الميلاد في أحد النقوش الاكادية على تمثال أدريمي ، وعلى الشاهدة المصرية لأمنوفيس الثاني في ممفيس ، كما ظهر في ألواح تل العمارنة ايضا .

اضافة لذلك تردد ذكر هذا الاسم في الكتابات على النقود في الفترة الهيلينستية في فينيقية ، فقد ورد على أحد النقود « لأوديكيا في كنعان » ، كما استعمله فيلون الجبيلي في القرن الاول الميلادي . ونسبه الى الكنعانيين سمي البونيون في القرن الرابع الميلادي chanani, chananaei (٢) .

الى جانب ذلك ورد اسم كنعان في العهد القديم ، اذ يذكر أن لكنعان ولدين هما: صيدون وحيث(٣) .

دراسات تاريخية ، العددان ٤٩ / ٥٠ ، آذار – حزيران ١٩٩٤

وتذكر المصادر خمسا وعشرين مدينة تكونت خلال هجرة الكنعانيين على طول الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط ، أهمها **اوجاريت ، وجبيل ، وصيدا ، وصور ، وطرابلس ، وأرواد ، وبيروت ، عكا ، الخ..** وكانت على طراز المدن في العالم اليوناني . أي **دويلات مدن** ، كونت كل مدينة وحدة سياسية مستقلة ، تمد سيطرتها على المدن والضواحي التابعة لها . وجدت بدون شك فترات مارست فيهما احدى المدن الكبرى الزعامة على المدن الاخرى . ولم تكن هناك تحالفات مدن بل تحالفات ذات غايات محددة ولفترات مؤقتة ، كما كان الحال في مدينة صور اذ لم تكن هناك قيادة عسكرية موحدة(٤) .

تشكلت دويلات المدن هذه أرستقراطيا ، وكان معظمها مستقلا ، ولم تكن هناك علاقات بين المدن المتفرقة ، بل كانت هناك مطامح قوية لبعض المدن وفرضت سيطرتها في حدود المناطق المجاورة فقط ، لان ذلك كان ضروريا لتأمين الزراعة لها ، وكان حكم هذه المدن ملكيا وراثيا ، وسلطة الملوك مطلقة ، وخصوصا قبل القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، اجتمعت في أيديهم المناصب الاخرى ، كمنصب القاضي وقائد الجيش وكبير الكهنة .

وبدءا من القرن الثاني عشر ق.م جلب المهاجرون من بحر إيجة نظريات بلادهم السياسية الى فينيقية ، الى صور وصيدا وجبيل وأرواد في القرن السادس قبل الميلاد ، وتطلع كل منهم الى زيادة قوته على مر الزمن(٥) .

الى جانب ذلك وجدت تسمية أخرى للفينيقيين وهي : الصيدونيون ، ولم يقصد بها سكان مدينة صيدا فقط بل كامل الشعب الفينيقي(٦) .

وبالنسبة لأصل الفينيقيين هناك آراء متعددة :

ـ احد هذه الآراء نقل عن فيلون الجبيلي ، يصف الفينيقيين بأنهم سكان البلاد الاصليون (جبيل) ، ليس فقط الاشخاص وانما الالهة أيضا ، وبشكل مطلق فان الحضارة الانسانية بكاملها تنتسب الى منطقتهم(٧) .

ـ غير ان هيرودوت يروي أنهم جاؤوا من البحر الارتيري (البحر الاحمر) عبر البحر الميت الى ساحل البحر المتوسط(٨) . في حين يرى سترابو وبلينيوس أن الموطن الاصلي للفينيقيين يقع على ساحل الخليج العربي حيث وجدت المدن والمعابد الفينيقية(٩). ويذكر جوستينوس أن الفينيقيين شردوا من وطنهم بسبب هزة ارضية، واستقروا اولا على البحر السوري (البحر الميت) ، ثم انتقلوا الى ساحل البحر المتوسط(١٠) .

ومن المعروف أن الكنعانيين قد انتشروا من الجنوب باتجاه الشمال ، وتشير النصوص المكتشفة في راس شمرة ، والتي تعود الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، الى أن الفينيقيين قد زحفوا من شبه جزيرة سيناء او النقب ، وتوسعوا باتجاه الشمال ، وهذا ما يذكره هيرودوت أيضا ، الذي يقول انهم نزلوا في خليج العقبة قادمين من منطقة البحر الاحمر(١١) .

وقد اجمع الباحثون على ان الفينيقيين يعدون أحد اكبر الشعوب المتفرعة من الكنعانيين .

بدأ التاريخ الحقيقي للفينيقيين مع نهاية الالف الثاني قبل الميلاد ، اما الفترة الاقدم فمعلوماتنا عنها قليلة ، وهي خاصة بمناطق محددة ولفترات متقطعة كما يتبين من رسائل تل العمارنة واكتشافات جبيل . ويمكن تقسيم الحقبة من ٣٠٠٠ (بدء هجرة الفينيقيين) الى ١٢٠٠ قبل الميلاد ، الى اربع مراحل :

١ ــ المرحلة الاولى وامتدت حتى غزو الهكسوس لمصر ، قامت فيها بين المدن الفينيقية ومصر اتصالات نشيطة ، وظهر الفينيقيون خلالها تابعين لمصر .

٢ ــ المرحلة الثانية بدأت مع خضوع مصر للهكسوس نحو ١٧٠٠ ق.م وانتهاء السيادة المصرية على فينيقية لتحل محلها سيادة الهكسوس .

٣ ــ المرحلة الثالثة وتمتد حتى ١٤٠٠ ق.م وتبدأ بعودة المصريين لغزو فينيقية والزام المدن الفينيقية بدفع الجزية للمصريين (حبوب ــ زيت ــ خمر ــ بخور ...).

٤ ــ مع أمنوفيس الثالث (١٤١١ ق.م ــ ١٣٧٥ ق.م) تبدأ المرحلة الرابعة ، وانتهت بزوال النفوذ المصري عن فينيقية بصورة نهائية(١٢) .

واما الحقبة ما بين ١٢٠٠ و ٧٥٠ ق.م أي عصر الاستقلال : فقد اتصفت بتاسيس ما عرف بالمستعمرات الفينيقية في منطقة البحر المتوسط بكاملها ، ووصول الكتابة الفينيقية والنتائج العلمية والفنية الى اليونان ، وتأسيس قرطاجة .

وفي الفترة الواقعة بين ٧٥٠ ق.م والفتح العربي الاسلامي ، كان على المدن الفينيقية ان تفقد الكثير من استقلالها .

ففي ظل الملك الآشوري تغلات فلاصر الثالث (٧٤٥ ــ ٧٢٧ ق.م) أصبح جزء كبير من فينيقية مقاطعة آشورية ، وقد ادى تعيين الاشوريين لملك في صيدا ووال في صور الى دفع الجزية لهؤلاء ، وتقييد استقلال الفينيقيين بشكل دائم .

وفي ظل السيادة البابلية الحديثة ، تم القضاء على الملكية من قبل القضاة ، وبقي الاستقلال محدودا . وبانتهاء السيادة البابلية على يد الفرس ، حصل الفينيقيون مرة اخرى على قدر كبير من الاستقلال ، الا انهم ظلوا تحت السيادة الفارسية ، وكان عليهم دفع الاتاوة . وبعد محاولات فاشلة في القرن الرابع قبل الميلاد في سبيل الحرية والخلاص من الفرس ، وقع الفينيقيون تحت سيادة الاسكندر الكبير (٣٣٣ق.م)، الذي دمر مدينة صور لمقاومتها . وخلال العصر الهلنستي ازداد النفوذ الهيليني وادى بالتالي الى اختلال التاريخ الفينيقي ، فظهر تاريخ للمدن الفينيقية المتصارعة ، التي ازداد ضعفها فيما بعد لتصبح لعبة في يد القوى المتصارعة في سورية وفلسطين .

وبعد غزو الرومان لفينيقية حصلت المدن الفينيقية من جديد على استقلالها ، واصبحت مركزا للتجارة والثقافة في ظل (السلام الروماني) وحتى العصر البيزنطي(١٣).

والمعروف ان الفينيقيين اخترعوا الابجدية ، وأعطوا لأوربة اسمها ، واشتهروا بالملاحة البحرية وكانوا من أفضل الملاحين البحريين في العالم القديم ، فطافوا حول افريقية ، وساهموا في تطوير صناعة الزجاج وصقله ، ولمع اسمهم في صناعة الصباغ الارجواني بلونيه ، الزهري والقرمزي . مع العلم انه لم يتاجروا بالصباغ الارجواني نفسه بل بالاقمشة المصبوغة به ، وكان باهظ الثمن والحصول عليه يكلف مبالغ طائلة ، كما كان استعماله مقتصرا على الطبقات الحاكمة والغنية آنذاك (٩) . بالاضافة الى ذلك برز الفينيقيون في صناعة العاج والحفر على العظام ، وعملوا بصيد الاسماك والاعمال البحرية على السواحل ، وسيطروا فيما بعد على البحر ، وبنوا الموانىء ، وتوسعوا في حوض البحر الابيض المتوسط ، واسسوا المحطات التجارية والبحرية وامتد نفوذهم حتى انكلترة(١٤) .

واعتمادا على المصادر المتوافرة سوف نحاول أن نعطي فكرة عن دور الملك والاسرة المالكة في فينيقية ونوضح ذلك بالدليل ، لغويا وتاريخيا . وقبل الشروع في ذلك لا بد من الاشارة الى أن البناء الاجتماعي في المجتمع الكنعاني الفينيقي كان على شكل هرمي ، تبدو فيه العناصر المتدرجة التالية :

الملك والاسرة المالكة ، النبلاء ، الكهنة ورجال الدين ، الجيش ، الموظفون ، التجار والصناع والاحرار الاخرون ، والعاملون في مجال الزراعة وصيد الاسماك ، واخيرا العبيد .

وقد قسمت فئات الشعب بشكل عام الى ثلاث فئات : الاحرار وانصاف الاحرار والعبيد(١٥) . سمي الملك ملك بالفينيقية(١٦) ، وقد استعملت هذه التسمية في صيغ كما نلاحظ في الامثلة التالية :

....

ــ (ابي بعل ملك جبيل)(١٧) . وابي بعل اسم معناه « ابي هو بعل » وهو اسم لعدة ملوك بينهم ملك من جبيل ، وملك من سامسيمورونا ، ذكر كخصم لاسر حدون (٦٨٠ ق.م ــ ٦٦٩ ق.م) وآشور بانيبال (٦٦٨ ق.م ــ ٦٢٦ ق.م) وورد عند المؤرخ يوسفوس أن والد حيرام ملك صور يحمل الاسم 'Abi Balos (١٨) .

مدينة جبيل تبعد حوالي ٣٠ كم (الخط الجوي) الى الشمال من بيروت على البحر الابيض المتوسط وهي مدينة فينيقية مع ميناء ، سميت عند الاشوريين Gubla جبلا ، ودعيت في الكتابات المصرية القديمة خلال فترة الدولة الوسطى باسم Kap - ni كابني ، وفي كتابات اخرى Kpn كبن وفي الكتابة السومرية في عهد سلالة اور الثالثة عرفت باسم Ku - ub - la(ki) كوبلا ، وفيما بعد سميت جبْلا ، جبْلي (uru) Gub /Gu-ub-la/li وفي العهد القديم Gebal ، وفي اليونانية بيبلوس Byblos ، وفي اللاتينية بيبلو ، واسمها الحالي في العربية جبْيل (١٩) .

ــ (يحيملك ملك جبيل . .)(٢٠) . ويحيملك : وهو اسم مفرد علم معناه اللغوي « يحيا الملك »(٢١) .

ــ (ايلي بعل ملك جبيل . . .)(٢٢) . ايلي بعل : هو اسم مفرد علم معناه «الهي هو بعل » .(٢٣) .

ــ (شفط بعل ملك جبيل . .)(٢٤) وهو اسم مفرد علم معناه « بعل قد قضى » . وقد ورد ذكر الملك الاول من جبيل si - pi - it - ti - bi ->- il/lu ضمن قائمة ملتزمي الضرائب أيام تغلات فلاصر الثالث (٧٤٥ ــ ٧٢٧ ق.م) ، وبذلك يكون قد حكم حوالي عام ٧٤٠ ق.م ، بينما هناك ملك آخر يحمل هذا الاسم يعود الى القرن الرابع قبل الميلاد .

يظهر الاسم عند آشور بانيبال الثاني كما يلي : sa - pa - ti - ba - al ويذكر في الواح تل العمارنة : si - ip - ti - Ba' Lu ، وفي الوثائق والمستندات الاشورية (Is - pi - it - ti - I (lu ? (٢٥) .

ــ (يحاو ملك جبيل . .)(٢٦) . ويحاو ملك معناه « حي الملك » او « الملك الحي »(٢٧) .

ــ أورو ملك ملك جبيل . .) (٢٨) أورو ملك : اسم علم معناه : « نور الملك» ، أو « الملك هو النور » انظر اسم الملك Iu - ru - mil - Ki ،(٢٩) .

ــ (عزي بعل ملك جبيل . .) (٣٠) وعزي بعل هو اسم علم معناه « بعل هو قوتي ، عزي ، وقد ظهر هذا الاسم عند آشور بانيبال الثاني A - Zi - ba - > - al ، أسس

هذا الملك سلالة جديدة وعرف اسمه من خلال قطع نقدية كثيرة ، وحكم حوالي نهاية فترة السيادة الاخمينية(٢١) .

ـ(فومي ياتون ملك كيتيون ودالي . .)(٢٢) وفومي ياتون اسم علم معناه :« فومي قد اعطى ». حكم هذا الملك من ٣٦١ ق.م ـ ٣١٢ ق.م ، واعـدم اخـيرا من قبل بطلميوس الاول سوتير(٢٣) .

اما كيتيون فهي مدينة لارنكا في قبرص اليوم ، أهم مدينة في الجزء الشرقي مـن الجزيرة ولها ميناء طبيعي . وقد اطلق اسم الليتيين على القبارصة عموما في كتـاب العهد القديم ، واخيرا شمل هذا الاسم جميع سكان جزيرة قبرص(٢٤) . وادبل هي مدينة دالي اليوم ، وتقع الى الشمال الغربي من كيتيون (لارنكا) في وسط قبرص، وظهرت في المسمارية باسـم (uru) E-di-'i - il في قائمـة ملتزمي الضـرائب لاسر حدون ، وخضعت أيضا لاشور بانيبال(٢٥) .

ـ (ملكياتون ملك كتيون ودالي . .)(٢٦) . وملكياتون هو اسم علم معناه « الملك قد اعطى »، وملكياتون والد فومي ياتون . حكم ملكياتون مابين ٣٩٢ ـ ٣٨٨ق.م ، ثم أبعد لمدة سنة عن السلطة عندما احتل الاثينيون بقيادة خابرياس قبرص ،وعينوا الملك ديمو نيكوس بن هيبو نيكوس على كيتيون ، وبعد سنة عاد ملكياتون الى مدينته وحكم حتى سنة ٣٦١ ق.م(٢٧) .

نستنتج من الامثلة السابقة ان الملك كان ملك مدينة ، وسنجد في الامثلة التالية شكلا آخر للملكية ، الا وهو أن الملك ملك شعب او قبيلة .

ـ (الملك اشمن‌عزرملك الصيدونيين . .) (٢٨) . واشمن عزر اسم علـم معناه « اشمن قد ساعد »، واشمن هو اله الصحة (الشفاء) ، والمماثل له عند الاغريق هو الاله اسكليبيوس . والاله اشمن معروف من خلال الاسماء والمعابد في صيدا وقبرص وسردينيا وقرطاجة ، وذكر اسمه لاول مرة في اتفاق اسرحدون مع بعل صور كمايلي: (d) Ja-su-Mu-nu وقد ارتبط اسمه مع عشترت أو ملقـرت ، واشتقاق هـذا الاسم لا يزال غير مؤكد(٢٩) .

(. الملك بدعشترت ملك الصيدونيين .)(٤٠) وبدعشترت اسم عـلم يعني : « بيد عشترت أو عن طريقها رزقت صبياً »(٤١) .

ـ (الملك بدعشترت والابن الشرعي لياتون ملك ملك الصيدونيين . .(٤٢) ياتون ملك : اسم علم معناه : « أعطي الملك ، أو الملك المعطي » . . ومن الملاحظ هنـا

التأكيد على شرعية الابن ،وهنا يمكن ان نسأل : هل كان هناك أولاد شرعيون آخرون تولوا الملكية ؟ كما نسأل عن شرعية بندعشترت نفسه وهل كان شرعيا حقا أم جاء عن طريق آخر كالتبني مثلا ؟ .

- (.. حيرام ملك الصيدونيين ..)(٤٣) . ظهر هذا الملك باسم حيرومو Hi-ru - um-mu ملك صور ضمن قائمة ملتزمي ضرائب تغلات فلاصر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م ؛ وهناك خلاف حول مجال السيادة ، اذ تذكر المعلومات ان ملك صور مارس السيادة على صيدا ايضا ، واستطاعت صور ان تمد وبشكل قوي مجال تأثيرها في القرن الثامن قبل الميلاد . ومن الجدير بالذكر ان تسمية الصيدونيين استعملت للدلالة على جميع الفينيقيين ، وحيرام الثاني المذكور هنا حكم حوالي سنة ٧٤٠ ق.م(٤٤) .

- (.. ازيتفادا .. ملك الدانونيين ..) (٤٥) . اصل هذا الاسم من آسية الصغرى ويقرأ حسب التهجية الحثية ازيتفادا . كان ازيتفادا ملك شعب دانونا الذي عاش في كيليكية جنوب شرق آسيا الصغرى في القرن الثامن قبل الميلاد(٤٦) .

الشكل الثالث من أشكال الالقاب الملكية كان ملك المنطقة أو ملك الاقليم ، حيث كانت سيادته تشمل جماعات السكان والارض معا ، ونجد مثل هذا النوع من الالقاب الملكية في الامثلة التالية :

(.. ملك جبارو على يادي..)(٤٧) . وجبارو اسم علم يعود كما يراه دونر ورروليج الى gabaru (mi)، اي ان أصله من الشعوب المعروفة بالسامية ، بينما يرى بينز انه اسم من آسية الصغرى ، وجبارو كان ملكا على يادي ، وهو الاسم المحلي القديم لما يسمى اليوم زنجرلي وتقع الى جانب سمئل في شمال سورية(٤٨) .

- (في السنة الرابعة ، لما كان ملكياتون ملكا على كيتيون ودالي ..)(٤٩) .

(انا يحاو ملك ملك جبيل.. الذي جعلتني الربة بعلة جبيل ملكا على جبيل.)(٥٠) . اضافة للالقاب الثلاثة المذكورة أعلاه وجد لقب رابع للملك وهو سيد الملوك ، وهو أرفع القاب الملك ، واستخدم كما يبدو للتفاخر والمجاملة ، وقد تقلده بطلميوس ، وفيما يلي بعض النصوص التي تشير الى ذلك :

(في اليوم السابع من شهر حيار (أيار) ، في السنة الحادية والثلاثين لسيد الملوك بطلميوس ابن بطلميوس .. (٥١) ..

(لعنات ملاذ الاحياء ولسيد الملوك بطلميوس يهب بعل شليم بن سيسامي المذبح للحصول على مصير جيد ..)(٥٢) .

وبطليموس هو نفس الاسم اليوناني ، وهذا الملك هو بطليموس الاول سوتير (٣٠٥ – ٢٨٥ ق.م) وكان حسب رأي ديودوروس الصقلي الملك الاخير لـ : لابيتوس (لامبوسا)، وبراكسيبوس ، ووضع مع القبارصة الاخرين الى جانب سلوقس ، وفي سنة ٣١١/٣١٢ ق.م عزل . ومن المعلوم أن اسم بطليموس ورد أيضا في نقوش فينيقية من قبرص باسم بطليموس كما في نقش معصوب(٥٣) .

تسمية أخرى للملك : اضافة الى تسمية الملك ملك، وجدت تسمية اخرى هي مملكوت(٥٤) . كما في الامثلة التاليـة :

(أنا يحاو ملك ملكجبيل . . الذي جعلتني الربة بعلة جبيلملكا علىجبيل .)(٥٥) .

(.. من تكون انت .. أي ملك او انسان ، لا تفتح مرقد الراحة هذا .)(٥٦)

وتجدر الاشارة ان تسمية مملكوت جاءت بمعنى مملكة في امثلة اخرى ..

رمز السيادة الملكية : كان رمز السيادة الملكية نورة (زهرة النوار) وقد وجدت على نقوشبارزة عديدة . كما وجدت على تابوت الملك احيرام يحملها الملك في يده(٥٧) .

لباس الملك : هناك نقش من سمأل يظهر الملك بادراكيب وهو يجلس على كرسي العرش المزخرف ، ويضع قدميه على مسند الاقدام ، وخلفه عبد يلوح بالمروحة (المنشة) ، ويحيط بادراكيب بعود من النخيل بيده اليسرى ، تشبه زهرة النوار المذكورة تقريبا ، ويرفعيده اليمنى امرا أو مكلما ، وهو يرتدي حلة طويلة لف طرفها فوق الكتف الايسر ، وانهدل طرفها الاخر المزركش على قدميه ، ويجلس امام الملك كاتب حليق الرأس ، يرتدي ثوبا بسيطا)(٥٨) .

النسب الانثوي للملك : فيما يخص النسب الانثوي لدينا كلمة ميلكيوت ،وهي جمع لكلمة ميلكيت ويقصد بها النسب الانثوي للملك (نساء الملك وقريباته)(٥٩) ونجد ذلك في نقش بت نعم وهذه ترجمته :

(في هذا التابوت ارقد انا بت نعم ، أم الملك عزي بعل ملك جبيل ، أبن فلطبعل كاهن بعلة (جبيل) بثوب وقلنسوة (غطاء الرأس للسيدات) علي وعلبة أحمر الشفاه الذهبية لفمي ، مثل أمهات (قريبات) الملوك اللواتي كن قبلي (٦٠) .

وبَت نعم اسم علم مؤلف من كلمتين بَت بمعنى : بنت ، ونعم بمعنى : النعم — الخيرات فيصبح معنـاه بنت النعم كما تسمى اليوم فتاة باسم أم الخير مثلا . وواضح من خلال النص ان بت نعم لم تكن ملكة كما لم يكن زوجها ملكـا ، بل كانت أماً للملك عزي بعـل ، وزوجها كاهنا للربـة بعلة جبيل . ومـن المعلوم ان الايجيين والقبارصة كذلك في آسية الصغرى ، كانوا يستعملون طلاء الشفاه (ربمـا أحمـر الشفاه) لموتاهم ، فمنذ الالف الاول ق.م ساد استعماله في آسية الصغرى بوساطة علبة معدنية مغلقة ، حيث كانوا يستعملونه لمنع دخول الشياطين الى اجسادهم . كذلك استعمل في قرطاجة إذ وجدت في المقابر التي تعود للقرن السادس علب فضـية ضمن الاثاث الجنزي الذي كان يدفن مع الاموات(٦١) .

كذلك استعمل اسم ملكة بمعنى ملكة(٦٢) ونجد ذلك في نقش اشمن عزر التالي :

(... أنا اشمن عـزر ملك الصيدونيين ، ابن الملك تبنيت ملك الصيدونيين ، حفيد الملك اشمن عزر ملك الصيدونيين ، وأمي أم عشترت كاهنة عشترت ربتنا **الملكة** بنت الملك اشمن عزر ملك الصيدونيين ...)(٦٣) . وأم عشترت : اسم علـم معنـاه (أمة عشترت ، خادمة عشترت)(٦٤) . ولا توجـد دلائل واضحة على وضـع الملكة في المصادر الفينيقية ، والتوراة تذكر زوجة الملك أهاب اليصابات (ايزابيل) وهي ابنـة ملك الصيدونيين ايتوبعل ، وقد خدم أهاب لذلك بعل . ونصل من هذا الى المكانـة المرموقة التي حظيت بها الملكة بشكل عام(٦٥) .

اضافة لذلك كانت الملكة كاهنة لعشترت وفي ذلك برهان على مكانتها الرفيعـة أيضا . اما بالنسبة للام الملكة فقد حظيت باحترام كبير ، وكان على المرء أن يركـع امامها سبع مرات ، سبع مرات (والمقصود بذلك سبع مرات على ظهره ، وسبع مرات على بطنه) :

(... الى اقدام سيدتي ركعت انا سبع مرات ، سبع مرات ...)(٦٦)

ومن رسالة للملك نلمس احترام الام الملكة ايضا :

(الى اقدام امي ركعت انا ، اتمنى لأمي الخير ، لتحميك الالهة وتحفظك ..)(٦٧)

من هذا نستنتج أن الملكة الام تمتعت باحترام كبير من الملك والوجهاء والموظفين، ومارست تصرفات الملكة نفسها في شؤون الدولة .

إخوة الملك : مكانة اخوة الملك غير واضحة ، وهناك امثلة تدل على حدوث توترات قوية بين الملك وسكان المدينة النبلاء ، ادت الى عزل الملـك أو قتله مثلما حصـل في

اوجاريت وارقاطة وتعنك ، وان اخوة الملك (الاشقاء) شاركوا احيانا في الثورة ضده كما حصل في جبيل وجيزر وتوبيهي(٦٨) .

الملكية الوراثية : كان الحكم في دول المدن الكنعانية الفينيقية قبل القرن الثاني عشر ق.م ملكيا مطلقا ، ومع هجرة الايجيين واندماجهم التدريجي مع الكنعانيين تسربت مفاهيم وافكار سياسية جديدة الى فينيقية ، ورغم ذلك استمرت ادارة الحكومة من قبل الملوك الذين حلوا في المدن الفينيقية بالوراثة ولدينا امثلة كثيرة حول ذلك نكتفي ببعضها :

(ابي بعل ملك جبيل ، ابن يحميلك ملك جبيل . .)(٦٩) .

(شفط بعل ملك جبيل، ابن ايلي بعل ملك جبيل، ابن يحيملك ملك جبيل. .)(٧٠)

(انا تبنيت كاهن عشترت ملك الصيدونيين ، ابن اشمن عزر كاهن عشترت ملك الصيدونيين . . .)(٧١) .

(. . . انا اشمن عزر ملك الصيدونيين ، ابن الملك تبنيت ملك الصيدونيين ، حفيد الملك اشمن عزر ملك الصيدونيين وأمي أم عشترت كاهنة عشترت ربتنا الملكة بنت الملك اشمن عزر ملك الصيدونيين . . .)(٧٢) .

(انا بدعشترت والابن الشرعي لياتون ملك ملك الصيدونيين . . .)(٧٣) .

(. . . انا كيلاموڤا بن حيا جلست على كرسي ابي . .)(٧٤) . والاسم من آسية الصغرى وقد بني من عنصر متكرر ـــ موڤا في نهاية الاسم انظر :

(٧٥) I Mi-is - ra - mu - wa, Id šaušga - mu - wa, Klnmw :

(. . فومي ياتون ملك كيتيون ودالي، ابن ملكياتون ملك كيتيون ودالي. .)(٧٦).

نلاحظ أن هناك سلالات أو اسر متعددة استطاعت أن تعيد دورها كاملا أو ناقصا ، كذلك عندما قامت الحروب أو الانقلابات في الاسر الحاكمة وقلبت هذه الادوار راسا على عقب(٧٧) مثال ذلك نقش بت نعم المذكور الذي يستخلص منه أن أم الملك لم تكن ملكة ، وان اباه لم يكن ملكا أيضا بل كان كاهنا لبعلة جبيل ، الا أن الابن عزّي بعل كان ملكا وهذا يدل على أن الملكية الوراثية تعرضت احيانا للتبديل والتغيير ، وشابتها بعض الاستثناءات كما في المثال التالي :

(انا يحاو ملك ملك جبيل ابن يحار بعل حفيد أورو ملك ملك جبيل . .)(٧٨).

يغلب الظن هنا ان والد يحار بعل نفسه لم يكن ملكا ، اما امه فلا يوجد اي ذكر لها في النقوش الفينيقية .

والجدير بالذكر انه قد حصل بعد الغزو الاشوري لبعض المدن الفينيقية تعيين حاكم آشوري SKn الى جانب الملك ليراقب أعماله كما حصل في عهد اسرحدون (٦٨١ ق.م - ٦٦٩/٦٦٨ق.م) بتعيين والٍ في مدينة صور يراقب أعمال الملك(٧٩).

لم يكن الملك حاكما سياسيا فحسب ، بل كان قائدا عسكريا ، وكاهنا ، وبناءً، وتاجرا أيضا . كان حاكما مطلقا ، لكن ماذا حكم واين كانت مجالات حكمه ؟ نجد الجواب في النصوص التالية :

(هذه المرقعة (المشقة) الذهبية ، التي وهبها الملك ملكياتون ملك كيتيون ودالي ، ابن بعلرام الى الهه رشف ميكل في دالي ، في شهر بول في السنةالثانيةلحكمه على كيتيون ودالي ، حتى يسمع قوله ويباركه).(٨٠) .

- (.. حكم جبارو على يادي ..)(٨١) .

(.. وأعطانا سيد الملوك (دور ويافا) الاراضي الخصبة التي في مزرعةشارون، لاعمالي العظيمة التي قمت بها ، ونحن ضممناها (اتبعناها) الى حدود البلاد، لتكون للصيدونيين الى الابد ..)(٨٢) .

وتقع دور جنوب الكرمل على الساحل ، وهي اليوم « البرج » عند الطنطورة(٨٣)

sgs : يافا ، في الاكادية (uru) Ja - pu ، وهي مدينة يافا اليوم وتعني الجميلة (٨٤).

(انا أزيتفادا المبارك (من) بعل ، خادم بعل ، الذي جعلني أورك قويا ، انا ملك الدانونيين ، لقد جعلني بعل للدانونيين أباً وأماً ، وأحييت أنا الدانونيين ، لقد وسعت انا بلاد أضنة البعيدة من مشرق الشمس وحتى مغربها ، وكانت في أيامي الخيرات كلها للدانونيين والشبع والنعم ..)(٨٥) .

(.. ولكن اذا ملك بين الملوك أو حاكم بين الحكام أو قائد جيش زحف ضد جبيل وأزاح (فتح) هذا التابوت ، فينبغي ان تنتزع عصا سلطته ، ويقلب كرسي عرشه ويزول السلام عن جبيل ..)(٨٦) .

وحاول الملوك ان يسخروا سلطتهم في رفع مظالم الملوك السابقين عن ابناء شعبهم كما يتضح من النص التالي :

ـ (.. انا كيلاموفابن حيا ، جلست على كرسي ابي ، امام الملوك السابقين زمجر الموشكابيم كالكلاب ، وانا كنت لأحدهم أبـاً ، وللثاني اماً ، وللثالث اخاً ، ومن لم ير شاة قط من قبل جعلته صاحب قطيع غنم ، ومن لم ير قط من قبل ثورا جعلته صاحب بقر ومالكا للفضة والذهب ، ومن لم ير منذ صباه الكتان كسوته بثوب . ورفعت انا الموشكابيم على اليد ، وأحسوا بالروح كاحساس اليتيم بأمه ..)(٨٧) .
وطبقة الموشكابيم : هي طبقة من طبقات الشعب الفينيقي كانت تتالف على الاغلب من الفلاحين الاصليين سكان البلاد القدامى والمستوطنين الذين أخضعوا من طبقة الرجال الاراميين الجدد . وكانت معاملتهم مهينة وغير مرضية في ايام الملوك الذين سبقوا كيلاموفا كما يوضح نقش كيلاموفا(٨٨) .

وهنا يطرح السؤال التالي نفسه : بهذه الرعاية الملكية هل سادت حقيقة هذه الاوضاع الفردوسية ؟ وهل كانت هذه الخصال المكتوبة حقيقية ؟ اننا لا نملك اي دليل من قبل الموشكابيم ،وهنا نستفسر عن الاسباب التي دعت الملك الى ذلك : هل كان الملك ضعيف الشخصية حتى اضطر لشراء هؤلاء الموشكابيم ؟ أم كان صاحب الفضل عليهم لاسباب اخرى ؟.

نلاحظ أيضا تناقضات الملك نفسه في هذا النص ،حيث وفق بين الحسنات والسيئات ففي تتمة نقشه يقول :

(.. ومن يتلف هذا النقش : ينبغي ان يسحق راسه بعل صمد (الذي ينتمي الى بيت جبارو) وينبغي على بعل حمون (الذي ينتمي الى باماهو) وراكب إبل سيد هذا البيت أن يسحقا رأسه)(٨٩) .

وهكذا يجب ان تفصل فكرة السيادة الملكية عن شخصية الحاكم ، اذ يعتبر الحاكم كرمز مؤقت للسيادة ، لقد أثبت الملك شرعية مراسيمه بوساطة الخاتم الملكي، الذي كان يورث في الاسرة المالكة ، وبذلك يحمل مرسومه الملكي تأييد سابقيه ، الذين يتولون الفصل في القضايا مباشرة ، ولذلك طالب ملوك أوجاريت بخاتم سابقيهم مؤسسي اسرهم للاحتفاظ به (٩٠) .

كان الدعم الاخر للملوك الالهة ، وكان الملوك متعلقين بهم وبحاجة لوقوفهم الى جانبهم . ولدينا امثلة متعددة تبين حاجة الملوك لدعم الالهة وكسب رضاها ، وحاولوا

كسب ودها والحصول على تأيدها ومباركتها بوسائل متعددة كتقديم الهدايا . وبناء المعابد ووقف الاوقاف ومن هذه الامثلة :

(هذا المعبد بناه يحيملك ملك جبيل . هو رمم كل أنقاض هذه البيوت . ليطيل اله السماء (بعل شميم) والهة جبيل ومجمع آلهة جبيل المقدس ايام يحيملك وسنواته على جبيل ، لانه ملك صادق وملك مستقيم أمام آلهة جبيل المقدسين (هو) (٩١) .

ـ (أنا يحاو ملك ملك جبيل ؛ ابن يحار بعل حفيد اورو ملك ملك جبيل الذي جعلتني الربة بعلة جبيل ملكا على جبيل . وناديت ربتي وسمعت ندائي . .)(٩٢) وبذلك كان الملك سيدا على كل شيء ، فهو صاحب الحق في الاملاك وفي انتزاعها وتوزيعها على من يشاء)(٩٢) .

الملك قائد أعلى للجيش : اضافة لعمل الملك كحاكم سياسى كان قائدا أعلى للجيش . نجد ذلك في النص التالي :

ـ (. . . وانا ملأت مستودعات فاعر ، واتبعت الحصان بالحصان والمجن بالمجن والعسكر بالمعسكر ، بوساطة بعل والآلهة ، وحطمت المعانديـن وأهلكت كل الاشرار في الارض ، وأقمت أنا بيت سيادتي على النعم وجعلت الخير أساس حكمي. وجلست على كرسي أبي وأقمت السلام مع كل ملك ، وعاملني كل ملك بالابوة ، بسبب صدقي وحكمتي وطيب قلبي . وبنيت أنا تحصينات قوية في كل الاطراف ، على الحدود ، على الاماكن حيث كان الناس الاشرار ، رؤساء العصابات الذين لم يخضعوا لبيت مافاش ، وأنا أزيتفادا وضعتهم تحت قدمي ، وبنيت التحصينات في كل مكان لتكون لسكن الدانونيين ، وأخضعت أنا بلادا قوية في مغرب الشمس التي لم يخضعها كل الملوك الذين كانوا قبلي . .)(٩٤) .

وبذلك يتضح ان الملك بصفته قائدا أعلى للجيش عمل على اعداد المستودعات وتأمين العتاد اللازم والخيول المدربة وبناء التحصينات القوية في كل مكان، وسهر على الامن في الداخل والخارج وقضى على العصاة والخارجين على القانون والنظام وأحل الامن والسلام في كل مكان في بلاده لينعم شعبه بالراحة والاطمئنان .

اما من أجاريت فليس لدينا في النصوص الادارية المتأخرة والرسائل الموثوقة اي دليل يشهد على القيادة الشخصية للملك في القرن الرابع عشر ق.م ، الا ان النظام الاقطاعي اثبت أنه كان ظاهريا (الملك) القائد العام للجيش(٩٥) .

الملك كاهن : كان الملك كاهنا أيضا ، ويظهر ذلك من نصوص عدة ففي صيدا تقلد تبنيت منصب كاهن عشترت ، اضافة لمنصبه ملكا على الصيدونيين :

ـ (أنا تبنيت كاهن عشترت ملك الصيدونيين ، ابن اشمن عزر كاهن عشترت ملك الصيدونيين . .)(٩٦) .

ونجد في نقش اشمن عزر أن أمه أم عشترت تقلدت منصب كاهنة عشترت اضافة لكونها ملكة ، كما في النص التالي:

ـ (. . انا اشمن عزر ملك الصيدونيين ، ابن الملك تبنيت ملك الصيدونيين ، حفيد الملك اشمن عزر ملك الصيدونيين ، وأمي أم عشترت كاهنة عشترت ربتنا الملكة ، بنت اشمن عزر ملك الصيدونيين . .)(٩٧) .

لقد احتفظ الملك ، بصفته كاهنا اعلى وملكا ، بعلاقات وثيقة مع الالهة وقدم لها الهدايا والهبات وبنى لها المعابد ، ووقف لها الاشياء المختلفة لكسب ودها والحصول على رضاها ومباركتها ، والنصوص كثيرة بهذا الخصوص :

ـ (هذه الصورة (اللوحة النذرية) حضرها (جلبها) أبي بعل ملك جبيل ، ابن يحيملك ملك جبيل في مصر (من مصر) لبعلة جبيل آلهته ، لتطيل بعلة جبيل ايام أبي بعل وسنوانه على جبيل)(٩٨) .

ـ (انا يحاو ملك ملك جبيل ، ابن يحار بعل حفيد اورو ملك ملك جبيل ، الذي نصبتني الربة بعلة جبيل ملكا على جبيل . وناديت انا ربتي بعلة جبيل وسمعت ندائي . فصنعت أنا لربتي بعلة جبيل هذا المذبح النحاسي (البرونزي) الذي في هذا . . .، وهذا الباب الذهبي الذي أمام بابي هذا ، والشمس المجنحة الذهبية التي في وسط الحجر الذي على الباب الذهبي هذا ، وهذه الاروقة واعمدتها والتيجان التي فوقها ، وسقفها ، صنعتها أنا يحاو ملك ملك جبيل لربتي بعلة جبيل ، كما دعوت ربتي بعلة جبيل، وسمعت دعائي ، وجعلت لي النعم (الخيرات) ، لتبارك بعلة جبيل يحاو ملك ملك جبيل ، وتحييه ، وتطيل أيامه وسنواته على جبيل ، لأنه ملك صادق هو ، وتعطيه الربة بعلة جبيل الرحمة (الحنان) أمام الالهة وأمام شعب الارض هذا وحنان شعب الارض هذا ، والحنان امام كل الملوك وكل انسان (الذي) يجمع لينجز العمل لهذا المذبح والباب الذهبي هذا وهذه الاروقة . اسمي انا يحاو ملك ملك جبيل. هل ستضع نفسك لهذا العمل ؟ لكن اذا لم تضع لنفسك اسما ، أو تبعد هذا العمل

او تنقل هذا الـ . . . مع اساسه من هذا المكان وتزيل مخبأه ، فعندئذ ستهلك الربة بعلة جبيل الانسان هذا وكل نسله أمام كل آلهة جبيل)(٩٩) . .

ــ (هذه المرقعة (المشقة) الذهبية التي وهبها الملك ملكيانون ملك كيتيون ودالي ، ابن بعلرام الى الآلهة رشف ميكل في دالي في شهر بول في السنة الثانية لحكمه على كيتيون ودالي حتى يسمع قوله ويباركه)(١٠٠) .

الملك بناء : اضافة لما ذكر من أعمال الملك فقد قام بالبناء أيضا ، فبنى البيوت والمعابد ، ورمم البيوت المهدمة ، وبنى الاسوار والقلاع والتحصينات في انحاء متفرقة من البلاد :

ــ (هذا المعبد بناه يحيملك ملك جبيل، هو رمم كل انقاض هذه البيوت.)(١٠١).

ــ (هذا السور (الجدار) بناه شفط بعل ملك جبيل ، ابن ايلي بعل ملك جبيل ، ابن يحيملك ملك جبيل لبعلة جبيل آلهته ، لتطيل بعلة جبيل أيام شفط بعل وسنواته على جبيل)(١٠٢) .

ــ (. . . وبنيت أنا تحصينات قوية في كل الاطراف على الحدود ، في الامكنة التي كان فيها اشخاص اشرار ، رؤساء العصابات الذين لم يخضع منهم احد لبيت مافاش، وأنا أزيتفادا وضعتهم تحت قدمي . وأنا بنيت تحصينات في تلك الاماكن ليسكنها الدانونيون لطمأنينة قلوبهم . . . . وبنيت أنا هذه المدينة وأعطيتها الاسم أزيتفادي لأن بعل ورشف صفاريم(١٠٣) أرسلاني لأبنيها ،وبنيتها أنا بوساطة رحمة بعل وبوساطة رحمة رشف صفاريم . . . (.

الملك وحفظ الامن : ضمن الملك الامن داخل حدود مملكته ، وكذلك أمن المسافرين اليها ، وقام بتعويض المسروقات عند عدم القاء القبض على اللصوص ، كما في النقش التالي :

ــ وحطمت أنا (ازيتفادا) المعاندين ، واقتلعت كل الاشرار الذين كانوا في البلاد، واقمت انا بيت سيادتي على النعم ، وصنعت الخيرات لأصلها . وجلست على كرسي عرش ابي وأقمت السلام مع كل ملك ، وعاملني كل ملك بالابوة ، بسبب صدقي وحكمتي وطيب قلبي ، وبنيت أنا التحصينات القوية على كل الاطراف ، على الحدود، على الاماكن ، حيث كان الناس الاشرار ، رؤساء العصابات الذين لم يخضعوا لبت

مافاش ، وأنا أزيتفادا وضعتهم تحت قدمي ، وبنيت التحصينات في كل مكان لتكون لسكنى الدانونيين لطمأنينة قلوبهم .

واخضعت البلاد القوية في مغرب الشمس التي لم يخضعها كل الملوك الذين كانوا قبلي ، وأنا أزيتفادا أخضعتهم وانزلتهم وأسكنتهم خارج حدودي في مشرق الشمس، وتركت الدانونيين يسكنون هناك ،وكانوا في أيامي في كل حدود مزارع أضنة من مشرق الشمس حتى مغربها وفي كل الاماكن التي كانت قبلي مخيفة ، حيث يخاف المـرء أن يذهب في الطريق ، وفي أيامي أنا تستطيع المراة بمغزل ... بوساطة رحمة بعل والالهة. وكان في كل أيامي الشبع والنعم والمساكن الجيدة وطمأنينة القلب للدانونيين ولكـل مزارع أضنة)(١٠٤) .

الملك تاجر كبير : اضافة لما تقدم من اعمال الملك فقـد كان الملك تاجـراً كبيراً ، والدلائل على ذلك تقول أنه في مدينة صور حكم حيرام الاول (٩٦٩ - ٩٣٦ق.م) في عهد داود وسليمان ، وقد ربح بسبب التجارة في البحـر المتوسط والبحـر الاحمر مشاركة مع سليمان ثروات كبيرة استثمرها في اقامة المباني الضخمة(١٠٥) .

وكتب نجيب ميخائيل ابراهيم قائلا : خاض الملك مغامرات مسـتمرة بسبب نشـاطاته التجاريـة ، واثـر نجاحـه أو فشـله في هذه الحملات التجاريـة علـى وضعه كملك (١٠٦) .

اما في اوجاريت فقد عثر في الجزء الشرقي للقصر الملكي على بقايا محل لصياغة الذهب وورشة للمجوهرات كانت ملكيتها تعود للملك ، وتحتوي هذه الموجودات على عدد كبير من الحجارة الثمينة والحلي الذهبية (١٠٧) .

ومن رسالة حثية اهتمت بنقل الحبوب في احدى المجاعات في الساحل الجنوبي من الاناضول استنتج Nougayrol (نوغايرول) أن ملك أوجاريت كان يأمر عنـد شحن كل سفينة أن يؤخذ حوالي خمسمائة طن مـن على ظهرها(١٠٨) . وهنـا يشك المرء في هذا الرقم كما يشك في حمولة السـفينة .

سكن الملك وحديقة القصر والاصطبل الملكي : سكن الملك في قصر على هضبة تقع على ساحل البحر ، مع معبد وضريح كما نعلم ذلك من جبيل ، وبالنسبة للقصر الملكي في اوجاريت فقد استقينا معلوماتنا من الحفريات التي جرت هناك ، حيث شغل القصر الملكي مساحة تقدر بـ ستة آلاف وخمسـمائة - ٦٥٠٠ - متر مربع في القرن الرابع عشر

ق.م والثالث عشر ق.م ، وكان الجزء الاعظم منه قد رتب في مكان منتظم ذي طابقين لأجل اقامة سرايا متتالية وكبيرة المساحة .

كان المسكن كبيرا وماهولا ، وعلى امتداد الزاوية اليمنى شرقي القصر اقيمت الحديقة والامكنة المتصلة استعملت محلات وورشات لنحت العاج ، والى الجنوب من مكاتب القصر وجد حوض ماء يلاصق غرف الارشيف حيث وجدت رسائل سياسية ومعاهدات كما حفظت احكام قضائية ، ووثائق كتابية مختلفة ، والى الجنوب من القصر الملكي وجد قصر ثان اصغر من القصر الاول ، في الشمال الشرقي من منطقة القصر لنصل نحن الى حي اقامة الملك .

وجدير بالذكر أن القصر تعرض مرة أو مرتين للحريق واصابته خسائر فادحة ، وقد جمعت من بين الانقاض قطع مكسرة لأوعية كبيرة من الذهب ، كذلك صناديق من العاج وكراسي وعلب من البورفير (حجر السماق)، والعقيق اليماني والجزع والعقيق الاحمر وحجارة كريمة اخرى .

وقد حمي القصر بحصن منيع وكان في وسط برج ضخم مساحته ١٤م٢ ، وكانت هناك أسلحة كثيرة مبعثرة في منطقة القصر بكاملها وهذه تعود في ماضي الزمان الى النبالة (النشابين) الذين تولوا حماية القصر(١٠٩) .

هذا فيما يتعلق بقصر اوجاريت اما بالنسبة لقصر مدينة صور فانه اذا كان المرء قادرا على تصور أبعاد قصر اوجاريت الضخمة فانه سيعجز بالتالي عن وصف ضخامة قصر مدينة صور ، وكان كلود شيفر قد اعلن ان ثروة قصر مدينة صور لا يمكن ان تقدر(١١٠) . وبخصوص حديقة القصر فقد وصفها أحدهم بأنها حديقة أزهار مع حوض ماء في الزاوية اليمنى وطريق دائري ، وقد وجدت مجاري مائية تحت حوض الماء (١١١) .

اضافة لما تقدم فقد كشفت الاصطبلات الملكية ، وظهر هنا لوح ضخم بالكتابة المسمارية وموجودات لمعدات عسكرية كانت تحفظ في ترسانات الاسلحة ، وتوزع في أيام الحرب على الجنود (١١٢) .

* * *

الحواشي :

- الاختصارات -

AAAS	Les Annales Archeologiques Syrienne Damaskus.
AFO	Archiv für Orientforschung,Berlin, (später) Graz.
Benz,PN	Frank L. Benz,Personal Names in the phoenician and punic Inscriptions, Rome,Biblical Institute Press,1972.
Bibel	Die Bibel,Altes und Neues Testament, Einheitsübersetzung,Herder Freiburg. Basel.Wien,Katholische Bibelanstalt Gmb H,Stuttgart,1980.
En Br	Encyclopaedia Britannica,Encyclopaedia Britannica INC.,William Benton Publisher,Chicago.London.Toronto. Geneva.
Friedrich-Röllig,PPG	Johannes Friedrich-Wolfgang Röllig, phönizisch-Punisch Grammatik,An Or, 46,(I-00 187 Roma pizza pilotta 35), 1970.
Harris,Grammar	Z.S.Harris,A Grammar of the phoenician Language,AOS 8 (New Haven), 1936.
IAKA	R.Borger,Die Inschriften Asarhaddons Königs von Assyrien,Graz,1956.
JNES	Journal of Near Eastern Studies, Chicago,Illinois.

– الاختصارات –

KAI	H.Donner-W.Röllig,Kanaanäische und Aramäische Inschriften,zweite,durchgesehene und erweiterte Auflage, Wiesbaden,Band I:Texte,1966;Band II: Kommentar,1968;Band III:Glossare und Indizes Tafeln,1969.
Lidzbarski, Handbuch	Mark Lidzbarski,Handbuch der nordsemitischen Epigraphik,nebst Ausgewählten Inschriften,I. Teil:Text, George Olms Verlagsbuchhandlung, Hildesheim,1962.
RE	Pauly-Wissowa,Paulys Realencyclopädie der classischen Altertumswissenschaft, Stuttgart,1894 ff.
RLA	Erich Ebeling und Bruno Meiss;später Ernst Weidner und Wolfram von Soden, Reallexicon der Assyriologie und vorderasiatischen Archäologie, Berlin und Leipzig (später Berlin und New york),1932ff..
RŠ	Ras Schamra
P.	Page
Segert, Grammar	Stanislav Segert,A Grammar of phoenician and punic,München,Verlag C.H. Beck München,1976.
Syria	Syria.Revue d'art oriental et d'archéologie,Paris.

- الاختصارات ٣ -

Tomback, Lexicon	Richard. S. Tomback, A comparativ semitic Lexicon of the phoenician and punic Languages, Scholars press, Missoula, Montana, printed in the United States of America, 1978.
UF	Ugarit-Forschungen (Kevelaer/Neu KirchenVluyn).
v.Chr.	vor Christus

(1) RE,39,1941,P.350-353 ; En Br,17,1962,p.763 ; Moscati,S.,The World of the Phoenicians,New-york,Washington,Friedrick A. Praeger publishers, 1968,P.5-7; Baramki,D.,Die Phönizier,Stuttgart, 1965,P.9-10; Hamdeh,A.,Die sozialen Strukturen im Phönizien des ersten Jahrtausends vor Christus,Würzburg,1985,P.2-4.

(2) RE,39,1941,P.354;En Br,17,1962,P.764;Moscati, S,Die Phöniker von 1200 v.Christus bis zum Untergang Karthagos,Zürich,Kindler-verlag,1966, P.16 ;Hamdeh,A.,Die sozialen Strukturen ..., P.7-8; مجلة دراسات تاريخية، العدد ٢٩-٣٠، دمشق، ١٩٨٨ د. عيد مرعي.

(3) Bibel,Genesis,10,15.

(4) Delaporte,L.,Die Völker des antiken Orients, Die Babylonier,Assyrer,Perser und Phöniker, Freiburg im Breisgau,1933,P.318; Meyer,E., Geschichte des Altertums,zweiter Band,zweite Abteilung,dritte Auflage,Darmstadt,1953,P.1223; Moscati,S.,Die Phöniker von 1200 ...,P.66.

(5) Baramki,D.,Die Phönizier,P.71-72.

(6) RE,39,1941,P.354;En Br.,17,1962,P.764;Moscati, S.,Die Phöniker von 1200 ...,P.30; Wiesman,D. J.,Peoples of old Testament Times,Oxford,1973, P.262;Hamdeh,A.,Die sozialen Strukturen ..., P.8.

(7) RE,39,1941,P.353 ; Moscati,S.,Die Phöniker von 1200 ...,P.20.

(8) Herodots,Erklärt von Heinrich Stein,erster Band,Buch I,siebente Auflage,Berlin,1962,P.2; Vierter Band,Buch VII,1963,P.90;RE,39,1941,P. 353;Moscati,S.,Die Phöniker von 1200 ...,P.20; Moscati,S.,The world of the Phoenicians,P.5; Movers,F.K.,Die Phönizier,Band II,Neudruck der Ausgabe Berlin 1856,Scientia verlag Aalen,1967, P.56;Delaporte,L.,Die Völker des antiken Orients, ...,P319.

(9) Moscati,S.,Die Phöniker von 1200 ...,P.20; Moscati,S.,The world of the Phoenicians,..., P.5; Delaporte,L.,Die Völker des antiken Orients, P.319.

(10) RE,39,1941,P.353;Moscati,S.,Die Phöniker von 1200 ...,P20-21; Moscati,S.,The world of the Phoenicians,...,P.5.

(11) RE,39,1941,P.353;Moscati,S.,Die Phöniker von 1200 ...,P.19-20;Moscati,S.,The world of the Phoenicians,...,P.4.

(12) RE,39,1941,P.355-357;Hamdeh,A.,Die sozialen Strukturen ...,P.8-11.

(13) Hamdeh,A.,Die sozialen Strukturen ...,P.11-18.

(14) Herm,Gerhard,Die Phönizier Das Purpurreich der Antike,Econ Verlag Gmb H,Düsseldorf und Wien,1973,P. Zu diesem Buch;Hamdeh,A.,Die sozialen Strukturen ...,P.138-144;13-14.

(15) JNES,XXVI,1967,P.102; Hamdeh,A.,Die sozialen Strukturen ...,P.21.

(16) KAI,III,14;Tomback,R.S.,Lexicon,P.180;Segert, S.,Grammar,P.293;Harris,Grammar,1936,P.118 ; Friedrich-Röllig,PPG,1970,75 a,P.28;204 a,P. 98;212,P.101;Lidzbarski,Handbuch,P.310.

(17) KAI,I,5,1.

(18) Benz,PN,P.257;KAI,II,P.8;Harris,Grammar,P.73; Lidzbarski,Handbuch,P.205.

(19) RLA,III,P.673;KAI,II,P.3;Tomback,Lexicon,P. 16;Segert,Grammar,P.286;Lidzbarski,Handbuch, P.248.

(20) KAI,I,4,1;5,1.2;6.1;7.3;Segert,Grammar,82.12,1, P.267.

(21) Benz,PN,P.308-309;KAI,II,P.6;Harris,Grammar, P.101; Segert,Grammar,P.290;Noth,IP,P.28f.; 39^{3},P.206.

(22) KAI,I,6.1;7.2.

(23) Benz,PN,P.266;Harris,Grammar,P.77;KAI,III,P. 45;Noth,IP,P.139-147.

(24) KAI,I,7,1.2;9A,1.

(25) KAI,II,P.9;Benz,PN,P.423-424;Harris,Grammar, P.133;Friedrich-Röllig,PPG,P.30;132 P.60; Segert,Grammar,P.303;Tomback,Lexicon,P.329.

(26) KAI,I,10,1.7.8.9.12.13;Segert,Grammar,82.12, 1.7.8.9.12.13,P.267-268;Lidzbarski,Handbuch, Text a aus Byblos,1.7.8.9.12.13,P.416.

(27) Benz,PN,P.308;Friedrich-Röllig,PPG,12,P.10; Harris,Grammar,P.106;Segert,Grammar,P.290 ; Tomback,Lexicon,P.100;KAI,II,P.12;Lidzbarski, Handbuch,P.287;Noth,IP,P.27-30.

(28)KAI,I,10,1.2;Lidzbarski,Handbuch,Text a aus Byblos,1.2,P.416;Segert,Grammar,82.21,P.267.

(29)Benz,PN,P.274;KAI,II,P.12;Harris,Grammar,P.118; Segert,Grammar,P.284;Lidzbarski,Handbuch,P.226.

(30)KAI,I,11.

(31)KAI,II,P.16;Benz,PN,P.374;Harris,Grammar,P.131; Segert,Grammar,P.297;Tomback,Lexicon,P.240.

(32)KAI,I,32,1.2;33;Lidzbarski,Handbuch,Text aus Limassol,P.419.

(33)Benz,PN,P.391-392;KAI,II,P.50;Harris,Grammar, P.137;Friedrich-Röllig,PPG,P.23;62A,P.24;101A, P.40;Lidzbarski,Handbuch,P.351.

(34)KAI,II,P.50;Segert,Grammar,P.291;Lidzbarski, Handbuch,P.299-300;Wiesman,D.J.,Peoples of Old Testament Times,P.279.

(35)RLA,II,P.273;KAI,II,P.50;Lidzbarski,Handbuch, P.207.

(36)KAI,I,32,2;33,2;38,1;39,1.2;41,5.6;Segert, Grammar,83.42,2,P.274;Lidzbarski,Handbuch,Text A aus Citium 2,P.420;Text aus Idalion 1,1,P. 421.

(37) Benz,PN,P.344-345;KAI,II,P.56;Friedrich-Röllig,PPG,66a,P.24;78C,P.30;Harris,Grammar,P.119;Segert,Grammar,P.293;Lidzbarski,Handbuch,P.311.

(38) KAI,I,13,2;14,1.2.13.14.15.16;Segert,Grammar,82.31,1.2.13.14.15,P.268-269;82.32,P.269.

(39) KAI,II,P.21;Benz,PN,P.278-279;Harris,Grammar,P.83;Segert,Grammar,P.284;Lidzbarski,Handbuch,P.229.

(40) KAI,I,15;16;Segert,Grammar,82.32,P.269.

(41) KAI,II,P.24;Benz,PN,P.283-285;Friedrich-Röllig,PPG,40,41a,P.17;Harris,Grammar,P.85;Segert, Grammar,P.285;Lidzbarski,Handbuch,P.234.

(42) KAI,I,16.

(43) KAI,I,31,1;Lidzbarski,Handbuch,Text A aus Limassol,Cypern,P.410;Segert,Grammar,83.31,P.273.

(44) KAI,II,P.49;Benz,PN,P.310;Friedrich-Röllig,PPG,78 d,P.30;Harris,Grammar,P.75;Segert,Grammar,P.77,289;Lidzbarski,Handbuch,P.280.

(45) KAI,I,26A I,1.2;Segert,Grammar,83.12,I,1.2,P.271.

(46) KAI,II,P.38-39;Benz,PN,P.186;Friedrich-Röllig,PPG,P.1;Segert,Grammar,P.282;Tomback,Lexicon,P.180.

(47) KAI,I,24,2;Segert,Grammar,83.11,2,P.270;Friedrich-Röllig,PPG,262,2,P.132.

(48) KAI,II,P.31-32;Harris,Grammar,P.93,105; Benz

PN,P.187;Friedrich-Röllig,PPG,262,2,P.132; Tomback, Lexicon,P.61; Segert,S.,Grammar,P. 286.

(49) KAI,I,39,Die Umsetzung in griechischer Schrift,P.9.

(50) KAI,I,10,1.2;Segert,Grammar,82.22,1.2,P. 268;Lidzbarski,Handbuch,Text a aus Byblos, 1.2,P.416.

(51) KAI,I,40,1;Lidzbarski,Handbuch,Text 3 aus Idalion,1,P.421.

(52) KAI,I,42 phönizisch,1.2.3.4.5;Segert,Grammar, 83.33,1-5,P.273;Lidzbarski,Handbuch,Text aus Larnax Lapithu 1,1-5,P.422.

(53) KAI,II,P.59;J.Brian Peckham,S.J.:The Development of the late phoenician Scripts,Harvard University Press,1968,P.80ff.;Cambridge,Massachusetts,Harvard Semitic Series, VolumXX; M.Weippert and Kurt Galling:Eschmunazar und der Herr der Könige,ZDPV 79,1963,P.145-149 ; KAI,I,19,1.2.3.4.5.6.7.8.9;Lidzbarski,Handbuch, Text e aus Maʿṣub,1-9,P.419.

(54) KAI,III,P.14;Friedrich-Röllig,PPG,207,P.99;306, 2,P.154;Tomback,Lexicon,P.184;Segert,P.293.

(55) KAI,I,10,1.2;Segert,Grammar,82.22,1.2,P.268 Lidzbarski,Handbuch,Text a aus Byblos,1.2,P.416.

(56) KAI,I,14,4;Lidzbarski,Handbuch,Text 2 aus Sidon, 4,P.417;Segert,Grammar,82.31,4,P.268.

(57) KAI,II,P.4.

(58) Samaal,Eckorthostat mit der Darstellung des

Fürsten Barrakib von Samaal,vorderasiatisches Museum,Berlin.,Vgl.Klengel,H.,Geschichte und Kultur Altsyriens,1980,P.235.

(59) Harris,Grammar,P.118;Tomback,Lexicon,P.182; KAI,III,P.14;Friedrich-Röllig,PPG,204a,P.98; 230a,P.1o8;KAI,II,P.16.

(60) KAI,I,11.

(61) KAI,II,P.16;Harris,Grammar,P.87;Lidzbarski, Handbuch,P.247; Christel Butter Weck, Diethelm Conrad, Wilhelms C.Delsman,Manfried Dietrich,Karl Hecker,Heike Sternberg-elHotabi,Frank Kammer Zell,Oswald Loretz,Hans-Peter Müller,Walter W.Müller,Boyo Ockinga,Willem H.Ph.Römer und Hans P.Roschinski: Grab-,Sarg-,Votiv- und Bauinschriften,Texte aus der Umwelt des Alten Testament,Band II,Religiöse Texte,1988,Gütersloher Verlagshaus Gerd Mohn, Printed in Germany, P. 589.

(62) KAI,III,P.14;Segert,Grammar,P.293;Tomback, Lexicon,P.182;Harris,Grammar,P.118;Lidzbarski, Handbuch,P.310.

(63) KAI,I,14,13.14.15;Segert,Grammar,82.31,13.14. 15,P.269;Lidzbarski,Handbuch,Eschmunazarinschrift,Sidon,13.14.15,P.417.

(64) Benz,PN,P.62;269;Segert,Grammar,P.283;KAI,II, P.22.

(65) Bibel,1 Könige,16,30.31.32;Moskati,S.,Die Phöniker von 1200...,P.41;Richter,H.F., Geschlechlichkeit,Ehe und Famili im Alten Testament und seiner Umwelt,Frankfurt am Main, Bern,Las Vegas,1978,P.198.

(66) Virolleaud,Ch.,Textes Alphabétiques de Ras-Shamra,Provenant de la Neuviéme Campagne, Text I,RŠ 9479,6.7.8.9.1o.11,P.127 in: Syria,XIX,1938,P.127-131; Friedrich,J.,Festschrift zum 65. Geburtstag...,P.121;

Donner,H.,Art und Herkunft des Amtes der Königinmutter im Alten Testament,P.121 in: Friedrich,J.,Festschrift zum 65. Geburtstag am 27. August, 1958 gewidmet,Heidelberg,1959.

(67) Virolleaud,Ch.,Lettres et Documents Administratifs provenant des Archives D'Ugarit,II,RŠ 11.872:Lettre du roi(d'ugarit) á la Reine sa mère,Zeile 5-8,P.250 in: Syria,XXI,1940,P.250-253;Friedrich,J,Festschrift zum 65. Geburtstag am 27. August 1958 gewidmet, Heidelberg,1959,P.120.

(68) Müller-Karpe,Hermann,Handbuch der Vorgeschichte vierter Band, Bronzezeit,erster Teilband, München,1980.P.463.

(69) KAI,I,5,1.2.

(70) KAI,I,7,1.2.3.

(71) KAI,I,13,1.2;Lidzbarski,Handbuch,Text 1 aus Sidon,1.2,P.417.

(72) KAI,I,14,13.14.15;Segert,Grammar,82.31,13.14.15,P.69;Lidzbarski,Handbuch,Eschmunazar-inschrift,Sidon,13.14.15,P.417.

(73) KAI,I,16.

(74) KAI,I,24,9;Segert,Grammar,83.11,9,P.270.

(75) KAI,II,P.31;Segert,Grammar,P.291;Benz,PN,P.187;Harris,Grammar,P.111.

(76) KAI,I,33,1.2.

(77) Moskati,S.,Die Phöniker von 1200...,P.66.

(78) KAI,I,10,1.2;Segert,Grammar,82.21,1.2,P.267;Lidzbarski,Handbuch,Text a aus Byblos,1.2,P.416.

(79) IAKA,§69,RŠ III,13 f.,P.108-109;Jirku,A.,Die Welt der Bibel,zweite Auflage,Stuttgart,1957,P.33;Moscati,S.,Die Phöniker von 1200...,P.55 ;RE,39,1941,P.365.

(80) KAI,I,32,1.2;Lidzbarski,Handbuch,Text 1 aus Idalion,1.2,P.421.

(81) KAI,I,24,2;Segert,Grammar,83.11,2,P.270.

(82) KAI,I,14,18.19.20;Segert,Grammar,82.31,18.19.20,P.269;Lidzbarski,Handbuch,Eschmunazar-inschrift,Sidon,18.19.20,P.418.

(83) KAI,II,P.23;Segert,Grammar,P.287;Vertrag Asarhaddons mit Baal von Tyros,AFO,Beiheft 9,§ 69,III,19,P.108;Friedrich-Röllig,PPG,P.10;Lidzbarski,Handbuch,P.254.

(84) KAI,II,P.23;Segert,Grammar,P.290;Lidzbarski,Handbuch,P.289.

(85) KAI,I,26A I,1.2.3.4.5.6;Segert,Grammar,83.12, A I,1.2.3.4.5.6,P.271.

(86) KAI,I,1,· 2;Segert,Grammar,82.11,2,P.267.

(87) KAI,I,24,9.10.11.12.13;Segert,Grammar,83.11, 9.10.11.12.13,P.270.

(88) KAI,II,P.31; Hamdeh,A.,Die sozialen Strukturen ...,P.179-180.

(89) KAI,I,24,15.16;Segert,Grammar,83.11,15.16,P.270.

(90) AAAS,IV-V,1954-1955,P.159ff.

(91) KAI,I,4,3.4.5.6.7;Segert,Grammar,82.12,3.4. 5.6.7,P.267.

(92) KAI,I,10,1.2.3;Segert,Grammar,82.21,1.2.3, P.267;Lidzbarski,Handbuch,Text aus Byblos, 1.2.3,P.416.

(93) AAAS,II,1952,P.14.

(94) KAI,I,26A I,6.7.8.9.10.11.12.13.14.15.16.17. 18.19;Segert,Grammar,83.12,A I,6-19,P.271.

(95) Gray,J.,The Legacy of Canaan,the Ras Shamra Texts and their Relevance to the old Testament, second Revised Edition,Leiden,E.J.Brill,1965, P.222-223.

(96) KAI,I,13,1.2;Lidzbarski,Handbuch,Text 1 aus Sidon,1.2,P.417.

(97) KAI,I,14,13.14.15;Segert,Grammar,82.31,13.14. 15,P.269;Lidzbarski,Handbuch,Eschmunazar-inschrift,Sidon,13.14.15,P.417.

(98) KAI,I,5,1.2.

(99) KAI,I,10,1-16;Segert,Grammar,82.21,1-16,P. 267-268;Lidzbarski,Handbuch,Text a aus Byblos, 1-16,P.416.;Christel Butter Weck,Diethelm Conrad,Wilhelms C.Delsman,Manfried Dietrich, Karl Hecker,Heike Sternberg- el Hotabi,Frank Kammer Zell,Oswald Loretz,Hans-Peter Müller, Boyo Ockinga,Willem H.Ph.Römer und Hans P. Röschinski:
Grab-,Sarg-,Votiv- und Bauinschriften,Texte aus der Umwelt des Alten Testament,Band II, Religiöse Texte,1988,Gütersloher Verlagshaus Gerd Mohn,Printed in Germany,P.586-588.

(100)KAI,I,38,1.2;Lidzbarski,Handbuch,Text 1 aus Idalion,1.2,P.421.

(101) KAI,I,4,1.2;Segert,Grammar,82.12,1.2,P.267.

(102) KAI,I,7,1.2.3.4.5.

(103)KAI,I,26 AI,13.14.15.16.17.18.19;II,9.10. 11.

(104)KAI,I,26A I,8-21;26A II,2-9;Segert,Grammar, 83.12,A I,8-21;A II,1-9,P.27.

(105)Bibel,1 Könige,9-14;1 Könige,10,11;Golo Mann und Alfred Heuß,Propyläen Weltgeschichte, zweiter Band,1962,P.76.

(106) نجيب ميخائيل ابراهيم ، مصر والشرق الأدنى القديم ، المجلد الثالث ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٤ ، الصفحة ٥٠ .

(107)AAAA,II,1952,P.11.

(108)AFO,XIX,1959-1960,P.194-195.

(109)Delaporte,L.,Die Völker des antiken Orients, ...,P.320;Odenthal,J.,Syrien,Hochkulturen zwischen Mittelmeer und Arabischer Wüste 5000 Jahre Geschichte im Spanungsfeld von Orient Okzident,Du Mont Buchverlag Köln,1982,P.239.

(110)AAAS,II,1952,P.22.

(111)AAAS,XXIX-XXX,1979-1980,P.22 مجلة الحوليات الأثرية السورية العدد ٢٩-٣٠ الصفحة ٢٢.

(112)AFO,XIII,1939,P.172.

علاقــات سوريــة التجاريــة

د. محمـود رمزي

١ ـ لمحـة تاريخية :

بين المصالح الاقتصادية السورية والمصالح الاقتصادية لبلدان العالم الاخـرى القريبة والبعيدة ، ارتباط وثيق تفرضه مجموعة من العوامل الجغرافية والتاريخية ، يتقدمها ما تملكه سورية من ثروات طبيعية . وموقعها الجغرافي الهـام على مفترق الطرق العالمية بين ثلاث قارات ، تلتقي عنده خطوط العالم التجارية البرية والبحرية والجوية . ونسـاط سكانها ودورهم في التجارة العالمية عبر العصور(١) .

فمن الناحية الجغرافية . تطل سورية بواجهتها الغربيـة على البحر المتوسط الذي تنتهي عنده طريق الحرير ، اقصر وأيسر طريق بين شرقي آسـيا وغربيهـا . والذي تنفذ بوابانه الى جميع الاتجاهات . ومـن الطبيعي أن تجعل هـذه الوقائع الجغرافية الثابتة من سورية بؤرة مركزية هامة للتجارة في قلب العالم القديم ، تلتقي على أرضها وعلى طول سواحلها طرق التجارة العالمية ، حيث قامت وبوقت مبكـر سلاسل من المدن والموانىء على نسق واحد وبأعداد لا مثيل لها في أية بقعة من الارض. تتمثل في الشـمال بجزيرة ابن عمرو وتـل حلف والرهـا وجرابلس والاسـكندرونة والسويدية وانطاكية واوغاريت واللاذقيـة . وفي الوسـط بمـاري وايبـلا وحلب وقنسرين وادلب وتدمـر وحمص وحماه وطرطوس وارواد وطرابلس الشـام . وأخيرا في الجنوب بدمشق والجابية وبصرى الشام أذرعات (درعا) .

ان الدور الذي لعبته هذه المدن والموانىء في خدمة وحماية الطـرق التجاريـة التي كانت تمر بها أو تنتهي عندها ، كان عظيمـا . فمنذ زمـن اسكنـدر المكدوني (٣٣٣ ق.م) كان لسورية مكانة مرموقة في العلاقات التجارية العالمية . واذا ذهبنا الى أبعد من ذلك ، الى خمسة آلاف سنة مضت . أي منـذ أن تدفقت الى أرض سورية أول موجة بشرية عرفها التاريخ باسم (آمورو) . نرى ان هذه الارض الطيبة كانت أروع مسرح لقصة الانسان ولنشاطاته التجارية ومبادلاته الاقتصاديـة . وصـلات

دراسـات تاريخيـة ، العددان ٤٩ / ٥٠ ، آذار ـ حزيران ١٩٩٤

شعبها مع الجزيرة العربية لم تنقطع . والتجارة بين الشمال والجنوب ، بين بـلاد الشام واليمن ، لم تتوقف تمارسها قريش في رحلتي الشتاء والصيف .

وفي العصور الاسلامية وصلت هذه النشاطات التجارية والمبادلات الاقتصادية الى اوج ازدهارها . فعلى طرقها التي أخذت مداها الكبير في كل الاتجاهـات . كان يتم نقل التوابل والبخور والذهب من شبه الجزيرة العربية . والمنسوجات من ايران . واللآليء من أطراف الخليج . والحرير من الصين . والطيوب والجواهر والعاج مـن الهند . والمعادن من آسيا الصغرى . والخشب والملح والحبوب والفاكهة والمنسوجات والاسلحة الخفيفة والزجاج والزيوت من سورية .

واستمر موقع سـورية الجغرافي ، ذو الاهميـة المتزايـدة ، يساعد أهلها على الاستفادة من نقل البضائع والمتاجرة بها وحملها من أطراف اسيا الى المدن السورية التي أقيمت فيها البيوت التجارية ، ليقوم بعد ذلك تجار البندقية وغيرهم من ملاحي وتجار البحر المتوسط بنقدها بحرا الى المدن الاوربية .

الا ان كشف الطريق البحرية الى الشرق عبر راس الرجاء الصالح وعبر البحـر الاحمر . واكتشاف العالم الجديد . ثم الاحتلال العثماني الذي جعل من سوريـة والبلاد العربية وحدة اقتصادية تقتصر العلاقات فيها على المبادلات الداخلية بـين المدن ، وتفكك الدولة العثمانية ، بعد الحرب العالمية الاولـى ، الى مناطـق نفوذ للمستعمرين . كان نصيب سورية فيها الانتداب الفرنسي .

كل ذلك ادى الى فقدان الطرق البرية التي تنتهـي في السـاحـل السـوري أهميتها . فساد ركود عام شل حركة التجارة الخارجية مع بلدان العالم المختلفـة ، واضعف العلاقات معها حتى اقتصرت على فرنسا ومستعمراتها . وهي علاقات كان الجانب الخاسر فيها دوما سورية .

برغم كل ذلك . لم تفقد سورية مكانتها في عالم التجارة والمواصلات . فقد بقيت ممرا رئيسيا من ممرات العالم الكبرى لتجارة العبور بين الشرق والغرب(٢) . وبمجرد تبدل الاوضاع السياسية في المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية . وحصول سورية على استقلالها وتحررها من الارتباطات الجمركية والقيود التي فرضها الانتداب لربـط اقتصادها بعجلة الاقتصاد الفرنسي . وتيسير السبل لها لسلوك سياسة اقتصادية رشيدة . التجارة الخارجية فيها ، والعلاقات التي تبنى لخدمتها ، لا تخضـع الا لتوجهات المسؤولين عن انعاش اقتصاد البلد واصلاح ميزانه التجاري . خرجـت سورية من عزلتها لتعود الى عالمها التجاري الواسع في خدمة ما استجد من أنظمـة

وعلاقات اقتصادية . وتستعيد علاقاتها بالدول العربية وبدول العالم . وتثبت من جديد ان الطريق البرية للسيارات الشاحنة الكبيرة ، بين أوربا واقطار شبه الجزيرة العربية وبعض المناطق الداخلية من اسيا ، والمارة بسورية، لا زالت تلعب دورا هاما في التجارة والعلاقات التجارية . وان للشبكات التي تنقل النفط والتي تمر بسورية وينتهي بعضها في ساحلها دورها الهام ايضا في التجارة العالمية .

غير أن الوحدة الاقتصادية التي بقيت مع لبنان حتى عام ١٩٥٠ ، وسياسة الاسراف في الاستيراد التي أعقبت الحرب بسبب تعطش السوق الى البضائع الاجنبية المفقودة ، وما نتج عنهما من اغراق البضائع الامريكية والانكليزية للاسواق السورية . يضاف الى ذلك استغلال الجانب اللبناني الوحدة الاقتصادية لمصلحته ، واصرار التجار اللبنانيين على ابقاء سياسة حرية التجارة التي أعقبت الحرب ، رغم الاضرار الفادحة التي كانت تلحقها بالاقتصاد السوري .

كل ذلك قد أدى في بداية فترة الاستقلال الى فقدان التوازن بين الصادرات والواردات ، والى وقوع الميزان التجاري تحت عجز كبير بلغ في الاعوام الاخيرة من عقد الاربعينات أرقاما مخيفة . ففي عام ١٩٤٧ كانت قيمة الواردات ٣٦١ مليون ليرة سورية ، وقيمة الصادرات ٨٧ مليون ليرة سورية فقط . وارتفع العجز من ٢٧٥ مليون ليرة سورية عام ١٩٤٧ الى نحو ٤١٢ مليون(٣) عام ١٩٤٨ .

وأمام هذا الوضع المتردي لم تجد سورية بدأ من ركوب المركب الصعب وفصم الوحدة الاقتصادية مع لبنان كحل لوقف النزيف ولانقاذ الاوضاع الاقتصادية مما آلت اليه(٤) .

ولقد شعرت سورية بشيء من الضيق الاقتصادي فيبادىء الامر ، لان السياسة الاقتصادية البديلة لم تكن جاهزة ، تعاني من بعض السلبيات والنواقص . فالاتصال بالخارج لاتمام الصفقات التجارية كان يتم على يد التجار اللبنانيين . والبرامج الاقتصادية البديلة كانت تحتاج الى الاختبار في التطبيق ، وتفتقر الى ما يساندها في مجال عقد المعاهدات التجارية الثنائية المتكافئة لفتحالاسواق امامالمنتجات السورية وللتشجيع على التصدير والحد من الاستيراد الواسع وخاصة للكماليات .

الا ان هذا الضيق لم يدم طويلا . اذ سرعان ما توصل رجال التجارة في سورية الى كسر الطوق الذي كان تجار لبنان قد فرضوه . وأوجدوا لانفسهم قنوات الاتصال الخارجي اللازم لتسيير أمور تجارتهم على احسن شكل . كما عملت الحكومة

السورية على وضع التشريعات المختلفة التي تحمي اقتصادها مما كان يتهدده من أخطار . فأصدرت في عام ١٩٥٢ عدة مراسيم تشريعية لتشجيع الصناعة وتنشيط الزراعة وحماية الانتاج الوطني من المضاربة والحد من الاستيراد ومنع تصدير المواد اللازمة للاستهلاك المحلي وجعل السوق المحلية تعتمد على المنتجات الوطنية . وسارعت الحكومة أيضا الى اعداد مرفأ اللاذقية اعدادا مؤقتا لاستقبال السفن بدلا من مرفأ بيروت الى أن يتم انجاز المشاريع الكاملة لتوسيع هذا المرفأ . ودعمه ببناء مرفأ اخر في طرطوس بمساحة تساوي مجموع مساحة حوضي مرفئي بيروت واللاذقية معا .

وقد ساهمت هذه التدابير السريعة في انقذ الوضع الاقتصادي في سورية من التدهور . فاعتدل الميزان التجاري . ولاول مرة ، وبالرغم من أن دور البترول لم يبدأ بعد في دعم الاقتصاد بصادراته(٥) ، زادت قيمة الصادرات على قيمة الواردات في عام ١٩٥٣ (٦) .

وبهذه المرحلة الانتقالية القصيرة وبما اتخذ فيها من تدابير اقتصادية سريعة وناجعة ، تمكنت سورية من الانتقال الى المرحلة الاخيرة الحالية من مراحل تطور التجارة الخارجية فيها ، والتي يمكن القول بانها بدأت منذ ان أخضعت الامور الاقتصادية في البلاد ، بما فيها قطاع التجارة الخارجيه ، لسياسة التخطيط . فاصبح التطور فيها يجري وفق خطط خماسية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وفي سبيل تطوير علاقات سورية التجاريه في هذه المرحلة . ومن اجل زيادة حجم التبادل التجاري مع بلدان العالم المختلفة . بذلت جهود كبيرة ، وخاصة في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٦٣ و ١٩٦٩ ، من أجل تأمين أسواق جديدة للمنتجات السوريه . وتأمين مصادر جديدة لاستيراد السلع والتجهيزات اللازمة لتنفيذ مشاريع التنمية الشاملة والمستمرة . وتوج هذا النشاط بعقد المزيد من الاتفاقيات التجارية واتفاقيات التعاون الاقتصادي(٧) .

والشيء البارز في علاقات سورية التجاريه في هذه المرحلة الانتقالية هو ان العلاقات مع البلدان الاشتراكية كانت أسرع في تطورها وزيادة حجمها منها مع البلدان الرأسمالية . كما أن العلاقات التجارية مع البلدان النامية هي الاخرى قد أخذت سبيلها الى التوسع لتفتح أمام منتجات القطاع الصناعي الذي توسع في سورية أسواقا جديدة وواسعة .

وما تجدر اليه الاشارة في هذه المرحلة ، هو دور التطور الهام الذي طرا على

الحياة الاقتصادية في سورية خلال السنوات الاخيرة والذي كان من نتيجته النمو الملحوظ في كافة فروع الاقتصاد بعد أن تم تنفيذ العديد من الخطط الخمسية التنموية التي رسمت بطريقة علمية روعي فيها الانسجام مع واقع البلد الاقتصادي والاجتماعي ، ووضع الاسس الكفيلة بتنمية الصادرات السورية وتنويعها بما يتماشى مع التطور الذي تحقق في مجال الصناعة والتعدين والزراعة. والاقلال ما أمكن من تصدير المواد الاولية . وتشجيع تصدير المنتجات والمواد المصنعة ونصف المصنعة مما يساهم في زيادة الموارد من القطع الاجنبي ، وفي تحرير البلد من التبعية الاقتصادية . وتحقيق تنمية اقتصادية مستمرة ومتوازنة . أما في مجال الاستيراد فقد هدفت هذه الخطط الى الاقلال من استيراد المواد الكمالية وغير الضرورية والى تأمين أفضل المصادر لاستيراد المواد التموينية والسلع والتجهيزات اللازمة لمشاريع التنمية . كما عملت هذه الخطط على تطوير علاقات سورية مع البلدان العربية والاجنبية عن طريق عقد المزيد من الاتفاقيات الاقتصادية التي تسهل زيادة حجم المبادلات . وزيادة عدد الملحقين التجاريين في البعثات الدبلوماسية في الخارج ، وافتتاح مكاتب للتمثيل التجاري في الكثير من بلدان العالم ، والاشتراك في المعارض التي تقام في البلدان العربية وغير العربية ، والتشجيع على زيارة الوفود الاقتصادية ، وافساح المجال لها للاطلاع على المنتجات المحلية المعدة للتصدير(٨) .

وكنتيجة حتمية لهذه السياسات الاقتصادية ، تحولت الجهود التي بذلت لدعم التجارة الخارجية وتوسيع علاقاتها بعد عام ١٩٨٩ الى أرقام فاقت فيها قيمة الصادرات قيمة الواردات بعشرات المليارات من الليرات السورية . واعتدل الميزان التجاري ومالت كفته للمرة الثانية لمصلحة سورية . والجدول رقم ١ مع اللوحة رقم ١ يبينان ذلك بكل وضوح .

ان العجز الذي يبينه الجدول وتظهره اللوحة بالنسبة لاكثر السنين التي سبقت عام ١٩٨٩ ، فناتج عن زيادة أثمان الواردات زيادة كبيرة خطرة حين كانت أمور التجارة الخارجية غير موجهة . فقيمة الواردات في عام ١٩٤٩ وصلت الى أكثر من ٥١٦ مليون ليرة سورية . في حين لم تتجاوز قيمة الصادرات لهذا العام ١١٢ مليون ليرة سورية . فكان العجز أكثر من ٤٠٥ ملايين ليرة سورية .

أما في السنوات الاخيرة ، فقد خف العجز . وأخذ الميزان يميل لمصلحة البلاد. وبدأت أثمان الصادرات تطغى على أثمان الواردات مرة ثانية في عام ١٩٨٩ وذلك بعد المرة الاولى في عام ١٩٥٣ عندما دخل القطن قائمة الصادرات السورية انذاك. ولدخول البترول والفوسفات وبعض المنتجات الصناعية في قائمة الصادرات حاليا .

جـدول رقم ١

تطور قيمة الواردات والصادرات والميزان التجاري في سورية

بـين ١٩٣٩ و ١٩٩٢

السنوات	الـواردات بآلاف اللـيرات السورية	الصادرات بآلاف الليرات السوريـة	الربح أو الخسارة بآلاف الليرات السورية
١٩٣٩	١١٣٢٥٣	٣٦٥١٧	(-)٧٦٧٣٦
١٩٤٩	٥١٦١٨٧	١١١١٠٤	(-)٤٠٥٠٨٣
١٩٥٩	٦٧٨٠٠٠	٤٢٥٠٠٠	(-)٢٥٣٠٠٠
١٩٦٩	١٤١١٠٠٠	٧٩٠٠٠٠	(-)٦٢١٠٠٠
١٩٧٩	١٣٠٦٧٠٠٠	٦٤٥٣٠٠٠	(-)٦٦١٤٠٠٠
١٩٨٩	٢٣٥٤٤٠٠٠	٣٣٧٤٠٠٠٠	(+)١٠١٩٦٠٠٠
١٩٩٢	٣٢٥٠٠٠٠٠	٤٥٠٠٠٠٠٠	(+)١٢٥٠٠٠٠٠

لوحـة رقـم ١

تطور قيمة الواردات والصادرات والميزان التجـاري في سورية

بين ١٩٦٩ و ١٩٩٢

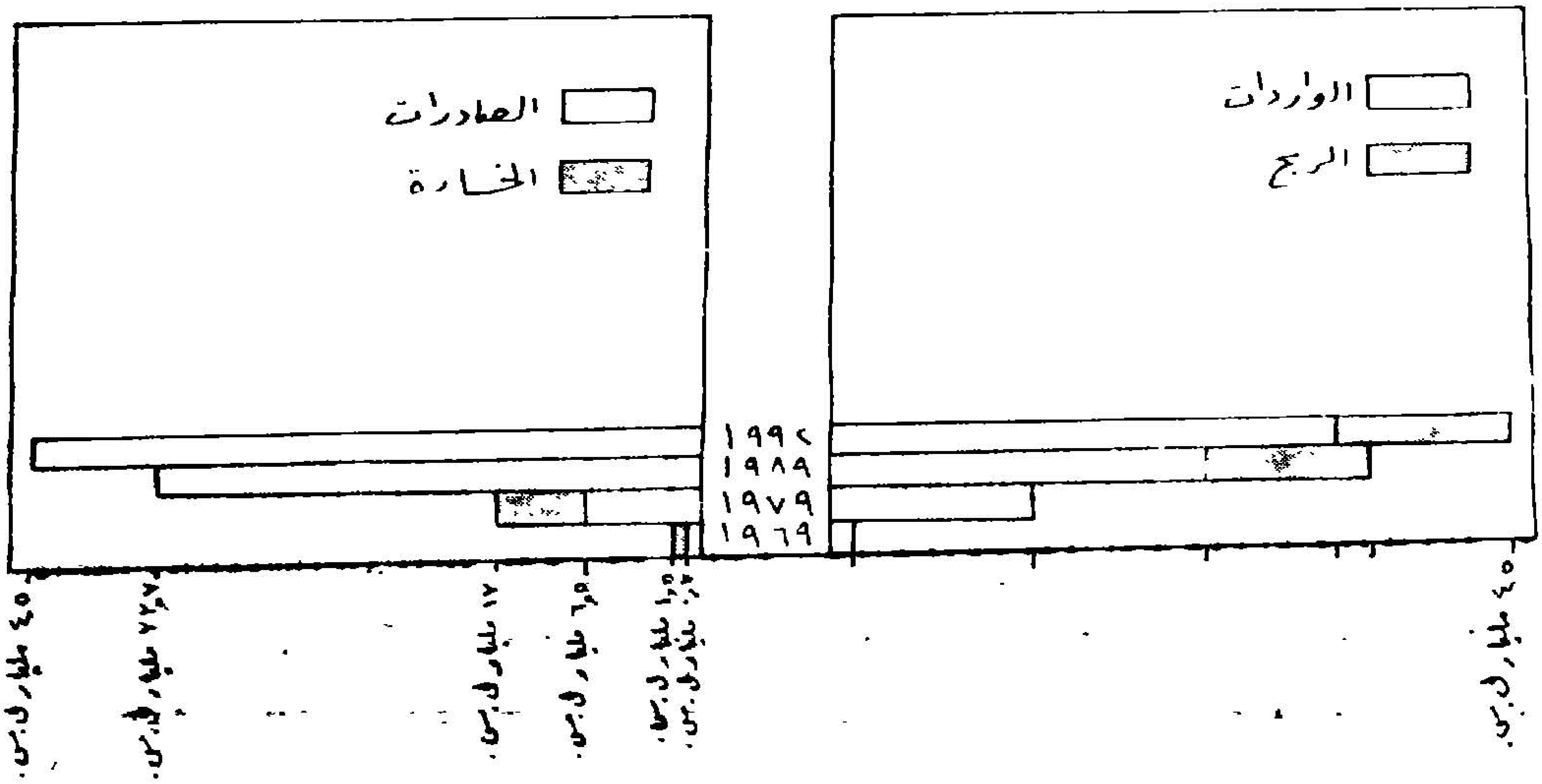

ولمعرفة كيف كانت تحدث هذه الخسارة الكبيرة في الميزان التجاري خلال تلك الفترات من تاريخ التجارة الخارجية السورية وعلاقاتها . ثم معرفة لمن كانت تدفع سورية هذه المبالغ الضخمة من اموالها ، وكيف انخفضت هذه الخسارة . واخذت تتراجع حتى مالت كفة الميزان لمصلحة البلاد . نورد الجدولين رقم ٢و٣ واللوحتين رقم ٢و٣ التالية والتي تمثل أولا جانبا من علاقات سورية التجارية في عام ١٩٤٩عندما كانت سورية تخسر . ثانيا كامل علاقات سورية التجارية في عام ١٩٨٩ عندما أصبحت تربح .

جدول رقم ٢

جانب من علاقات سورية التجارية في عام ١٩٤٩

البلدان	قيمة الواردات (١٠٠٠ ل.س)	قيمة الصادرات (١٠٠٠ ل.س)
مصر	٦٧٨٤	٣٣٨٨
شرق الاردن	١٦٢٦	٢١٠٦٦
فلسطين	١٢٢٨	٨٠٦٩
العراق	٢٦٨١٣	٢٢٣٥٣
المملكة السعودية	١٢٧٥٧	٥٧٨٧
تركيا	١٢٢٩٨	٥٥٦
ايران	٥٩٤٠	١٤٤٠
قبرص	١٢٤٠	٢٤٢
الولايات المتحدة	١١٨٩٦٩	٢٧٥٩
بريطانيا	١٠٨١١٧	٩٦٩٤
فرنسا	٧٠٨٢٣	٧٠٧٢٣
ايطاليا	٢٦٢٧٢	١٣٢١٩
بلجيكا	١٣٠١٢	٢٨٦٤

لوحة رقم ٢

جانب من علاقات سورية التجارية في عام ١٩٤٩

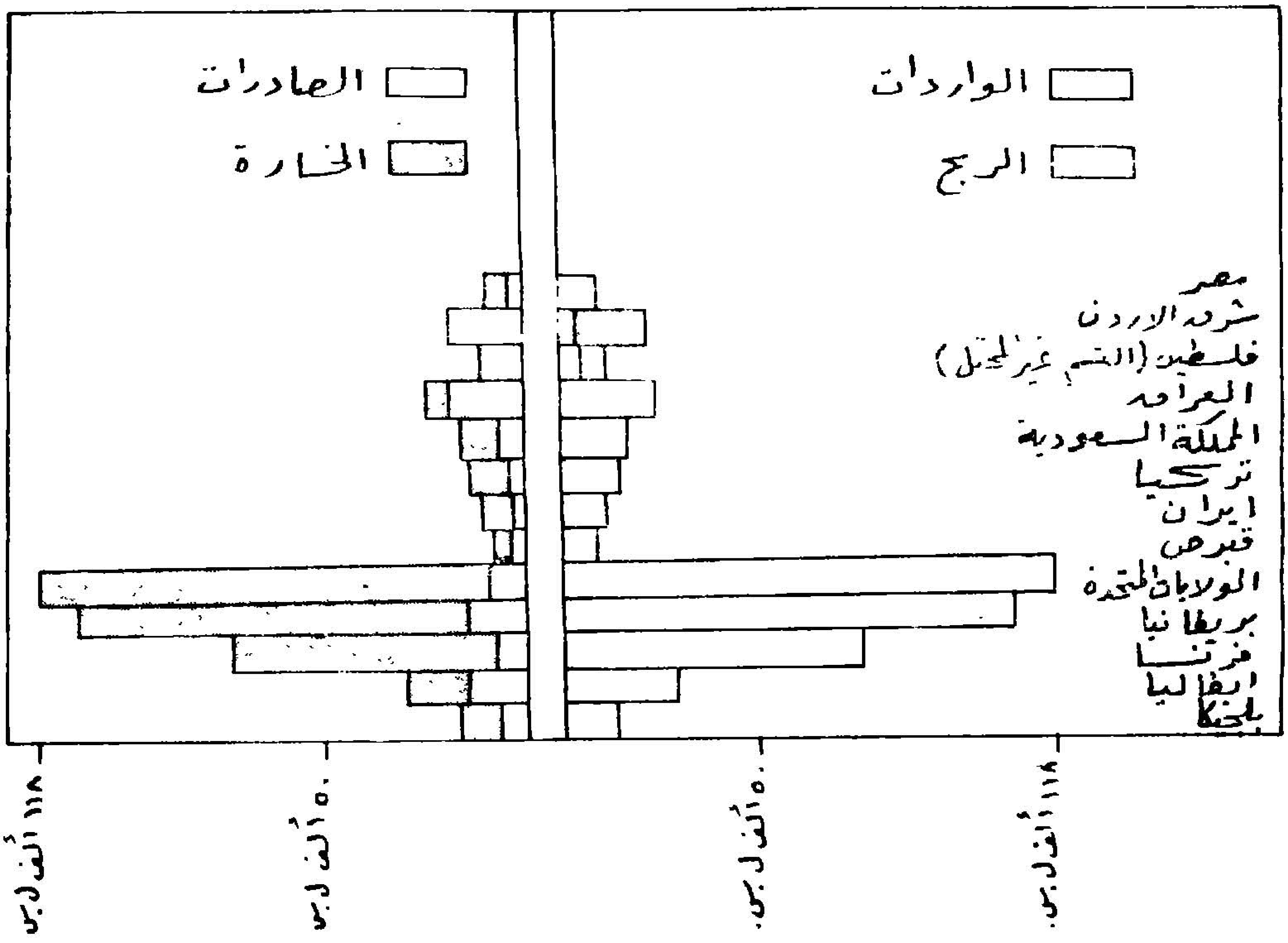

جـدول رقم ٣

علاقات سورية التجاريـة عام ١٩٨٩

مجموعات البلدان	قيمة الواردات (١٠٠٠ ل.س)	قيمة الصادرات (١٠٠٠ ل.س)
البلدان الاشتراكية	٣٣٣٠٢٢٨	١٤٢٢٧١٢٨
بلدان السوق الاوروبية	٩٨٢٧٩٦٨	١٠٤٦٦٦٦١
البلدان العربيـة	١٣٢٤٦١٦	٥٦٣٦١٧٣
البلدان الامريكية	٢١٨٢٦٦٨	٨٠٦٨٤٨
بلدان اوربا الغربية	١٠٨٤٥٤٤	٣٣٤٠٦٦
بقية بلدان العالم	٥٧٩٤٠٩٨	٢٢٩٨٧٦٢

لوحة رقم ٢
علاقات سورية التجارية عام ١٩٨٩

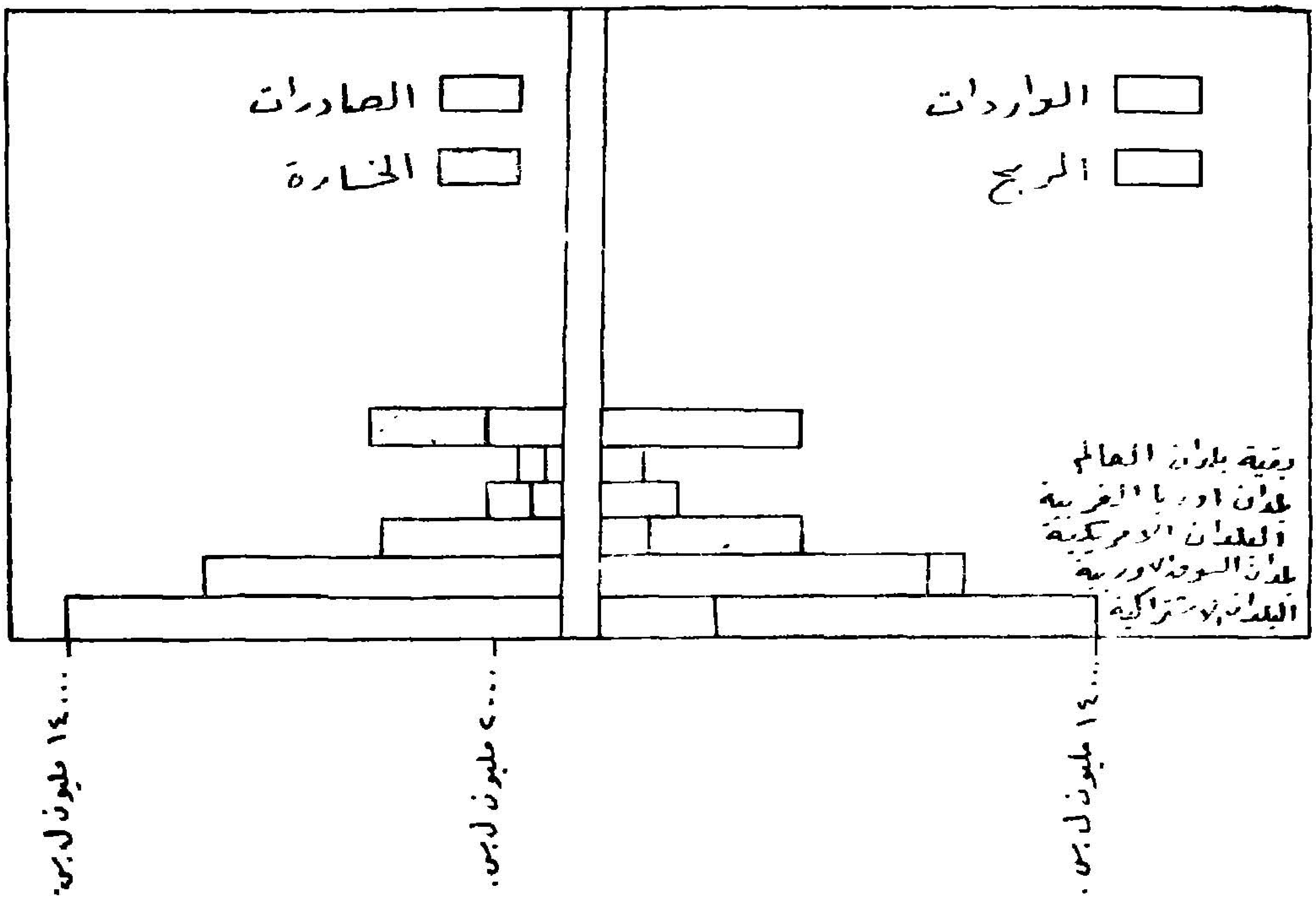

وتظهر هـذه الجداول واللوحات كيف ان معظم الخســارة في المراحل الاولى ، خسارة ١٩٤٩ مثلا كانت تحصل من الفـرق الكبير بين قيمة الواردات من الولايـات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وايطاليا وقيمة الصادرات الى هذه البلـدان . وكيف ان الميزان كان خاسرا مع كل البلدان ، باستثناء شـرق الاردن والقسم غير المحتل مـن فلسطين . وهذه الخسارة الكبيرة في الميزان تستدعي البحث عـن الاسباب والتـي يتلخص أهمها بما يلي :

١ ــ سوء السياسة التجارية بفتح باب الاستيراد على مصراعيه وتقييد التصدير وترك أمور التجارة الخارجية بأيدي تجار لا يعملون الا لمصلحتهم .

٢ ــ ارتفاع ثمن الواردات ، وخاصة التي تشرى بالعملة الصعبة من الأسواق الحرة . وكثرة التكاليف التي تصرف على هذه الواردات لايصالها (فواتير التحميل والتخزين والنقـل والتفريغ والتأمين) . وعـدم ارتفاع ثمـن الصادرات السـورية بالنسبة نفسها .

٣ ــ سياسة الباب المفتوح التي كانت فرنسا تطبقها بالاستناد الى المادة ١١ من صك الانتداب وهي التي كانت تسهل دخول البضائع الاجنبية الى سورية ولبنان بتطبيق التعرفات الجمركية المخفضة عليها . يضاف الى ذلك سياسة الاستيراد التي كان يطبقها لبنان على حساب سورية . اذ كانت هذه السياسة مسؤولةعن الجزء الاكبر من هذه الخسارة . والدليل على ذلك ان الخسارة توقفت بعد الانفصال الجمركي عن لبنان .

أما تعويض هذه الخسارة الكبيرة فكان يتم على حساب اضمحلال وتآكل الثروة الوطنية شيئا فشيئا من الجوانب التالية :

ــ من الذهب المخزون والذي فقد القسم الاكبر منه .

ــ من أرباح تجارة العبور (الترانزيت) رغم قلتها وعدم تناسبها مع مكانة سورية ولبنان وأهمية الموقع الجغرافي الذي تحتلانه اذ أنها لم تكن تتجاوز الـ ١٨ مليون ليرة سورية سنويا . ثم من البضائع التي كانت تستورد ثم يعاد تصديرها .

ــ من التبرعات وريع رؤوس الاموال الموظفة في الخارج ومن ارباح الحجاج والسواح والطلاب الغرباء والاصطياف .

ــ من أموال المهاجرين . وقد بلغ ما وصل البلاد منها بين عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٤ أكثر من ١١٤ مليون ليرة سورية(٩) .

ــ من الرسوم التي كانت تستوفى من شركات البترول التي تمر أنابيبها عبر الاراضي السورية واللبنانية(١٠) ، ومن الطائرات التي كانت تهبط في المطارات .

ــ من أرباح التهريب الخفية .

٢ ــ علاقات سورية التجارية مع البلدان العربية وصور عن واقع هذه العلاقات :

ان الحال الذي وصلت اليه الاوضاع في الجزء الآسيوي من الوطن العربي بعد الحرب العالمية الاولى . حيث « تضرب فيه الاسداد بين فريق وفريق، وتقام الفواصل وتصطنع الحدود والحواجز ، وتبتكر السياج حول مقاطعات اقليمية »(١١) . ان هذا الذي ادى الى تقسيم هذا الجزء من الوطن الى دويلات ذات حدود مصطنعة ، قد قلب الموقع الاقتصادي التقليدي لسورية ، وهو موقع احتل مكانة رئيسية في كل منطقة الشرق الادنى خلال الفترة الواقعة بين ١٨٨٠ و ١٩١٤ .

لقد لمس معاصرو تلك المرحلة آثار التجزئة السياسية الاستعمارية على مصالح المنطقة الاقتصادية ، وبشكل خاص على مصالح سورية ، بعد السهولة التي كانت تسير بها التجارة في المنطقة دون حدود سياسية ودون حواجز جمركية . وان ما كتبه لطفي الحفار في جريدة الشعب في ١٧ تموز عام ١٩٣٠ ، وما ذكره بدر الدين الشلاح في مذكراته في شرح أسباب الازمة الاقتصادية في سورية يقدم خير صورة لتلك الآثار السلبية السيئة . حيث يرجع كل منهما هذه الاسباب الى تقسيم البلاد . « فسورية التي كانت قبل الحرب مورد التصدير الى الاناضول والروملي والعراق والحجاز وفلسطين . تصدر الى كل هذه المناطق المحيطة محصولاتها الوطنية ، كما تسهل لها مرور المصنوعات والمنسوجات الاجنبية ، خسرت بعد الحرب هذه الاسواق . ودمشق التي كانت تصدر أفضل أنواع النسيج والفواكه المجففة الى فلسين ومصر والحجاز والعراق حينما كانت حركة النقل والمواصلات بين دمشق وهذه الاقطار العزيزة سهلة وميسورة لا تقف بوجهها حدود أو جمارك . دمشق هذه وجدت نفسها ، عندما فرض الاستعمار التجزئة ورسم الحدود السياسية والجمركية الوهمية بينها وبين هذه الاسواق ، معزولة اقتصاديا . وحل بها الضيق والبطالة والكساد . وانعكس هذا كله على علاقاتها التجارية »(١٢) .

رغم كل هذه الظروف القاسية التي أحاطت بعلاقات سورية التجارية مع شقيقاتها ، فان سورية استطاعت أن تعيد لهذه العلاقات حيويتها ونشاطها بسرعة ، مؤكدة بذلك أن ارتباط المصالح الاقتصادية بين البلاد العربية ، التي هي في الحقيقة أجزاء من سوق تجارية واحدة متكاملة ، يملك من القوة ما يمكنه من الصمود امام عوامل التجزئة مهما كان شكلها وحجمها . وعادت البلاد العربية ما بين ١٩٣٩ و ١٩٤٩ لتصبح من أحسن من تعامل مع سورية تجاريا . وكانت سورية هي الرابحة دوما من هذا التعامل . فعلى سبيل المثال استوردت سورية مع لبنان في عام ١٩٣٩ من مصر والعراق وفلسطين وشرق الاردن والمملكة العربية السعودية ما قيمته ٧٣٢٢ الف ليرة سورية . وصدرتا الى هذه البلدان ما قيمته ١٥٧٤٧ ألف ليرة سورية ، أي ضعف قيمة ما استورد منها . واستمر التعامل مع البلاد العربية يتحسن ، وبقي لمصلحة سورية حتى بلغت قيمة ما استوردته مع لبنان من البلاد العربية في عام ١٩٤٦ نحو ٣٧٥١٩ ألف ليرة سورية ، أي ما يعادل ١٤٪ من اجمالي قيمة الواردات البالغ ٢٦٦٦٥٤ ألف ليرة سورية . بينما بلغت قيمة ما صدرتاه الى هذه البلدان في هذه السنة نحو ٣٩٠٩٥ ألف ليرة سورية ، أي ما يعادل ٤٧٪ من اجمالي قيمة الصادرات البالغ ٨٥٥٦٢ الف ليرة سورية. وفي عام ١٩٦٩ وصلت قيمة ما استوردته سورية من البلاد العربية الى ١٩٨٩٤٢ الف ليرة سورية ، وقيمة ما صدرته الى هذه البلدان ٢٤٥٣٢٨ الف ليرة سورية وتكون سورية ، وقد انفردت بتجارتها الخارجية بعد انفصالها عن

لبنان عام ١٩٥٠ ، قد حققت من هذه العلاقات المميزة ربحا مقداره ٤٦٣٨٦ ألف ليرة سورية . اخيرا بلغت قيمة واردات سورية من البلاد العربيـة في عام ١٩٨٩ نحـو ١٣٢٤ مليون ليرة سورية . وقيمة صادراتها ٥٦٣٦ مليون ليرة سورية . وبذلك يكون ربح سورية من علاقاتها مع البلدان العربية قد ارتفع الى أكثـر مـن ٤٣١٢ مليـون ليرة سورية(١٣) .

ونظرا للروابط التقليدية بـين سورية وفلسطين ضمـن وحـدة بـلاد الشام الجغرافية ، حيث كانت فلسطين اكثر اسواق التصدير قيمة بالنسبة لسورية ، فان تجار دمشق كانوا حريصين دوما على عدم قطع هذه الروابط ، وعلى ابقـاء هـذه الاسواق مفتوحة لانها كانت تؤمن العمل لنحو ٢٥٠ الف عامل سوري ولان قيمـة ما كانت تستجره من بضائع لا تقل عن ثلاثة ملايين ليرة ذهبية عثمانية(١٤) .

ونتيجة لممارسات وطنية وقومية من الجانبين السوري والفلسطيني بقي للسوق الفلسطيني دوره الكبير في الاقتصاد السوري خلال فترة الانتداب . وبقيت تجـارة فلسطين مع سورية اكثر نشاطا من التجارة مع كل من مصر والعراق . حيث تبين من احصاءات ١٩٣٤ ــ ١٩٣٧ ان حصة سورية من مجموع مستوردات فلسطين من البلدان الثلاثة المجاورة مصر وسورية والعراق قد بلغت ٦٣٪ كما بلغت حصتها من صادرات فلسطين الى هذه البلدان نحو ٨٠٪ . وكان رصيد العلاقات التجارية بين سوريـة وفلسطين ايجابيا لمصلحة سورية ، حيث كان معدل ما تبيعه سورية لفلسطين لا يقل عن اربعة اضعاف ما تشتريه منها . ففي عام ١٩٢٧ على سبيل المثال ، باعت سوريـة لفلسطين ما قيمته ٨٨٢١٣٢ ليرة سورية . واشترت منها مـا قيمتـه ٢٦٠٧٢٧ ليرة سوريه . وفي مقدمة البضائع التي كانت تصدرها سورية الى فلسـطين : الحنطـة والشعير والطحين والبيض والالبسة والمنسوجات الحريريـة والاحذيـة والجزمات الجلدية والاسمنت والبطاطا . وكانت هـذه البضائع تدخـل الى فلسطين في مطلـع الثلاثينات بسهولة بسبب ضعف بنية الاقتصاد الفلسطيني في تلك الفترة من جهة ، وبسبب مقاطعة عرب فلسطين للمنتجات اليهودية من جهة اخـرى . وكان معرض القدس العربي الذي افتتح في تموز ١٩٣٣ ، والذي كانت المنتوجات السورية فيه موضع اعتزاز أهل فلسطين ، مناسبة لتوثيق الروابط الاقتصادية بين البلدين .

وتستفيد سورية مما تربحه من علاقاتها مع البلدان العربية في تعديل الميزان التجاري ،وتغطية جزء من الخسارة التي تلحقه من العلاقات مع البلـدان الاخـرى ، وبخاصة العلاقات مع بلدان السوق الاوربية المشتركة والبلدان الامريكية . والجدول التالي رقم ٤ يبين تطور حجم علاقات سورية التجارية مع كل البلدان العربية مجتمعة .

جدول رقم ٤

تطور حجم علاقات سورية التجارية مع البلدان العربية

(القيمة بملايين الليرات السورية)

السنوات	قيمة الواردات من البلاد العربية	قيمة الصادرات الى البلاد العربية	قيمة اجمالي واردات سورية	قيمة اجمالي صادرات سورية
١٩٤٦*	٣٧	٣٩	٢٦٦	٨٥
١٩٦٩	١٩٨	٢٤٥	١٤١١	٧٨٩
١٩٧٩	٢٦٣٧	٧٦٠	١٣٠٦٧	٦٤٥٣
١٩٨٩	١٣٢٤	٥٦٣٦	٢٢٥٤٤	٣٣٧٣٩

* * *

* ارقام هذه السنة فقط تخص سورية ولبنان معا بسبب الوحدة الاقتصادية التي كانت بينهما .

الصورة الاولى

علاقات سورية التجارية مع العراق :

كانت العلاقات التجارية وثيقة بين المدن العراقية والمدن السورية أثناء الحكم العثماني . وكانت حلب بصورة خاصة مركزا تجاريا هاما ومخزنا لتوزيع البضائع في الشرق باجمعه .

أما في زمن الانتداب فقد طرأ على هذه العلاقات تطورات جديدة نتيجة لخضوع كل من البلدين لنظام سياسي واقتصادي مختلف فانتداب فرنسي في سورية ، وانتداب انكليزي في العراق . وقامت الحدود الجمركية بين البلدين فاتجه العراق نحو الخليج العربي ، في حين اتجهت سورية نحو ساحل البحر المتوسط . وظل الحال على هذا الشكل حتى مطلع الحرب العالمية الثانية . وكان العراق خلال هذه المدة يستفيد من التعرفة الجمركية الدنيا بموجب أحكام المادة ١١ من صك الانتداب على صادراته الى سورية بينما كانت سورية لا تنال مقابل ذلك أي تسهيل لبضائعها المصدرة الى العراق ، فكانت الواردات منه تفوق الصادرات اليه بكثير . وفي مطلع الحرب العالمية الثانية بدأت هذه الحالة تتغير ، وصار الميزان التجاري يتأرجح بين التعادل وبين الخسارة البسيطة . ففي عام ١٩٤٦ بلغت قيمة الواردات من العراق ١٦ مليون ليرة سورية ، وقيمة الصادرات اليه نحو ١٢ مليون ليرة سورية . فكانت الخسارة بسيطة . وفي عام ١٩٤٧ كان الميزان التجاري رابحا لاول مرة ، اذ بلغت قيمة الواردات منه نحو سبعة ملايين ليرة سورية ، وقيمة الصادرات اليه نحو ١٧ مليون ليرة سورية . أي بربح قدره ١٠ ملايين ليرة سورية .

وسورية في الحقيقة هي ممر طبيعي للبضائع الذاهبة للعراق والخارجة منه . وتجارة الترانزيت الى العراق تحتل المكانة الاولى في الترانزيت السوري . ففي عام ١٩٨١ ، قبل فتور العلاقات التجارية مع العراق لاسباب سياسية طارئة ومؤقتة . بلغت قيمة البضائع المارة لحساب العراق أكثر من ٦ر١٦ مليار ليرة سورية . كما أن سورية وقد سبقت العراق بنهضتها الصناعية والزراعية ، كانت احسن سوق تتزود منه العراق بما تحتاجه .

وبقيت العلاقات مع العراق تزداد أهمية يوما بعد يوم . تدعمها الاتفاقيات التجارية التي تعقد بينه وبين سورية . ففي عام ١٩٥١ ، بعد الانفصال عن لبنان ، تم

الاتفاق بينهما لتصدر سورية القمح الى العراق على أن يسدد ثمنه بمنتجات عراقية من اغنام وجمال وتمور وشعير وجلود وبترول(١٥) . أما أهم ما يستورده العراق من سورية المنسوجات القطنية والحريرية والصوفية والاحذية والشالات والمصنوعات الزجاجية والخزفية ، ثم الفواكه والقمح وقمر الدين والصابون وزيت الزيتون والتبغ والخضراوات والاثمار المحفوظة والمجففة .

الا أن العراق عاد ليصبح الرابح من التجارة طيلة فترة تزويده لسورية بالبترول الخام . ففي عام ١٩٦٩ بلغت قيمة صادرات العراق الى سورية نحو ٨٨ مليون ليرة سورية . في حين لم تتجاوز قيمة وارداته من سورية الـ ٢٤ مليون ليرة سورية . فكان ربحه بحدود الـ ٦٤ مليون ليرة سورية . وارتفعت قيمة صادراته الى سورية في عام ١٩٨١ الى أكثر من ٣ر٧ مليار ليرة سورية . اما قيمة وارداته منها فلم تتجاوز الـ ٩ر٥ مليون ليرة سورية . وبالتالي كان ربحه في هذه السنة أكثر من ثلاثة مليارات ليرة سورية(١٦) .

والجدول التالي رقم ٥ بأرقامه يبين تطور العلاقات التجارية مع العراق منذ عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٨١ .

جدول رقم ٥

تطور علاقات سورية التجارية مع العراق (١٧)

السنوات	قيمة الواردات (١٠٠٠ ل.س)	قيمة الصادرات (١٠٠٠ ل.س)	الربح أوالخسارة (١٠٠٠ ل.س)
١٩٣٩	١٢٧٥	١١١١	(–) ١٦٤
١٩٤٩	٢٦٨١٣	٢٢٣٥٣	(–) ٤٤٦٠
١٩٦٩	٨٨٠٨٧	٢٤٢٤٦	(–) ٦٣٨٤١
١٩٨١	٣٧١٣٣٢٦	٥٩٢٩	(–) ٣٧٠٧٣٩٧

الصـورة الثانية

علاقات سورية التجارية مع المملكة العربية السعودية :

بقيت العلاقات بين سورية من جهة والمملكة العربية من جهة اخرى ، محدودة الى وقت متأخر . ففي عام ١٩٣٩ لم تتجاوز قيمة الصادرات اليها من كل من سورية ولبنان الربع مليون ليرة سورية . وقيمة الواردات منها الـ ٥١ الف ليرة سورية . ثم تدنت هذه الارقام في السنوات الاولى للحرب العالمية الثانية ، وعادت بعد ذلك الى النشاط حتى عام ١٩٤٥ حيث كان الميزان التجاري معها خاسرا لاول مرة اذ هبطت الصادرات الى ثلث الواردات . ومنذ عام ١٩٤٦ بدأ الرجحان في الميزان يميل لحساب سورية ولبنان حتى بلغ الصادر في عام ١٩٤٧ عشرة أضعاف الوارد منها . وفي عام ١٩٥٠ ، بعد الانفصال ، عقد بينها وبين سوريه معاهدة تجارية لانماء التبادل بينهما الى أقصى حد مستطاع ، ثم اتبعت المعاهدة بقرض لسورية تسدده بالبضائع السورية من حبوب وبقولات وفواكه مجففة وطازجة واقمشة قطنية وحريريةوصوفية وملبوسات وأحذية وسكاكر ومحفوظات وزجاج وخزف وصابون وزيت زيتون . أما اهم ما كانت تستورده سورية من المملكة العربية السعودية فهو الجلود الخام والجمال.

واستمر تحسن العلاقات التجارية بين البلدين كماً وقيمة . وبقي الربح الذي كان بازدياد مستمرا أيضا لمصلحة الجانب السوري . ففي عام ١٩٦٩ وصل الربح الى أكثر من ١١ مليون ليرة سورية . وارتفعت الارباح في عام ١٩٨١ الى نحو ١٤٢ مليون ليرة سورية . أما في عام ١٩٨٩ فقد قفزت هذه الارباح الى أكثر من ١٥٩٩ مليون ليرة سورية(١٨) وأرقام الجدول التالي رقم ٦ تبين بوضوح تطور حجم العلاقات التجارية مع المملكة العربية السعودية منذ عام ١٩٣٩ ونسبتها الى اجمالي قيمة الواردات والصادرات السورية .

جـدول رقم ٦
تطور حجم العلاقات التجارية السورية مع المملكة العربية السعودية

السنوات	قيمة الواردات (١٠٠٠ ل.س)	قيمة الصادرات (١٠٠٠ل.س)	قيمة اجمالي واردات سورية (١٠٠٠ل.س)	قيمة اجمالي صادرات سورية (١٠٠٠ ل.س)
١٩٣٩	٥١	٢٥٠	١١٣٢٥٣	٣٦٥١٧
١٩٤٩	١٢٧٥٧	٥٧٨٧	٥١٦١٨٧	١١١١٠٤
١٩٦٩	٦٤٤	١٢٤٢٣	١٤١١٣٢٤	٧٨٩٩١٨
١٩٨١	١٥٢٤٠	١٥٧١٨١	١٩٧٨١٠٤٢	٨٢٥٢٧٣١
١٩٨٩	٤١٨٢٠٢	٢٠١٧٢٠٦	٢٣٥٤٤٠٠٠	٣٣٧٤٠٠٠٠

الصورة الثالثـة

علاقات سورية التجارية مع المملكة الاردنية :

كان شرق الاردن يحتل في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية مباشرة ، المرتبة السادسة بين المتعاملين تجاريـا مع سورية بالشكل الرسـمي المعلن . الا ان التهريب على الحدود بين البلدين في هذه الفترة ، وهي حدود طويلة ، كان يتـم على نطاق واسع ، حيث اصبح شرق الاردن مركزا لتوزيع وتهريب البضائع الى كافة البلدان العربية . وقد بلغت قيمة الصادرات اليه في عام ١٩٤٦ على سبيل المثال نحو ٤ ملايين ليرة سورية مقابل ٥ر٥ ملايين ليرة سورية للواردات منه .

ويقي الميزان التجاري يتأرجح بين البلدين ، فتارة يميل لمصلحة سورية، وأخرى لمصلحة الاردن . ولكن في الغالب كانت سورية هي الرابحة بالنسبة للمبادلات الرسمية المعلنة . اما بالنسبة للمبادلات الخفية (التهريب) فالربح كان دوما من حصة الاردن .

وفي كل الاحوال ، يبقى الاردن من بين البلدان العربية التي تتعامل تجاريا مـع سورية بشكل واسع . وذلك نتيجة للجوار بين هذين البلدين الشقيقـين من جهة ، وللتكامل الاقتصادي بينهما ، وحاجة كل منهما للاخر من جهـة اخرى . ففي عـام ١٩٦٩ كان الاردن ثاني بلد عربي تصدر اليه سورية بعد لبنان . ورابـع بلـد عربي تستورد منه بعد العراق ولبنان ومصر . فقد بلغت قيمة الصادرات اليه أكثر مـن ٥ر٤١ مليون ليرة سورية من أصل ٢٤٥ مليون ليرة سورية قيمة اجمالـي الصادرات السوريه الى البلدان العربية . أما الواردات منه فقد كانت بحدود ٥ر١٤ مليون ليرة سورية من أصل ١٩٩ مليون ليرةسورية قيمة اجمالي الواردات السورية من هـذه البلدان . وتكون سورية قد حققت في هذه السـنة من علاقاتها التجارية مع الاردن ربحا صافيا مقداره ٢٧ مليون ليرة سورية .

وفي عام ١٩٨١ ازداد حجم التبادل بين البلدين لتصل قيمة الصادرات السـورية الى الاردن الى نحو ١١١ مليون ليرة سورية ، من أصل ٧٩٧ مليون ليرة سورية قيمة اجمالي الصادرات السـورية في هذه السنة الى البلدان العربية . اما الواردات فقد بلغت فيمتها أكثر من ١٤٣ مليون ل.س . من أصل ٥٩٦٧ مليـون ل.س ، قيمـة اجمالي الواردات السـورية لهذا العام من هذه البلدان . وهكذا يكون الاردن بهـذه الارقام ثالث بلد عربي تستورد منه سورية بعد العراق ولبنان ، وخامس بلد تصدر اليه بعد الكويت وليبيا والمملكة العربية السـعودية ولبنان .

أما في عام ١٩٨٩ فقد حافظ الاردن على مرتبته الخامسة بين البلدان العربيـة التي تصدر اليها سورية بعد كل من المملكة العربية السعودية ولبنان والامارات العربية المتحدة وتونس . حيث بلغت قيمة ما صدر اليه نحو ٣٢٣ مليون ل.س . من أصـل ٥٦٣٦ مليون ل.س . قيمة اجمالي الصادرات السورية الى هذه البلدان . أما في حقل الواردات فقد كانت قيمة ما استوردته سورية منه نحو ١٢١ مليون ل.س . من أصل ١٣٢٤ مليون ل.س قيمة اجمالي واردات سورية من البلاد العربية . وهو بهذا يكون قد حافظ على مرتبته السابعة(١٩) .

وهكذا يتضح أن سورية هي التي أصبحت تربح في الفترات الاخيرة ، وبشكل جيد من عمليات التبادل التجاري مع الاردن . وقد تحقق هذا كنتيجة طبيعية للتقدم الصناعي والزراعي الذي شهدته سورية ولفائض انتاجهما الذي يحتاج اليـه الاردن البلد المجاور . ثم للسياسة الحكيمة والموجهة التي أصبحت سمة أساسية من سمات التجارة الخارجية السورية ولعلاقاتها مثلها في ذلك كمثل بقية القطاعات الاقتصادية الاخرى . يضاف الى ذلك الدور الذي تلعبه تجارة الترانزيت الى الاردن حيث بلغت قيمة البضائع المارة بسورية الـى الاردن في عام ١٩٨٩ أكثـر من ٧٥٧ مليون لـيرة سـورية .

* * *

الصــورة الرابعــة

علاقات سورية التجارية مع مصر :

بدات علاقات سورية التجارية مع مصر في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين الاولى والثانية ، بشكل متواضع من حيث حجمها ، رغم ما يصل هذين البلدين من روابط تاريخية وثقافية واقتصادية ، ورغم ما يقتضيه الحال بأن تكون مصر من أول زبائن سورية لحاجتها ، وهي البلد المستهلك الكبير ، لما يفيض من الانتاج السـوري . وحاجة سورية بالمقابل لبعض ما تنتجه مصر .

ورغم سهولة المواصلات البحرية وقربها . ورغم توصيات مجلس جامعة الدول العربية المتكررة بتوثيق وتوسيع العلاقات بين دول الجامعة . فقـد بقيت مصر حتى عام ١٩٤٩ لا تحتل الا المقام السابع بين البلاد المستوردة من سورية ، والمرتبة التاسعة بين البلاد المصدرة اليها . وذلك لأن مصر كانت تفضل في هذه الفترة تصدير منتجاتها الى أسواق النقد القوي .

وبقي حجم تجارة سورية مع مصر محدودا في الفترات التالية ، كما أن العلاقات كانت تتعرض باستمرار لتأثير الاحداث السياسية التي مرت بالبلدين وبالمنطقة العربية عامة . كالوحدة بين البلدين والانفصال الذي تلاها . ثم الحروب مع اسرائيل والمواقف المتباينة من النتائج التي أفرزتها هذه الحروب ـ وخاصة حرب تشرين عام ١٩٧٣ ـ والتي أدت الى القطيعة المؤقتة بين البلدين والتي استمرت حتى عام ١٩٩٠ .

أما مبيعات سورية لمصر فقد كانت تتكون من بعض الثمار والبقول المجففة والتبغ والتنباك وخيوط الحرير . وقد بلغت قيمة هذه المبيعات في عام ١٩٤٦ ، بعـد الحرب العالمية الثانية مباشرة ، نحو خمسة ملايين لـيرة سورية . ثم أخذت هـذه القيمـة بالتناقص حتى وصلت الى نحو ثلاثة ملايين ليرة سورية فقط في عام ١٩٤٩ . وبالمقابل كانت سورية تستورد من مصر القطن(٢٠) والسكر والارز والنحاس والاسفلت وبطانيات الصوف والافلام السينمائية . وقد بلغت قيمة هذه المستوردات في عام ١٩٤٦ نحـو سبعة ملايين ليرة سورية . وتناقصت هذه القيمة في عام ١٩٤٩ بمقدار قليل لتعود الى الارتفاع من جديد وتصل في عام ١٩٦٩ الى ١٩ مليون ليرة سورية . وبعـد الانقطاع الذي أعقب احداث حرب تشرين ، عادت الواردات في عام ١٩٨٩ لتسجل قيمـة ٢٣ مليون ليرة سورية . في حين بقيت الصادرات حتى هذه السنة شبه معدومة .

وما تجدر الاشارة اليه في العلاقات التجارية بين سورية ومصر ، هو أنها بدأت

ضعيفة واستمرت كذلك . وان الميزان التجاري بدأ لمصلحة مصر في هذه العلاقات وبقي حتى عام ١٩٨٩ لمصلحتها ولكن الارباح كانت ولا زالت ضعيفة اذا ما نسبت الى الارباح التي كانت تحققها العلاقات التجارية مع البلدان العربية الاخرى ، خاصة تلك التي تتعامل مع سورية تجاريا على نطاق واسع . والجدول التالي رقم ٧ يبين ذلك بوضوح .

جدول رقم ٧

العلاقات التجارية السورية مع مصر

السنوات	قيمة الواردات (١٠٠٠ ل.س)	قيمة الصادرات (١٠٠٠ ل.س)	الربح اوالخسارة (١٠٠٠ ل.س)
١٩٣٩	٢٤١٨	١١٣٢	١٢٨٦ (—)
١٩٤٩	٦٧٨٤	٢٣٨٨	٣٣٩٦ (—)
١٩٦٩	١٨٩٥٣	٢٤٧٥٥	٥٨٠٢ (+)
١٩٨١	٢٣١	—	٢٣١ (—)
١٩٨٩	٢٣٢٩٩	—	٢٣٢٩٩ (—)

* * *

الصورة الخامسة

علاقات سورية التجارية مع لبنان :

ان الوحدة الجمركية بين سورية لبنان والتي أوجدتها السلطات الفرنسية ، وابقت عليها سلطات البلدين في أول عهد الاستقلال ، لم تكن لتقتصر على الجمارك فحسب ، انما كانت تتسع لتكون شبه وحدة اقتصادية بين البلدين .

وكان لبنان يستغل هذه الوحدة الاقتصادية لمصلحته على حساب سورية ، ويحتكر فوائد تجارة البلدين الخارجية مستفيدا من وجود ادارة الجمارك والمرفأ ومراكز وكالات وتخليص البضائع وأسواق القطع لديه ، وفي بيروت بالذات ، ليفرض نفسه كوسيط لعمليات الاستيراد والتصدير الى سورية مقابل نفقات باهظة يدفعها في النتيجة المستهلك السوري .

ثم ان لبنان كان ينتهج ، وبشكل منفرد ، سياسة اقتصادية تتنافى ومصلحة شريكه سورية ، فيفتح أبوابه على مصراعيها أمام البضائع الاجنبية لتغزو الاسواق السورية وتضارب المنتوجات المحلية وتشل النشاط الصناعي وتستنزف الثروات وتدخل الخلل الى الميزان التجاري .

وبعد الاستقلال، رغبت سورية انتهاج سياسة اقتصادية بديلة تحد من الاستيراد للكماليات ، وتحمي المصنوعات الوطنية وتشجعها ، وتقي البلد شر استنزاف الثروة التي أصبح تآكلها يهدد كيان البلد الاقتصادي ، وتوقف الخسارات الفادحة في الميزان التجاري . لقد أرادت سورية في الحقيقة اعادة تنظيم التجارة الخارجية للبلدين المتحدين اقتصاديا ، على أسس صحيحة في مجالي التصدير والاستيراد ، وتعديل فوائد المصالح المشتركة مع لبنان وجعل القسمة عادلة بحيث تتلاءم مع عدد المستهلكين في كلا البلدين . وهي لم ترد القطيعة بأي شكل من الاشكال . الا أن هذه الاسس الجديدة التي اقترحت سورية تنفيذها لصالح البلدين وللحفاظ على الوحدة الاقتصادية بينهما ، لم ترق للبنان لانها ستحد بالطبع من مكاسب المنتفعين وستضع حدا للاستغلال الذي كان يحقق لهم المرابح الطائلة . وأمام الموقف المتشدد من لبنان ورفضه لأي تعديل للشكل القديم للوحدة الاقتصادية ، لم يبق أمام سورية من أجل صيانة الجزء الباقي من ثروتها الا فصم الوحدة الاقتصادية عام ١٩٥٠ وتحررت سورية من القيود التي كانت تربطها وتمنعها من توجيه تجارتها الخارجية وعلاقاتها التجارية وفق ما تقتضيه المصلحة الوطنية .

وهكذا تحول ما كان يجري داخليا من تبادل مصالح بين البلدين في ظل الوحدة الاقتصادية ، الى تجارة خارجية . وأخذت خطوط التعامل في هذه التجارة الجديدة بين البلدين تتضح شيئا فشيئا لتصبح متشابهة لما هو موجود بين سورية وبقية البلدان العربية المجاورة كالاردن والعراق . مع فارق بسيط يعود للعلاقات السابقة ويتمثل بسهولة المبادلات . ففي عام ١٩٦٩ فاقت قيمة ما صدرته سورية الى لبنان الـ ١١٢ مليون ل.س ، وقيمة ما استوردته منه الـ ٧٢ مليون ل.س . وارتفعت الارقام في عام ١٩٨٩ الى أكثر من ١٥٠٦ ملايين ل.س للصادرات . في حين لم تصل قيمة الواردات لأكثر من ٧١ مليون ل.س ، فتكون سورية قد حققت بذلك ربحا يزيد على الـ ١٤٣٥ مليون ليرة سورية .

٣ ـ علاقات سورية التجارية مع البلدان الاجنبية وصور عن واقع هذه العلاقات :

منذ ان وضعت سورية تحت الانتداب الفرنسي بعد الحرب العالمية الاولى ، والعلاقات تسير وفق ما تقتضيه مصلحة الدولة المنتدبة التي كانت لا تترك مجالا لأي دولة اجنبية أخرى لمزاحمتها في جني فوائد الانتداب(٢١) . فبقيت تتبوأ لوحدها المركز الاول في المبادلات حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، حيث استقلت سورية ، وظهر على المسرح التجاري العالمي مزاحمون جدد مثل الولايات المتحدة الامريكية التي انتزعت المكانة الاولى من فرنسا ودفعتها الى المرتبة الثالثة . في حين بقيت انكلترا تحتل المكانة الثانية طيلة هذه الفترة .

والصفة البارزة في علاقات سورية مع الدول الاجنبية في هذه المرحلة هي عدم تمشيها مع ما تقتضيه المصلحة من حماية للثروة الوطنية من خطر التبديد . فقيمة الواردات من هذه الدول اكثر من قيمة الصادرات اليها بعدة مرات . والامور التي كانت تدعم الاسترسال في هذه العلاقات ، رغم معرفة ما تجر من أضرار ، كثيرة وفي مقدمتها أن سورية لم تكن تملك في ظل الانتداب حرية القرار .ثم السياسة الاقتصادية المشتركة مع لبنان التي استمر اعتمادها بعد الاستقلال ، والتي كان ما يسمى فيها بالمصالح المشتركة يستغل بأبشع شكل من قبل تجار لبنان عامة ، وتجار بيروت خاصة . حيث كانوا يغرقون الاسواق بالكماليات ، يستوردونها ليتم تصريفها فيما بعد في سورية . مستغلين في ذلك سيطرتهم على الميناء الوحيد للاستيراد السهل في البلدين ، ولولا أن تم عام ١٩٥٠ الانفصال الاقتصادي عن لبنان ، وانهاء المصالح المشتركة ، لانتهى الامر بسورية الى كارثة اقتصادية لا يعلم مداها .

ولأول مرة في تاريخ سورية التجاري منذ الانفصال عن جسم الامبراطورية العثمانية ، اخذت قيمة الصادرات فيها تقترب من قيمة الواردات حتى فاقتها في مطلع عام ١٩٥٣(٢٢) .

وفي المرحلة الحالية ، وبعد أن أصبحت سورية تطبق سياسة اقتصادية وطنية موجهة ، ان كان في مجال الزراعة والصناعة ، أو في مجال استثمار الثروات الطبيعية وفي مقدمتها البترول والفوسفات . ثم بعد أن وضعت هذه التجارة في خدمة التنمية الشاملة ، وما يقتضيه تنفيذ الخطط الخمسية الموضوعة لهذا الهدف . نتيجة لكل ما تقدم ، أصبحت الصفة البارزة لعلاقات سورية مع الدول الاجنبية هي الحرية في اختيار التعامل الامثل ومع أي طرف من هذه الاطراف الاجنبية ، وبشكل متوازن وعقلاني ، ملتزم بكل ما من شأنه الحفاظ على الثروة الوطنية وتنميتها ، دون التقصير في تلبية ما تتطلبه التنمية المستمرة . وقد تمثلت هذه الصفة وبكل وضوح في واقع التجارة الخارجية لسورية في عام١٩٨٩ عندما تخطت قيمة الصادرات ،وللمرة الثانية، وبعد سنوات من التأرجح بين الخسارة والتوازن ، وبمقدار كبير ، قيمة الواردات ، ومعظمها من البلدان الاجنبية(٢٣) .

لقد تغيرت طبيعة العلاقات التجارية مع الدول الاجنبية في المراحل الاخيرة من هذه الفترة نتيجة للسياسة الاقتصادية الوطنية التي اتبعتها سورية في تنظيم هذه العلاقات بشكل ينسجم مع طبيعة العلاقات السياسيه بينها وبين كتل العالم ومعسكراته المختلفة . لقد توجب عليها أن تشق لعلاقاتها التجارية ولمبادلاتها مع الدول الاجنبية طريقا آمناً في ميادين لم تعد تشغلها دول ذات نظام اقتصادي واحد هو النظام الراسمالي ، انما أصبح فيها معسكر لنظام اشتراكي أيضا وآخر لنظام غير منحاز ، خاصة وأن العلاقات مع هذه الانظمة الجديدة تختلف في طبيعتها عن تلك التي هي مع النظام الرأسمالي . وان الاساس فيها هو تبادل المنافع .

وفي سبيل تطوير علاقات سورية التجارية مع البلدان الاجنبية في هذه المرحلة الجديدة من تاريخ علاقاتها التجارية . ومع البلدان الصديقة بشكل خاص ، ومن أجل زيادة حجم التبادل التجاري مع هذه الدول . فقد بذل نشاط كبير في عام ١٩٦٩ كما سبق وذكرنا ، وذلك من أجل تأمين أسواق جديدة للمنتجات السورية . وتأمين مصادر جديدة لاستيراد السلع والتجهيزات اللازمة لتنفيذ مشاريع التنمية الشاملة والمستمرة . وقد توج هذا النشاط بعقد المزيد من الاتفاقيات التجارية واتفاقيات التعاون الاقتصادي(٢٤) . والجدول التالي رقم ٨ يبين حجم علاقات سورية التجارية مع الكتل الرئيسية للبلدان الاجنبية في ثلاث فترات متعاقبة .

جــدول رقــم ٨
علاقات سورية التجارية مع الكتل الرئيسية للبلدان الاجنبية

السـنوات		قيمة الواردات ١٠٠٠ ل.س	قيمة الصادرات ١٠٠٠ ل.س
	بلدان السـوق الاوربية	٣٧١٧٠٩	١٤١٨١٤
١٩٦٩	البلدان الاشتراكية	٤٣٧٢٣٣	٢٩٧٢٥٥
	البلدان الامريكيــة	٦٦٩٩٤	٥٠٧٨
	بلدان السـوق الاوربية	٤١٩١٠٠٠	٣٣٢٢٠٠٠
١٩٧٩	البلدان الاشتراكية	٢٣٥١٠٠٠	١٠٣٦٠٠٠
	البلدان الامريكيــة	٦٢٥٠٠٠	٦١٩٠٠٠
	بلدان السـوق الاوربية	٩٨٢٧٩٦٨	١٠٤٦٦٦٦١
١٩٨٩	البلدان الاشتراكية	٣٣٣٠٢٢٨	١٤٢٢٧١٢٨
	البلدان الامريكيــة	٢١٨٢٦٦٨	٨٠٦٨٤٨

* * *

الصــورة الأولــى

علاقات سورية التجارية مع الولايات المتحدة الامريكية :

اصبحت الولايات المتحدة الامريكية في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ضمن مجموعة الموردين الاساسيين لسورية بعد أن سيطرت على التجارة العالميـة ، وانتزعت من فرنسا مكان الصدارة في العلاقات التجارية لهذا البلد . ووصل وزن ما صدرته لسورية ولبنان في عام ١٩٤٧ على سبيل المثال ، ٦٦١.٠٤ أطنان ، بقيمة تزيد على ٩٧ مليون ليرة سورية . بينما لم يتجاوز وزن ما صدر اليها من سورية في هذا العام الـ ٩٤٧٠ طنا ، بقيمة لا تزيد على ٦ ملايين ليرة سورية . فالميزان التجاري كان خاسرا معها في هذه الفترة بشكل كبير . وقد وصلت الخسارة الى هذا الشكل الكبير بسبب سنوات الرفاه التي جاءت بعد الحرمان الطويل أثناء الحرب العالميـة الثانية . ففتحت الابواب على مصراعيها أمام البضائع الامريكية ، وقسم كبير منهـا يدخل في باب الكماليات ، وارتفعت أرقام الواردات ارتفاعا هائلا من حيث الوزن ومن حيث القيمة ، حتى أصبحت نسبة الصادرات اليها لا تساوي الا ٥٪ فقط . ولم يوقف هذا الاتجاه الخطير ، الا بعد أن حصل الانفصال عن لبنان بعد ١٩٥٠ . ومن استعراض الواردات لهذه الفترة ،والتي تضم السيارات والزيوت المعدنية والكاوتشوك والافلام والالبسة المستعملة (البالة) والاقمشة والورق والخيوط والادوية والروائح وأدوات الزينة والجعة والمشروبات والسجاير ومصنوعات النايلون ، يتضح أن ٧٥٪ من هذه الواردات يستهلك دون أن يدر على البلاد أية فائدة . والباقي ونسبته ٢٥٪ فقط يستفاد منه في الصناعة والزراعة . وبالمقابل تضم قائمة ما تصدره سورية اليهـا التبغ والتنباك والصوف وزيت الزيتون وعرق السوس والجلود والامعاء . ومعظم هذه الصادرات مواد خام أولية يستفاد منها في الصناعة .

ومع اصرار سورية على الاستمرار في تطبيق سياستها الاقتصادية الجديدة الموجهة ، واتفاق ذلك مع عودة النشاط الى مناطق الانتاج والاسواق المختلفة في غرب أوربا وفي شرقها . ثم ظهور التكتلات الاقتصادية والسياسية الجديدة في العالم ، مثل السوق الاوربية المشتركة في غرب القارة الاوربية ، ومنظومة التعاون في شرقها ، وكتلة عدم الانحياز والعالم الثالث . أمام كل هذه الاوضاع ، أخذت العلاقات التجارية مع الولايات المتحدة الامريكية تتقلص . لتتوسع وتتوثق بالمقابل علاقات جديدة ومفيدة وموزونة مع بلدان في أوربا الشرقية والغربية وفي آسيا ، علاقات موجهة ومدروسة ، وهي في الوقت نفسه حلقة من مخطط اقتصادي متكامل .

وهكذا أصبح حجم العلاقات التجارية مع الولايات المتحدة الامريكية يتحدد وبفعل عاملين أساسيين : الاول سياسة سورية الاقتصادية وما ترسمه لتنظيم علاقاتها التجارية الخارجية مع الكتل الاقتصادية والسياسية العالمية . والثاني المنافسة المتعاظمة من قبل الاطراف الاوربية الغربية والشرقية ومن قبل اليابان . بعد أن استطاعت هذه الاطراف ترميم ما دمرته الحرب ، واستعادة قوتها الاقتصادية ونشاطها التجاري . ولعل أرقام الجدول التالي رقم ٩ واللوحة رقم ٤ تعطي فكرة واضحة عن تطور حجم العلاقات التجارية مع الولايات المتحدة الامريكية عند عام ١٩٣٩ ونسبتها الى اجمالي قيمة الواردات والصادرات السورية .

جدول رقم ٩

تطور علاقات سورية التجارية مع الولايات المتحدة الامريكية

السنوات	قيمة الواردات من امريكا الف ل.س	قيمة اجمالي واردات سورية ألف ل.س	قيمة الصادرات الى امريكا الف ل.س	قيمة اجمالي صادرات سورية الف ل.س	الربح أو الخسارة الف ل.س
١٩٣٩	٧٠٧٥	١١٣٢٥٣	٣٨٩٢	٣٦٥١٧	— ٣١٨٣
١٩٤٩	١١٨٩٦٩	٥١٦١٨٧	٣٧٥٩	١١١١٠٤	— ١١٥٢١٠
١٩٦٩	٥٠٩٤٤	١٤١١٣٢٤	٥٠٥٥	٧٨٩٩١٨	— ٤٥٨٨٩
١٩٨٩	١٨٥٩٠٢٢	٢٣٥٤٤٠٠٠	٨٠٠٦٢١	٣٣٧٤٠٠٠٠	— ١٠٥٨٤٠١

لوحـة رقـم ٤

تطور علاقات سورية التجارية مع الولايات المتحدة الامريكية

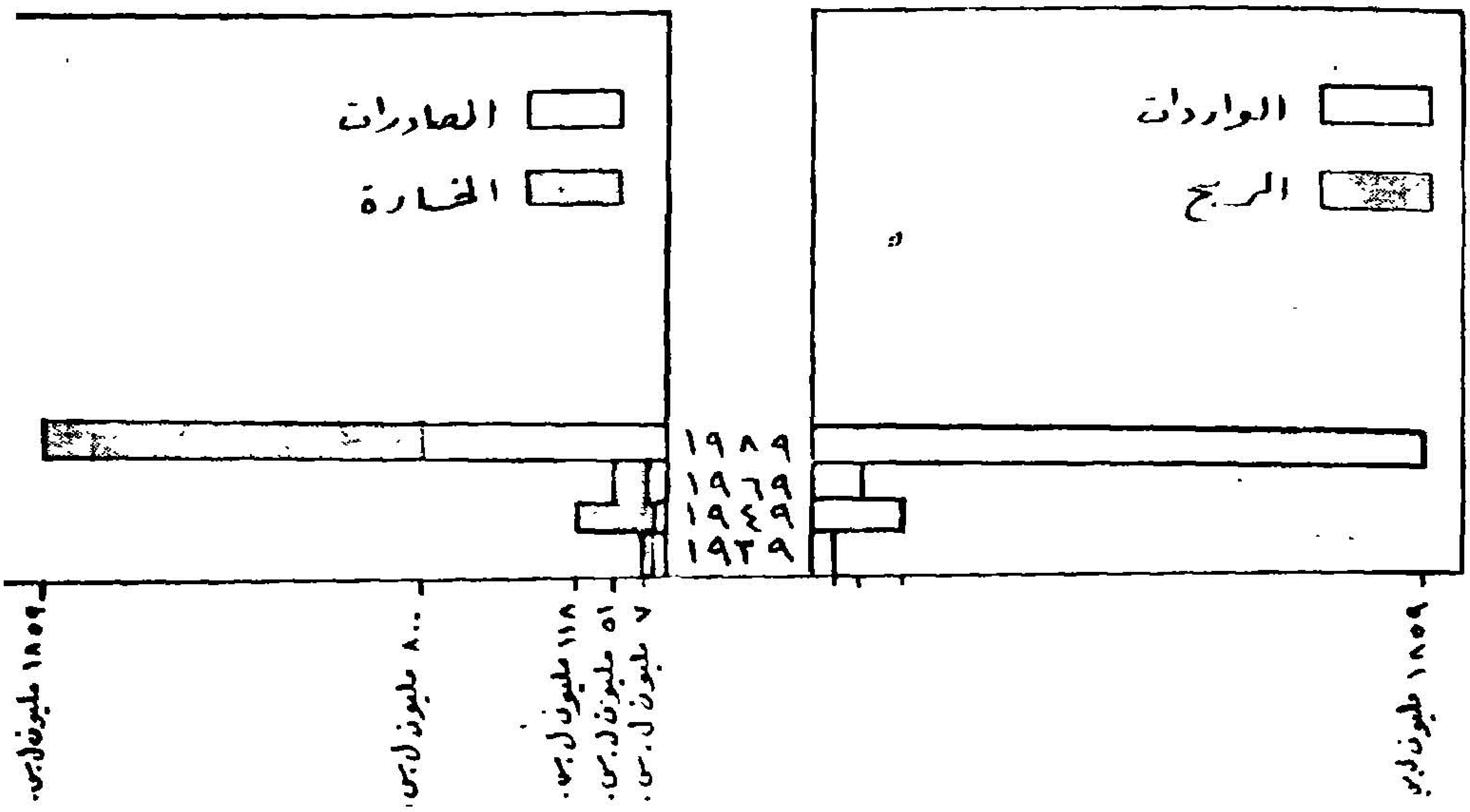

الصورة الثانيـة

٢ ـ علاقات سورية التجارية مع الاتحاد السوفييتي :

برغم ان سورية نالت استقلالها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فأصبحت حرة في اتباع السياسة الاقتصادية التي تتمشى مع مصالحها ، فقد تأخر ولاسـباب سياسية ، بدء العلاقات التجارية مع أطراف المنظومة الاشتراكية .

ولكن هذا الوضع لم يدم طويلا ، اذ سرعان ما أقدمت سورية اولا ، ثم تبعتهـا اقطار عربية أخرى ، ففتحت صفحة علاقاتها التجارية مع أطراف هذه المنظومـة ، ومع الاتحاد السوفييتي بالذات . ولم يأت عام ١٩٦٣ الا وكانت حركـة الصادرات

والواردات قد اخذت طريقها الى التوسع . ومنذ عام ١٩٦٤ بدأت سوريـة باكورة علاقاتها التجارية مع الاتحاد السوفييتي باستيراد ما يقرب من ١١ الف طـن مـن قضبان السكة الحديدية وهي كافية لتمديد خط بطول ١١٠كم . وفي عام ١٩٦٥ تم استيراد كمية اخرى تكفي لتنفيذ ١٠٠ كم مع كل ما يلـزم من الات ومعدات اليـة للتنفيذ السريع . واستمرت هذه العلاقات تتطور بسرعة لتأخذ دورها الهام بين علاقات سورية التجارية العالمية . انما بشكل جديد ومختلف عما كان يتم في السابق وفـق اتفاقيات تجارية طويلة الامد مدعومة باتفاقيات تعاون اقتصادي ابرمت مع أكثر من بلد من البلدان الاشتراكية . فمع الاتحاد السوفييتي(٢٥) ، تم في عام ١٩٦٩ ابرام اتفاق تعاون اقتصادي وتجاري من أجل توثيق العلاقات التجارية يقضي بأن يقـوم الاتحاد السوفييتي بتقديم قرض الى سورية بغية تنمية صناعة النفط وتوليد ونقل الطاقة الكهربائية وانشاء الخطوط الحديدية واقامة مصنع للمنتجات الحديدية واخر لاطارات السيارات وتسليم الات ومعدات البناء ومواد البناء للازمة لذلك . بالاضافة الى المعدات والالات الزراعية اللازمة لتهيئة أكثر من ١٧ الف هكتار للاستثمار الزراعي في منطقة مشروع الفرات الكهرمائي . على أن يتم التسديد بمنتجات سوريـة معدة للتصدير من مواد خام ومواد مصنوعة او نصف مصنعة .

وقد كان من نتائج هذا التعاون الوثيق أن تصدر الاتحاد السوفياتي في عـام ١٩٦٩ المكان الاول بالنسبة لصادرات سورية ووارداتها حيث تجاوزت قيمة ماصدرته سورية الى الاتحاد السوفييتي في هذه السنة الـ ١٣٦ مليون ليرة سورية من ٧٩٠ مليون ليرة سورية قيمة اجمالي الصادرات السورية . أي ما يساوي ١٧٪ منها . كما بلغت قيمة واردات سورية من الاتحاد السوفييتي ١٢٦ مليون ليرة سورية من ١٤١١ مليون ليرة سورية قيمة اجمالي الواردات السورية . أي ما يساوي ٨ر٩٪ منها(٢٦).

وظل الاتحاد السوفياتي حتى السنوات الاخيرة من المرحلة الحالية من بين أوائل المتعاملين مع سورية . وقد تبعه في ذلك عدد من بلدان المنظومة الاشتراكية في شرق أوربا كرومانيا والمانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا . ثم في شـرق اسـيا كالصـين .

وأرقام الجدولين التاليين رقم ١٠ ورقم ١١ اللذين يعودان لعامي ١٩٨١ و ١٩٨٩ يبينان بوضوح دور الاتحاد السوفييتي ودور بعض الاطراف الاخرى في المنظومـة الاشتراكية في علاقات سورية التجارية من حيث قيمة ما تستورده سورية من هـذه البلدان وما تصدره اليها ومقابلة ذلك مع قيمة اجمالي الصادرات والواردات السورية.

جدول رقم ١٠

واردات سورية وصادراتها في عام ١٩٨١ من والى بعض البلدان الاشتراكية

البلدان	قيمة الواردات ١٠٠٠ ل.س	قيمة الصادرات ١٠٠٠ ل.س	الربح او الخسارة ١٠٠٠ ل.س
الاتحاد السوفياتي	٢٨٣٨٩٧	٤٤٦٢٣٩	+ ١٦٢٣٤٢
رومانيا	٨٣٩٧٩٠	٨١٠٠٧١	– ٢٩٧١٩
المانيا الديموقراطية	٥١٤٢٩٥	١٥٣٩٧١	– ٣٦٠٣٢٤
تشيكوسلوفاكيا	٣١٦٧٩٤	٧٣٩٧٣	– ٢٤٢٨٢١
بلغاريا	٣٩٩٨٩٥	٣٧١٠٦	– ٣٦٢٧٥٣
الصين	٣١٨٨٩٤	٩٩٢٤١	– ٢١٩٦٥٣

قيمة اجمالي واردات سورية
١٩٧٨١٠٤٢ الف ل.س

قيمة اجمالي صادرات سورية
٨٢٥٣٧٣١ الف ل.س

جدول رقم ١١

واردات سورية وصادراتها في عام ١٩٨٩ من والى بعض البلدان الاشتراكية

البلدان	قيمة الواردات ١٠٠٠ ل.س	قيمة الصادرات ١٠٠٠ ل.س	الربح او الخسارة ١٠٠٠ ل.س
الاتحاد السوفياتي	٣٠٣٨٩٢٧	١٢٠٥٢٧٩٧	١١٠١٣٨٧٠+
رومانيا	٤٤٥٥٩٦	١٥٦٣٥٩٣	١١١٧٩٩٧+
بلغاريا	٢٦٩٠٥١	٧٣٩٠٦	١٩٥١٤٥-
تشيكوسلوفاكيا	٢٠٣٠٥٤	١١١٥١٢	٩١٥٤٢-
هنغاريا	٣٠٠٧٩٧	٣٥٠٠١	٢٦٥٧٩٦-
الصين	٣٣٣٧٢٣	١٧٤٤٨	٣١٦٢٧٥-

قيمة اجمالي واردات سورية ٢٣٥٤٤١٢٢ الف ل.س

قيمة اجمالي صادرات سورية ٣٣٧٣٩٦٣٨ الف ل.س

الصـــورة الثالثـة

٣ ـ علاقات سورية التجارية مع بريطانيا (المملكة المتحدة) :

كانت بريطانيا قبل عام ١٩٣٩ تشغل المرتبة الثانية في التعامل مع سورية ولبنان. اما في عام ١٩٤٦ فقد تراجعت مرتبتها الى السابعة . ويعود السبب في ذلـك الـى اوضاع بريطانيا الخاصة بعد الحرب العالمية الثانيــة التي اضطرتها لاتبـاع نظـام اقتصادي شديد ، كل شيء فيه يخضع للتقنين . ولكن هذا الوضع لم يدم طويلا . اذ سرعان ما تخطته بتحسين شروط انتاجها الصناعي . وأخذت من جديد تغـرق أسواق سورية ولبنان بالمنتوجات الصناعية والمحـركات والالات ، لتقفـز بذلك الواردات منها قفزات كبيرة ، مع بقاء الصادرات اليها منخفضة .

الا أن العلاقات التجارية مع بريطانيا بقيت متخلفة عن العلاقات مـع اطـراف السوق الاوربية المشتركة طيلة وجودها خارج هذه السو ق من جهة . ولان بريطانيا كانت من جهة اخرى تحرص بالدرجة الاولى على توسيع علاقاتها مع مناطق مجموعة رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولت). اضافة الى ان البضائع البريطانية ، رغم جودتها ، كانت تلقى بسبب ارتفاع اسعارها منافسة قوية من بضائع الدول الصناعية الاخرى . ولكن ذلك لم يمنع سورية ، التي اختطت لنفسها في المراحل الحالية توسيع علاقاتها التجارية مع كل بلدان العالم ، من أن تشجع بقاء أسواقها مفتوحـة لما هـو ضروري ومطلوب من المنتجات الصناعية البريطانيــة لســد حاجة متطلبات البنـاء والتنمية ، اضافة لطبيعة السوق الواسعة التي تسيطر عليها بريطانيا اقتصاديا وهي سوق مجموعة الاسترليني التي يمكن ان يصرف فيها العديد من الصادرات السورية.

أما أهم الواردات من انكلترا فهي المنسوجات بأنواعها ، وخاصـة الاقمشـة الصوفية ، ثم الادوية والكاوتشوك وخيوط الغـزل على أنواعهـا والالات والمحركات والذهب والحديـد . والورق . أما الصادرات اليها فهي الحبـوب وزيت الزيتـون والمحفوظات والتنباك والجلود ثم العظام وقرون الحيوانات .

والجدول التالي رقم ١٢ يوضح سير علاقات سورية التجارية مع بريطانيـا منذ عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٨٩ .

جدول رقم ١٢

علاقات سورية التجارية مع بريطانيا (٢٧)

السنوات	قيمة الواردات من انكلترا ألف ل.س	قيمة اجمالي واردات سورية ألف ل.س	قيمة الصادرات الى انكلترا الف ل.س	قيمة اجمالي صادرات سورية الف ل.س	الربح أو الخسارة ألف ل.س
١٩٣٩	٨٧٠٧	١١٢٢٥٣	٢٤٥٩	٣٦٥١٧	٦٢٤٨
١٩٤٩	١٠٨١١٧	٥١٦١٨٧	٩٦٩٤	١١١١٠٤	٩٨٩٢٣
١٩٦٩	٦٤٩٣٣	١٤١١٣٢٤	٨٠٣٦	٧٨٩٩١٨	٥٦٨٩٧
١٩٨٩	٦٨٦١٣٠	٢٣٥٤٤٠٠٠	٣١٠٣٨٧	٢٣٧٤٠٠٠٠	٣٧٥٧٤٣

* * *

الصورة الرابعة

علاقات سورية التجارية مع ايطاليا :

تتمتع ايطاليا بمركز تجاري مهم في حوض البحر المتوسط ، وتملك صناعة متنامية . يدعمها اسطول تجاري كبير ، وانخفاض في أسعار الكلفة . مما جعل البضائع التي تختص بانتاجها رائجة . لهذا تحتل مكانة مرموقة بين البلدان التي تتعامل معها سورية .

يضاف لما تقدم ان لهذه العلاقات التجارية بين سورية وايطاليا جذورا تاريخية تعود الى الروابط بين تجار البندقية والمدن الايطالية الاخرى . ومراكز التجارة السورية القديمة على الساحل وفي الداخل تشهد على ذلك . والخانات القديمة التي لا زالت موجودة في أسواق هذه المراكز تحمل اسمهم .

أهم ما يستورد من ايطاليا المنسوجات بأنواعها وخيوط الغزل والاجهزة الكهربائية والورق والسيارات والرز ، أما أهم ما يصدر اليها ففي المقدمة يأتي القطن والبترول، ثم الجلود والصوف والفوسفات وزيت الزيتون .

بدأت العلاقات التجارية الجديدة بين سورية ولبنان وايطاليا قبل الحرب العالمية الثانية ناشطة . وكانت الخسارة في البداية بسيطة لم تتجاوز عام ١٩٣٩ الثلاثة ملايين ليرة سورية ونيف . الا أن هذه الخسارة ارتفعت بعد الحرب ، وقد توقفت أثناءها بسبب انقطاع السبل ، بحيث أصبحت في ١٩٤٩ بحدود ١٣٫٦ مليون ليرة سورية(٢٨). ثم تتابعت ارقام الاستيراد من ايطاليا بشكل قفزات واسعة فابتعدت بذلك قيمة هذه الواردات عن قيمة ما كانت تصدره سورية اليها .

ففي عام ١٩٦٩ وصلت قيمة ما صدرته ايطاليا الى سورية الى ١٢٣ مليون ليرة سورية . في حين كانت قيمة ما استوردته من سورية ٩٦٫٥ مليون فقط .

الا أن الوضع التجاري بين سورية وايطاليا تبدل في السنوات الاخيرة تبدلا كبيرا ولمصلحة سورية . ففي عام ١٩٨٩ فاقت قيمة الصادرات السورية الى ايطاليا قيمة ما استورد منها بمقدار كبير . فقد كانت قيمة الصادرات اكثر من ٥٢٣٦ مليون ليرة سورية . في حين لم تتجاوز قيمة الواردات منها الـ ١٦٥٩ مليون ليرة سورية . وتكون سورية قد حققت من هذه العلاقات ربحا يزيد على الـ ٣٥٧٦ مليون ليرة

سورية . أما في عام ١٩٩٢ فقد بلغت قيمة الصادرات اليها ١٢١٦٣ مليون ليرة سورية بينما لم تتجاوز قيمة الواردات منها الـ ٣٢٠٨ ملايين ليرة سورية ، وبهـذا يكـون ربح سورية قد ارتفع الى ما يقرب من ٨٩٥٥ مليون ليرة سورية .

والملاحظ بصورة عامة ان صادرات سورية الى ايطاليا تزداد وتتناقص تبعـا للمواسم الزراعية في البلدين . فعندما تكون هذه المواسم رديئـة في ايطاليا وجيدة في سورية ، ترتفع نسبة واردات ايطاليا من سورية من المنتجات الزراعية الغذائية .

ثم يجب ان لا يغيب عن البال أن ايطاليا التي تفتقر الى النفط . قد وجدت في النفط السوري ما يناسبها من حيث القيمة ومن حيث التركيب الحاوي على الكبريت والذي يتطلب لمعالجته أنواعا خاصة من المصافي تنطبق مواصفاتها على المصافي الايطالية. والجدول التالي رقم ١٣ يبين تطور قيمة المبادلات التجارية بين سورية وايطاليا منذ عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٩٢ .

جدول رقم ١٣

علاقات سورية التجارية مع ايطاليـــا

السنوات	قيمة الواردات (١٠٠٠ ل.س)	قيمة الصادرات (١٠٠٠ ل.س)
١٩٣٩	٥٤٤٤	٢٢٦٤
١٩٤٩	٢٦٨٧٢	١٣٢١٩
١٩٦٩	١٢٣٠٧٨	٩٦٥٩٥
١٩٨١	١٩٨٦٦٨٨	٢٤٨١١٩٤
١٩٨٩	١٦٥٩٥٢٠	٥٢٣٦٣٤٧
١٩٩٢	٣٢٠٨٠٠٠	١٢١٦٣٠٠٠

الصورة الخامسة

علاقات سورية التجارية مع تركيا :

ان أهم البلدان المجاورة والتي لها علاقات تجارية مع سورية ، هي تركيا . وانه لما يثير العجب أن تكون العلاقات التجارية بين بلدين متجاورين ، تمتد الحدود بينهما على مئات الكيلومترات ، محدودة ، بحيث لم يتجاوز حجم التجارة بينهما عشرات الالوف من الليرات السورية فقط في بداية التعامل بعيد الحرب العالمية الاولى ، بعد تفكك الدولة العثمانية . واذا ما تذكر المرء حالة المبادلات قديما ، حينما كانت حلب مخزنا لجنوب الاناضول يوزع البضائع من أقمشة ومنتوجات محلية الى أورفا وعينتاب وديار بكر ومرعش فانه سيزداد عجبا .

ان أسباب ضعف العلاقات هذه كثيرة . منها سياسية ومنها اقتصادية . وسياسة تركيا الاقتصادية الصارمة في صيانة ثروتها الوطنية في الفترة الاولى لقيام الدولة التركية الجديدة . وتشابه المنتوجات وخاصة المنتوجات الزراعية في كل من البلدين . قد قلل من أهمية المبادلات . الا أن هذا لا يمنع القول بأنه من الممكن قيام حركة مبادلات لكثير من الاصناف . ففي وسع سورية أن تصدر الى تركيا مثلا منسوجات الحرير الاصطناعي والاسفلت والبترول وبعض المنتجات المعدنية والصناعية . وأن تستورد منها بالمقابل الاخشاب الجيدة والفحم الحجري والورق والاسماك والاغنام والانواع الجيدة من السجاير .

ثم هناك مسألة التهريب الواسعة على الحدود التي يزيد طولها على الـ ٥٥٠ كم ، بين البلدين ، وهي لا تدخل في الحسابات والاحصاءات الرسمية .

ثم هناك تجارة العبور (الترانزيت) التي كانت ولا تزال تجري لحساب تركيا عبر الاراضي السورية . وتلعب دورا هاما بالنسبة لعلاقات تركيا التجارية مع اقطار الخليج العربي . ففي عام ١٩٤٧ وفي البداية كانت تركيا من بين البلدان الاوائل التي تصدر وتستورد عن طريق سورية ، حيث بلغت آنذاك قيمة ما صدرته عن طريق سورية نحو ١٧ مليون ليرة سورية ، فكانت رابع دولة بين ٢٥ دولة . كما بلغت قيمة ما استوردته سورية في السنة نفسها أكثر من ١٢ مليون ليرة سورية ، أي ثامن دولة بين ٢٥ دولة . وقد ارتفعت هذه الارقام في عام ١٩٨١ بشكل كبير لتصبح قيمة ما صدرته عن طريق سورية ١١٣٤ مليون ليرة سورية ، وقيمة ما استوردته ٣٨

مليون ليرة سورية . وبقيت الارقام مرتفعة بهذا الشكل حتى عام ١٩٨٩ ، على الرغم من أن تجارة الترانزيت قد تراجعت في سورية بشكل عام . فقيمة صادراتها عن طريق سورية لم تهبط عن مبلغ ١١.٨ ملايين ليرة سورية. في حين ارتفعت قيمة ما استوردته عن طريق سورية الى ٥٨ مليون ليرة سورية .

هذا وانه لمن الطبيعي كنتيجة لسياسة التشدد التي تتبعهـا تركيا في معاملاتها التجارية مع سورية ومع غيرها من بلدان العالم ، أن تكون العلاقات معها خاسرة غالبا وأن يميل الميزان التجاري لمصلحتها دوما .

والجدول التالي رقم ١٤ يبين ذلك بكل وضوح . كما يبين أيضا ارتفاعا ملموسا في قيمة المبادلات ، ولكن لمصلحة تركيا أيضا .

جـدول رقـم ١٤
علاقات سـورية التجارية مـع تركيـا

السنوات	قيمة الواردات (١٠٠٠ ل.س)	قيمة الصادرات (١٠٠٠ ل.س)	الربح أو الخسارة (١٠٠٠ ل.س)
*١٩٣٩	٢٢٥٣	١٢٧	(ـ) ٢١٢٦
*١٩٤٩	١٢٢٩٨	٥٥٦	(ـ) ١١٧٤٢
١٩٨١	٣٧٩٧٧٥	١٢٢٧١	(ـ) ٣٦٧٥٠٤
١٩٨٩	١٨٥٤٤٢٧	٢٩١٧٤٧	(ـ) ١٥٦٢٦٨٠

* أرقام عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٩ هي لسورية ولبنان معا بسبب الوحدة الاقتصادية التي كانت قائمة بينهما .

الحواشـــي :

(١) جاء في تقرير لجنة (كنغ ـ كرين) الـذي صدر في صيف عام ١٩١٩ ما يلي : « لما كانت سورية جزءا من رأس الجسر الذي يربط بين اسيا واوربا وافريقيا ، حيث يلتقي الشرق والغرب بصورة فريدة ، فـان موقعها ذو أهمية استراتيجية وسياسـية وتجارية » .

(٢) كتاب الوطن العربي ـ الجزء الاول (سورية ولبنان) لعبد العزيز عثمان ، نشر مكتبـة ربيع بحلب عام ١٩٥٧ ـ ص : ٢٣٣ .

(٣) تجارة سورية ولبنان الخارجية بين ١٩٣٩و ١٩٥٠ محمود خليل اغا . جامعة دمشـق ١٩٥٢ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) أول شحنة صدرت من البترول السوري كانت في عام ١٩٥٨ من ميناء طرطوس .

(٦) استوردت سورية في هـذا العام ، ومن مختلف اسواق العالم ، ما قيمته ٣٠٧ملايين ليرة سورية . وصدرت مقابل ذلك ماقيمته ٣٦٩ مليون ليرة سورية . فتكون قد حققت بذلك ربحا مقداره ٦٢ مليون ليرة سورية ـ المجموعة الاحصائية السنوية لوزارة الاقتصاد الوطني .

(٧) عقد في هذه الفترة عـدد من الاتفاقيات التجارية واتفاقيات التعاون الاقتصادي مـع أكثر الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي . كذلك مع عدد من بلدان العالم النامي . وسيرد استعراض مفصـل لبعض هذه الاتفاقيات الهامة في سياق الكلام عن العلاقات التجارية مع أهم بلدان العالم .

(٨) النشرات الصادرة عن وزارة التخطيط وعن وزارة الاقتصاد الوطنـي والتي تتضمن التفاصيـل الكاملة عن تطبيقـات الخطط الخمسية للتنمية الاقتصادية ونتائجها .

(٩) تجارة سورية ولبنان الخارجية بين ١٩٣٩و ١٩٥٠) مصدر سبق ذكره .

(١٠) وصلت الرسوم التي كانت تستوفي عن مرور البترول العراقي قبل توقفه الى ما لا يقل عن ٩٠٠ مليون ليرة سورية .

(١١) المقاطعة الاقتصادية للصهيونية واسرائيـل (١٩٩٣) الدكتورة خيرية قاسمية .

(١٢) المصدر السـابق .

(١٣) الارقام التي وردت في الشـرح مصدرهـا النشرات الصادرة عن وزارة الاقتصاد الوطني وعن غرفتي تجارة دمشق وحلب اضافة الى المجموعات الاحصائية الصادرة عن المكتـب المركزي للاحصاء بدمشق .

(١٤) المقاطعة الاقتصادية للصهيونية ولاسرائيل . الدكتورة خيرية قاسمية ١٩٩٣ .

(١٥) كانت مصفاة حمص ، قبل ان تتحول الـى التزود بالبترول السوري ، تعتمد علـى البترول العراقي المار عبر الاراضي السورية بواسطة خط انابيـب شركة البتـرول العراقية . كجزء من رسوم المرور . ثـم اصبحت الرسوم كلها نقدية .

(١٦) المجموعة الاحصائية السنوية الصادرة عن مكتب الاحصاء المركزي بدمشق .

(١٧) حققت أرقام الجدول بالاعتماد على النشرات الرسمية لوزارة الاقتصاد الوطني ، ولغرفتي تجارة دمشق وحلب . وعلى تجارة سورية ولبنان الخارجية بين عامي ١٩٣٩ و ١٩٥٠ للاستاذ محمود خليل اغا .

(١٨) اضافة لكل ذلك ، كانت المملكة العربية السعودية على الدوام في مقدمة البلدان التي تستورد جزءا كبيرا من وارداتها عن طريق سورية . ففي عام ١٩٨١ كانت ثاني عميل ترانزيت لسورية بعد العراق حيث بلغت قيمة ما استوردته عن طريق سورية أكثر من ٢٫٩ مليار ليرة سورية .

(١٩) استخلصت الارقام من جداول المجموعة الاحصائية السنوية الصادرة عن مكتب الاحصاء المركزي بدمشق .

(٢٠) يرد القطن هنا بين واردات سورية من مصر بالنسبة للفترة التي سبقت بدء زراعة القطن في سورية .

(٢١) كانت المفوضية العليا الفرنسية ببيروت تتصرف باقتصاد سورية ولبنان حسب مشيئتها ، ولصالح فرنسا غالبا . وعندما انتقلت بعض الصلاحيات في عام ١٩٤٣ الى الحكومتين الوطنيتين في البلدين . لجأت السلطات الاستعمارية الى اتباع سياسة الدس بين البلدين مصورة لكل منهما انه المغبون في حقه من دخل المصالح المشتركة .

(٢٢) بلغت قيمة الصادرات لهذه السنة ٣٦٩ مليون ليرة سورية ، بينما كانت قيمة الواردات ٣٠٧ ملايين ليرة سورية فقط . تجارة سورية ولبنان ، محمود خليل اغا .

(٢٣) بلغت قيمة الصادرات لهذا العام ٣٣٧٤٠ مليون ليرة سورية.بينما كانت قيمة الوردات ٢٣٥٤٤ مليون ليرة سورية فقط .

(٢٤) عدا عن اتفاقية التعاونمع الاتحاد السوفييتي التي سيرد تفصيلها مع صورة العلاقات مع هذا البلد . فقد تم عقد اتفاق تعاون مع كل من الصين لانشاء معمل الغزل الرفيع في حماه ، ثم مع بولندا لانشاء معمل القضبان الحديدية في حماه ايضا ، ومصنع الفوسفات ، ومصنع الزجاج واللمبات الكهربائية ، ومصنع غسل الصوف ، ثم مع المانيا الديمقراطية لبناء مصانع اسمنت ، ومعمل الجرارات في حلب ، ومعمل الكابلات في حماه ، وعدد من المطاحن . على أن يتم تسديد ثمن ماستقدمه هذه البلدان من الات وتجهيزات بمنتجات سورية خام أو مصنعة أو نصف مصنعة من قطن وأسمدة وبترول مع مشتقاته وجلود وتبغ وخيوط ومنسوجات وغيرها من المصنوعات السورية. المصدر . الكتاب السنوي (سورية في ارقام وصور) الصادر عن وزارة الاعلام .

(٢٥) كذلك عقدت اتفاقيات تعاون اقتصادي وتجاري مثيلة لما عقد مع الاتحاد السوفييتي. وذلك مع كل من بولندا والمانيا الديمقراطية ورومانيا والصين . حيث تقوم هذه البلدان

بتقديم قروض طويلة الامد لسورية لتستورد الات ومعدات بناء معامل أو استثمار معدني أو كهربائي او زراعي . على ان يتم تسديد هذه القروض بمنتجات سورية معدة للتصدير .

كتاب الثورة ـ عامها التاسع . اصدار وزارة التخطيط بدمشق .

(٢٧) حققت ارقام الجدول بالاعتماد على النشرات الرسمية لوزارة الاقتصاد الوطني وعلى المجموعة الاحصائية السنوية للمكتب المركزي للاحصاء بدمشق .

(٢٨) محمود خليل اغا ، تجارة سورية ولبنان الخارجية بين عامي ١٩٣٩ و ١٩٥٠ جامعة دمشق ١٩٥٢ . مصدر سبق ذكره .

* * *